

حمدان بن عثمان خوجة

المكشاة

تقديم وتعريب وتحقيق
د. محمد العربي الزبيري

تصدير عبد العزيز بوتفليقة



محمّد علي
H
مصدر في الكتاب
الدولي بالزائر
الحامض
مصدران بن عثمان خزيمة

المرآة

تقديم وتعرّيب وتحقيق
د. محمد العربي الزبيدي

سلسلة التراث :

صدر عن نفس المجموعة

- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي
- الليلة المتوحشة، لمحمد نيب
- ليل الاستعمار، فرحات عباس
- وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي
- نصوص مختارة، عبد الحميد بن باديس

- *Le miroir*, Hamdan Khodja
- *La nuit coloniale*, Ferhat Abbas
- *Lettre aux Français*, Emir Abdelkader
- *Les Mémoires de Messali Hadj*, Messali Hadj
- *L'avenir de l'Islam et autres écrits*, Si M'hamed Benrahal
- *Lettre au Président Wilson et autres écrits*, Emir Khaled
- *Visages d'Algérie*, Assia Djebar
- *L'Algérie, Civilisations anciennes du Sahara*, Abdelaziz Ferrah
- *L'Etoile Nord-Africaine*, Collectif
- *Œuvre poétique*, Bachir Hadj Ali
- *El Euldj, captif des Barbaresques*, Chukri Khodja
- *Les poèmes de Si Mohand*, Mouloud Feraoun
- *Les conditions de la renaissance*, Malek Bennabi

تصدير

و أنا أطوي كتاب حمدان خوجة «المرأة»، وهو الأول ضمن سلسلة من عشرة كتب كانت محطات في تاريخ الفكر السياسي في بلادنا منذ أن أرخى عليها «الليل الاستعماري» سدوله، عشرة كتب بادرت المؤسسة الوطنية للإتصال النشر والإشهار، مشكورة، بمناسبة الصالون الدولي العاشر للكتاب، بإصدارها مجمعة هي إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين لثورتنا التحريرية الوطنية، اعتراني تأثر كبير، من حيث إنني مواطن جزائري ورئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. لكن كذلك من حيث إنني مسلم محب للإنسانية، يعتقد الاعتقاد الراسخ أن الثقافات والحضارات، على تنوعها العجيب، تنبجس من منبع إنساني واحد، وتمثل جوانب مختلفة للحضارة الانسانية الشاملة، وتستطيع بالتالي، مهما كانت الصعوبات، التحاور فيما بينها.

إن كتاب «المرأة» هو، بالفعل، الوثيقة الوحيدة ذات الأهمية، الموضوعية من قبل جزائري، التي وصلت إلينا والتي تشهد على هول الكارثة التي أوقعها الاحتلال الفرنسي على الجزائر العاصمة وما جاورها، بعد استسلام الداي حسين ورحيله إلى المنفى من قبل حتى أن يتخذ التدخل الفرنسي شكل استراتيجية غزو استعماري منهج لبلادنا.

جميع الحقوق محفوظة

© Editions ANEP
ISBN: 9947-21-254-8
Dépôt légal: 2124-2005

لقد سلم كتاب « المرأة » من التدمير والتخريب الشاملين اللذين طالا تراثا قاطبة بما في ذلك، بل وخصوصا، تراثا المكتوب، لأن حمدان خوجة نشره بباريس، باللغة الفرنسية، سنة 1833. إنه كتاب يمكن، بل يجب، قراءته بصفته شهادة على الغزو الاستعماري و إدانة لما كان عليه منذ مهلته الأولى : أي عملية إبادة للحضارة والتمدن لا يمكن أن تتجح إلا بفناء ساكنة الجزائر وإبادتها.

إلا أنه لا ينبغي قراءة كتاب « المرأة » بصفته بياننا مناهضا للاستعمار وكفى. فبالنسبة لهذا الكرغلي المنتمي إلى الأقلية الحاكمة التركية، الذي سافر إلى أوروبا والذي كان يحسن الفرنسية والانجليزية، إذا كان الاحتلال الفرنسي أمرا سلبيا على الإطلاق، فإن الإطاحة بالداي حسين، بفعل الاجتياح العسكري الفرنسي، يمكن أن تكون لها آثار إيجابية من حيث أنها تفتح المجال أمام إمكانية تحديث المجتمع الجزائري واتباعه وفق نمط الدولة الوطنية.

إن مسعى حمدان خوجة وفكره السياسي في مجملهما، إلى غاية ذهابه إلى المنفى باسطنبول سنة 1836 والتحاقه بالرفيق الأعلى سنة 1842، كان يرومان تحقيق هدف ذي أبعاد ثلاثة، إعادة رسم استقلال الجزائر على أساس إقامة دولة وطنية ومباشرة حوار مع فرنسا يضع حدا لمواصلة حرب الإبادة ومباشرة تحديث المجتمع الجزائري.

إن حمدان خوجة، بعيدا عن بعض ما نشهده حاليا من تخوفات وتشنجات، لا يخشى التحديث هذا، خاصة على المستوى الفكري والسياسي، بل إنه ينشده، ويتطلع إليه ولا يعتبر تحقيقه صعبا مستعصيا : « و في أثناء رحلتي إلى أوروبا، درست مبادئ الحرية الأوروبية التي تشكل أساس الحكم التمثيلي والجمهوري، ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا فارقا بسيطا في التطبيق، وعليه فكل من يدرك الشريعتين إدراكا صحيحا يستطيع

الموافقة بينهما.»

لم يمتد العمر بحمدان خوجة حتى يشهد تجسيد الهدف الثلاثي الأبعاد هذا للجزائر. فجهوده في سبيل ترقية الوحدة الوطنية بإصلاح ذات البين بين أحمد باي، باي قسنطينة، والأمير عبد القادر باءت بالفضل، شأنها في ذلك شأن الحوار مع السلطات الفرنسية.

لقد تعين مرور 130 سنة من الإبادة ومن إعادة تشكيل عموم مجتمعنا على وقع توالي ضربات النظام الاستعماري كي تتبثق أفكار حمدان خوجة النيرة أخيرا وتخرج من حجب ظلام « الليل الاستعماري ». فقبلت الدولة الفرنسية، في مارس 1962، على أسس أخرى و بعد معاناة طويلة، قبلت على مضض الاعتراف بسيادة الدولة الوطنية الجزائرية واستقلالها، منصفة حمدان خوجة ضد الجنرال كلوزيل وصوت التحديث السلمي والإرادي ضد التحديث الحربي والإبادي.

رجاؤنا هو أن يملأ، في 2005، صوت حمدان خوجة الأسماع في ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

عبد العزيز بوتفليقة

مقدمة

هل تنجد مصائب القرن السادس عشر في القرن التاسع عشر؟ ان كل ما وقع في الجزائر ، منذ ثلاث سنوات ، يفرض علي واجباً مقدساً يتمثل في التعريف بالوضع الحقيقي لهذا البلد قبل الغزو وبعده ، وذلك لألفت انتباه رجال الدولة الى هذا الجزء من العالم ، ولأقدم لهم ما لدي من معلومات وأنورهم حول بعض النقاط التي لا شك أنهم يحفلونها . أفعل ذلك لهم يبدون عطفهم على الجزائريين عندما يرون أوضاعهم .

ويسرد الشرور التي تعرض لها أبناء وطني ، فاني أريد ، كذلك ، أن أرفع من معنويات بعض الساكنين . ومن الصعب جداً أن أجد ، في مسألة الجزائر ، جانباً إيجابياً بالنسبة للأهالي . إنني لا زلت أبحث بدون جدوى عن مسليات هؤلاء السكان . فمصالحهم مجهولة ، وآمالهم مغبية ، ولا شفقة عليهم ولا رحمة ولا عدالة ، وبالتالي ، فاني أنسامل لماذا تزعزع بلادهم في جميع أسسها وتصاب في جميع مبادئها الحيوية . وإلى جانب ذلك أنظر إلى الأوضاع التي توجد عليها دول أخرى مجاورة لنا ، فلا أرى أية واحدة

منها مجبورة على تحمل ظروف مشابهة للظروف المفروضة علينا : إنني أرى اليونان تساعد وتتكون على أساس متين بعد أن فصلت عن الامبراطورية العثمانية ، وأرى شعب بلجيكا يفصل عن هولنده بسبب بعض الاختلاف في المبادئ السياسية والدينية ، وأرى ، جميع الشعوب الحرة منهم بالبولونيين وباسترجاع سيادتهم ، كما أنني أرى الحكومة الإنكليزية تخلص مجدها بتق الزنوج ، ويضحي البرلمان البريطاني بنصف مليار للمساعدة على ذلك العنق ، وعندما أدير البصر إلى بلاد الجزائر ، فإنني أرى هؤلاء السكان المساكين يبرزون تحت نير الاستبداد معرضين للإبادة ولجميع آفات الحرب وتلك المظالم كلها التي ترتكب باسم فرنسا الحرة .

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الكتاب قد نشروا مؤلفات عن الجزائر فإن معظمهم لم يعالج هذه المسألة إلا من زاوية المنافع المادية في البلاد . هذا بقطع النظر عن الطرق التي اتبعها السادة الولاة للحصول على تلك المنافع . هذا هو الجانب الذي اهتمت به في كتابي ، وأعتقد أن السلطات الفرنسية قد تصرفت بكونية تتعارض كلياً مع المبادئ التحررية ومع الإحسان الذي كان من حقنا أن نتظره من حكومتها . ولقد شد السيد بيشون عن قاعدة هؤلاء الكتاب .

إن معرفتي لأحوال هذا البلد ووضع الاجتماعي في مدينة الجزائر قد مكنتني من تقديم صورة صادقة ، كما أنني اعتمدت في ذلك على معرفتي لأحوال الإنسانية بصفة عامة .

إن مسألة الجزائر مسألة خطيرة لأنها تخص حياة أمة بأجمعها ، تتكون من عشرة ملايين نسمة ، وهي الآن ، من سوء الحظ ، في نقصان يتزايد من يوم لآخر بسبب الحرب ، والبلاد يقودها الظلم والطغيان منذ ثلاث سنوات .

ورغبة مني في القيام بالمهمة الخطيرة الملقاة على عاتق المؤرخ الحقيقي : تلك المهمة التي ما زال لم يضطلع بها أي واحد من المؤرخين الذين كتبوا عن إيالة الجزائر ، وعزماً مني على عدم إخفاء أي شيء ، بعيداً عن الزعم بأنني أكتب أحسن من غيري ، ولكنني مقتنع من أن لفرنسا رجالاً لن يهملوا ، لاكتشاف الحقيقة ، أية وسيلة تقدم لهم وتمكنهم من التأمل في عواقب تجاوزات السياسة ، ومتأكد من أن هؤلاء الرجال المعتمدين سيبتدون أساساً بمجد الأمة الفرنسية وذلك بالقضاء على جميع الأعمال المنافية لتلك المجد الذي يجب أن تتم به فرنسا كل الاهتمام لكي تحظى ببناء الأجيال المقبلة . على هذا الأساس ، فإنني أتوجه خاصة لهؤلاء الرجال الذين يضحون بسعادتهم لإسعاد الآخرين ولمضاعفة العلاقات الاجتماعية وتدعيمها .

إن المدنية الحق لا تكون بالكلام فقط ، ولا يمكن أن تطبق إلا بواسطة الناس مجريين يميزون بين احترام الإنسان ومصلحتهم .

ومن جهة أخرى ، فإنني أجنبي ولا أريد أن أعرض نفسي لانتقاد السوقة أو الفضوليين ، خاصة وأن واجبي يتمثل في قضية مقدسة لها علاقة بسعادة الإنسانية . إنني لست مرتاح البال ، بل على العكس فإن مصائب بلدي تغلطني باستمرار . ولقد كنت في كثير من الأحيان ، وأنا أسجل تلك المصائب ، أجهل على التوقف عن الكتابة لأنرك المجال للموعبي فتساب . وعلى الرغم من أن كتابي رواية تاريخية ، فإنه قد كتب ليقراه أشخاص من ذوي الرحمة والإحساس .

لقد قال أحد الفلاسفة : « إن كل جملة نصاغ بعقوبة تدل في نفس الوقت على الجوهر وعلى مساوئ الإحساس ، إن الإنسان الذي يقلقه الحب

يكون ملكاً لشعوره، ولا يهتم على الإطلاق بالكيفية التي يعبر بها عما يخالجه
نفسه : إن التعبير الأكثر بساطة هو قبل كل شيء ذلك الذي يفهمه .

وإذن ، فإن هناك موضوع آخر يشغل بال الناس في هذه الدنيا ، وهو
الخلافا الموجود بين الديانات والعادات والقوانين . فلا ينبغي أن يندهش
القارئ لتنوع الأخلاق والتقاليد في مختلف المقاطعات التي تكون إيالة الجزائر
كالصحراء والتل والجبال والمدن . ولو أننا نزور جزءاً من سويسرا ، أو
إيطاليا ، أو المجر ، والمانيا ، فلننا سنجد في تلك البلدان ، أيضاً ، تنوعاً
كبيراً حتى فيما يخص القوانين .

وكل شعب بصفة خاصة | ألا يعتقد أنه يملك أحسن التقاليد وأحسن
القوانين؟ ومع ذلك فليس ثمة حتى في نظر السوق ما هو أكثر سخيرية من مثل
تلك الادعاءات . وعلى من له تلك الأفكار أن يراجع نفسه ليرى أنه يهزأ
بها عندما يسخر من الآخرين .

ومن سوء الحظ ، فإن مثل هذا الاختلاف في العادات والتقاليد هو الذي
يكون دائماً في أساس احتقار الأمم بعضها لبعض ، وهو أمر ما كان يجب
أن يحدث لأن الحضارة لا تتمثل في كيفية الجلوس على مقعد أو على أريكة ،
أو في اللباس بهذه الطريقة أو بتلك ، ذلك أن بعض الناس أبقون ، يترددون
على الصالونات ولكنهم يشكلون ، في بعض الأحيان ، خطراً على الأخلاق
أو على المجتمع ، أما البعض الآخر فهم أناس بما في الكلمة من معنى يحتاجون
في بعض الأحيان إلى من يصلح أحوالهم . وبكل تأكيد ، فليست هذه هي
الحضارة التي نريد إدخالها إلى إفريقيا . إن الشرقيين يهبطون الحضارة هي
اتباع الأخلاق الشاملة والعدل إزاء الضعيف والقوي على حد سواء ، والمساهمة

في إسماعد الإنسانية التي تشكل أسرة كبيرة واحدة. ولكن للتغلب على الأهواء
والنزوات ، وللقيام بالواجبات ، ينبغي أن نستعمل جزءاً من الوقت للتعرف
حق المعرفة على الأسباب التي تجلب للبعض نوبهاً من الناس أجمعين وتغطي
الآخرين بمدح أبناء وطنهم ، وكذلك للتعرف على عظمة الأمم وانعطافها
قصد اتباع الخير وتجنب الشر .

إن المجريين المعتادين على القضايا سيفهمون كما ينبغي هذا الأسلوب
الفلسفي ، فإلى هؤلاء الناس أهدي هذا الكتاب .

حمدان بن عثمان عوجة

لمحة تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر

يسكن إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة ، وتتكون هذه الإيالة من مدن ،
وقرى ، وموانئ وأرياف . غير أن الجزء الأكبر الذي هو قاعدتها ومصدر
ثرواتها يوجد خارج المدن التي يبدو أنها تكونها . ويسكن هذا الجزء أناس
يطلق عليهم اسم البدو .

الفصل الأول البدو وأصلهم

ينقسم البدو إلى طبقتين أو على الأصح ، إلى نوعين متميزين من السكان فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة. أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو «القبائل» الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب. والفرق واضح بين اللغتين. فمثلاً يقول البربر ، للتعبير عن كلمة رجل ارغاز ، ويسمون الحجر ادغاغ .

وعندما احتل بن يومي أفريقيا لاحظ ان هؤلاء السكان كانوا جهلة منزوعين محبين للحرب شجعان ولكنهم غنيون ، يعيشون مرتاحي البال لا يشغلون بالمستقبل إلا قليلاً ويتخلون من جبالهم الوعرة حصوناً تحميهم من كل هجوم ولا حظ في الأخير أنهم كانوا يعيشون بطريقة بسيطة جداً ، ويرتدون ملابس غاية في البساطة ولا يعرفون أي نوع من أنواع الترف ولا أي امتياز من الامتيازات الاجتماعية .

ومراعاة لعاداتهم ، اكتفى هذا الفاتح بقبولهم الدخول في الاسلام
أو على الأحرى بحملهم هذا الاسم ، ولم يرَ من حقه ، لصالحهم وصالحه ،
أن يفرض عليهم قوانين غير قانونهم . بل ترك الناس يعيشون ، كما
كانوا في السابق في تعصبهم وأخطائهم ، ولم يفرض القانون الذي يحرم
المرأة من الميراث ، ووافق على عدم اقامة الحد على الذي يخالف الشرع
أو التقاليد ، مع العلم ان من عاداتهم في مثل هذه الحالات ، اتباع قانون
الجناب القوي ، وهذا السلوك الذي رأى الفاتحون المسلمون اتباعه في الفترات الأولى
قد جعلهم يأملون في أن تصبح هذه الشعوب مثلهم بمرور الزمن وبالتعاشر المستمر
ولذلك تركوا في كل قرية عالماً مستنبطاً أطلق عليه اسم « الم رابط » يتحتم
عليه تعاقب كل ما يريد منهم أن يتبنوه في صالحهم ، وفي سبيل الوصول إلى
سعادة مشتركة .

وعندما أراد العرب فتح اسبانيا (1) ، استعملوا هؤلاء البرابرة كأداة
تخدم مشاريعهم ، وجعلوهم يؤمنون بأن الموت في سبيل الدين تضحية
لها قيمة كبرى عند الله ، كما خلقوا فيهم حملاً تعصبياً ودينياً ضد جميع
الذين لا يؤمنون بالإسلام ، وفي نفس الوقت أظهروا لهم كل الفوائد التي
تنتج عن الحرب والفتح ، وعن نهب أملاك الأعداء . وما دامت هذه
المبادئ لا تتنافى مع أخلاق المغلوبين ، فانه كان من السهل على المسلمين
أن يقنوا بينهم إلى يومنا هذا ، وأن يحتفظوا بشجرة فتوحاتهم . أما مبادئ

(1) وقع الفتح سنة 710 م ، ولكن إمارة الأندلس لم تتكون إلا سنة 718 م . وقد
ظلت تابعة للخلافة الأموية إلى أن كان عام 756 وجاء عبد الرحمن الأول ، فأعلن استقلاله
عن الوطن الأم .

الحرب أو السلم وإنجاز المعاهدات ، فانهم لم يطلعوا عليها ، خاصة وانه
لا توجد في جوارهم شعوب على دين موسى أو عيسى ، بل وانهم لم
يطلعوا حتى على المعنى الحقيقي لهذه الآيات القرآنية التي تقول : « وأوفوا
بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (2)

كما انهم يجهلون حديث الرسول الذي يؤكد ان كل عداوة ينبغي
أن تنتهي بعد السلم . وان احترام أملاك الأعداء يصبح بعد ذلك واجباً كما
يجب إعطاء هذه الأملاك نفس الامتيازات التي تحظى بها أملاك المؤمنين .
وأخيراً ، فانهم لا يولون أي اعتبار لغير ذلك من المبادئ التي تهدف إلى
المحافظة على الجنس البشري وتحسين مصيره ، وصيانة ما يسمى ، عموماً
في أوروبا ، بحرية الشعوب أو الحقوق الاجتماعية .

ومن المعلوم اننا بهذه المبادئ الأخلاقية التي هي أساس مؤسساتنا ،
قد صنعنا كثيراً من المعجزات وكسبنا العديد من الانتصار . وبفضل هذه
الوحدة واتباع هذه السياسة سيطر الفاتحون على جزء كبير من العالم كما
نعلمنا بذلك جميع المؤرخين .

وعلى الرغم من أن الخلفاء لم يطبقوا هذه المبادئ الطيبة ، وانقلبوا
إلى ملوك متجبرين على الشعوب ، فاننا لا نكذب في صحة مؤسساتنا الدينية .
ولقد رأينا أن هؤلاء الملوك ، عندما يحايون عن هذه المبادئ ، كثيراً
ما يخفقون في مشاريعهم قبل تحقيق اهدافهم الحكومية التي يصبون إليها .

ومنذ ذلك الحين احتفظت هذه القبائل التي ظلت تعيش في جهل

(2) الآية 98 من سورة النحل .

مطبق ، احتفظت بأفكار غالبة متزمنة . غير ان إحدى خاصيات عاداتهم هي تلك الروح الوطنية التي تتحل بها كل قبيلة . ذلك انه اذا ما تعرضت واحدة لاعتداء قبيلة مجاورة بدون أي سبب ، فان القبائل الاخرى تنبئ قضيتها حتى ولو عرفت انها ستهلك وتبدي في تلك المعركة . وعليه ، فان الحروب بين هؤلاء السكان كثيرة ، وان هذه المناسبات هي التي تعودهم على المجازر ، وفيها يكتسبون الشجاعة ، وتبرز أبطالهم . وفيما بينهم ، ان حق القرابة مقدس ، كما أنهم يولون الأجنبي الذي ينضم اليهم برابطة الزواج تأييداً وحماية لا رجعة فيهما . أما السلم ، فانه يتم دائماً بتدخل الم رابط . وعلى الرغم من عدم وجود قانون يسوون به خلافاتهم ويكيحون به جماعهم وعلى الرغم من أنهم لا يقبلون الخضوع لأي سلطان ، فان طاعتهم للم رابط ، طاعة لا يمكن تفسيرها إذا أخذنا بعين الاعتبار الوصف السابق لطبائعهم . وأما الشيوخ ، فانه لا يكاد يكون لهم تأثير اذا قارناهم بالم رابط . وفي هذا الصدد ها هي نبذة عن جمعياتهم التي يبحثون فيها مصالحهم المشتركة .

ان هذه الجمعية تتكون من جميع رجال القبيلة ، شاباً كانوا أم شيوخاً . ويبدأ الشيوخ بالكلام ، فيقدمون مشاريعهم ، ويمرضون فوائدها ، وإذا لم تقبل هذه المشاريع بالإجماع ، أو اذا وجد معارض واحد ، فان ذلك المعارض يطلق صرخة من وسط الجمعية . وان هذه الصرخة التي يسمونها صرخة الإنذار ، يعبرون عنها في لغتهم بكلمة « ويك » ! . وبعد هذه الصرخة يقول المعارض بصوت مرتفع : « انظروا لهذا الرجل الذي يريد أن يدنس كرامتنا ويجعلنا من الأذال ! » . وبانتهاء هذه العبارات يحدث الاضطراب وتنفرق الجمعية .

وان الم رابطين الذين يقطنون بين القبائل يعلمون الأخلاق ويفسرونها

يقدر المستطاع ويقدر إدراك هؤلاء السكان . انهم يعلمونهم الصلاة ، ويهدونهم إلى المكارم الأخلاق ، ومقابل ذلك يحنون الطاعة المطلقة المحفوفة بالاحترام ، وتعتقد القبائل ان كل دعائهم مقبول عند الله الذي يؤمنون بقداسته وجلاله . وهكذا ، فعلى سخط أو على بركة الم رابط تتوقف سعادة القبائلي الخيالية . وكل من رغب في شيء ان فإنه يقدم القرابين ويتوجه إلى الم رابط لكي يأمل في تحقيق ما تمنى . أما الذي تلاحقه الشرور ، وتعذبه الآلام ، فإن ايمانه ناقص ، وانه للمذنب الذي يعاقبه الاله .

ان اسم الم رابط مشتق من كلمة ربط العربية التي تعني الالتزام والتعهد ، أي ان الم رابط يعاهد الله على ألا يتصرف إلا لما فيه خير الإنسانية . ولذلك ، فحتى بعد موتهم ، يبقى هؤلاء الم رابطون محل توقير دائم . وتدفن أجسامهم في قبر يحاط بتابوت يمكن أن يلجأ إليه كل مجرم . وبالتالي ، فإن المكان يصبح موقراً إلى درجة أن الابن لا يجراً على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه . وهكذا فان الم رابط ، وهو ميت ، قد يحظى باحترام يفوق الذي كان من الممكن أن يحظى به وهو حي . وهذه القبور كثيرة جداً في إيالة الجزائر ، وقد احتل الجيش الفرنسي معظمها بعد الغزو . وترك هذا التدنيس أثراً سيئاً في نفوس الطبقة الدنيا . وعلى الرغم من أن بعض أبناء هؤلاء الم رابطين لم يتبعوا سلوك آبائهم ، وأهملوا مبادئهم فإن الشعب ينظر اليهم باحترام ولا يدعوهم باسمائهم وإنما يطلق عليهم اسم سيدي ، متبوعاً باسم الشهرة أفراد العائلة .

ان وجود هؤلاء الم رابطين في المجتمع الأفريقي نعمة ، إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون اسلحة الخصوم ، ويمنعون إراقة الدماء . وان سلطانهم على نفوس القبائل الجاهلة المحدودة النظر لعجيب . ويبدو ان

الله نفسه يرشدكم ويقودهم ، وأن تصديق هذه الشعوب لهم ليبلغ درجة الضلال والعمى . وفي يومنا هذا ، فإن الم رابط الذي ما زال يشتمع بأكبر ثقة ، والذي يكاد يؤله من طرف القبائل يدعى : سيدي علي بن عيسى . ويسكن فرومه (3) وهو من مريدي الم رابط الشهير المسمى سيدي محمد بن عيد الرحمن . ولقد أحرز هذا الأخير في حياته على أكبر شهرة يمكن تصورها في الطهارة

وانتقلت هذه الشهرة حتى إلى مدينة الجزائر وأوساط القبائل الذين يسكنونها . وقد مات هذا الشخص العجيب في نهاية القرن الثامن عشر ، ودفن في الحامه (4) وذات ليلة اختطف القبائل جثته وحملوها إلى جبال جرجرة ثم دفنوها في قرية فرومه على مقربة من فليسه (5) غير أن المكان الذي سبق أن دفن فيه ما زال محرماً . وعلى القرب منه تعود الناس أن يتصدقوا على الفقراء ، فيوزعون عليهم الخبز والدراهم ، أملأ في أن يستجاب دعائهم . وإن هذا النوع من العبادة غير معقول ، خاصة وإن مبادئ الدين الاسلامي لا تسمح بتأليه الآدميين . ونحن نعتقد بأن مشيئة الرحمن واحدة في الأرض وفي السماء وإن الله الموجود في كل مكان لا يمكن حصره في مكان ، وإن ما نتصدق به على أمثالك دليل على إيماننا وقبل أن نستحق نعمة الاله يجب علينا أن نعمل بما أوصانا به . ونحن نؤمن أيضاً بأن أعمالنا من خير ومن شر ستجازى في يوم من الأيام . وهكذا إذن ، فإن الاعتقاد الشعبي إزاء الم رابطين ، أساسه الجهل والمبادئ الغالطة والتعصب وليس من السهل إصلاحها ، غير أن المتعلمين منا

(3) قرية صغيرة تقع في ضواحي مدينة الأخضرية . وتوجد الأخضرية على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً شرقي مدينة الجزائر .

(4) حي الحامه حالياً ، ويوجد بين بلكور والعناصر في القسم الشرقي من مدينة الجزائر .

(5) تقع شمالي شرقي فرومة على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من مدينة الأخضرية .

ورؤساء الحكومة التركية يتركونها حتى الإدراك . والسياسة هي التي جعلت الآخرين يقولون على هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقبسها القبائل . وهذه المجاملة هي التي مكنتهم من الحصول على ما حظمه الجيش الفرنسي منذ أن وصل إلى أراضي الجزائر ذلك إنه بدلاً من أن يطبق نفس هذه المبادئ ، أراد استبدالها بمبادئ جديدة تتعارض تماماً مع عادات وتقاليد السكان .

ولكي نعود إلى الم رابط ابن عيسى ونعرف ما له من نفوذ على نفوس الجزائريين يكفي أن نقول بأنه هو نفس الشخص الذي قدم على أثر الغزو الفرنسي وساطته لإبرام السلم بين الفرنسيين والقبائل ويمتد سلطان هذا الرجل إلى مملكة تونس وله في كل قبيلة ومدينة وقرية على أرض الإيالة ممثل في المساجد يتقبل الهدايا الموجهة إليه ويجمع عشر الغلال ثم توزع هذه المحصولات على الطبقة المعوزة وتشتمل في الإعتناء بالمحلات المخصصة للضيافة . وأيضاً وجد ممثل جامع توجد دارمفتوحة للضيافة يطعم فيها المسافرين ويبيتون بلا مقابل وكذلك الحيوانات التي يستعملونها والتي ترافقهم . وفي نهاية كل سنة يرسل إلى الم رابط الرئيسي كل ما لم ينفق في هذه المؤسسة . ولقد اجتمعت شخصياً بهذا الم رابط ووجدت فيه رجلاً بسيطاً ، ليس له غرور ، وإنما ذو بصيرة ، تحووه العواطف الإنسانية بلا تحيز ، لا يملك ثروة طائلة ، ذلك إنه ، بعد أن يوزع الصدقات ، لا يبقى له أكثر مما يتنات به . أمام بابه يوجد عدد كبير من الأجفان لإطعام ضيوفه ، وكذلك أكياس من الشعير والتبن للحيوانات التي ترافقهم . وهو يستضيف كل شخص يقصد بيته . وقد أراد في ذلك الحين أن يكلفني ببيع جنان كان يملكه في مدينة الجزائر ولكنني جعلته يعدل عن هذه الفكرة حتى يتمكن بما له من نفوذ من أن يخدم المصالح الفرنسية ، وربما من أن يافع

بواسطته باي قسطنطين الى ابرام صلح مشرف . وفي هذا الإطار كان الدوق دورونيفو (6) يعمل على أن يضمه اليه ويجعل منه صديقاً له لأنه كان يريد أن يعترف له ببعض الجميل . إن الم رابط الذي يعرف أغراض دينه يعرف كيف يسخر تسخيراً مشمراً وذكياً جميع الوسائل الموجودة بين يديه . إنه لن يقول للقبائل : يجب أن تطيعوا القانون ، وعليكم بالاستماع إلى الموعظة واتباعها ، وإنما يقول لهم : لعن الله من لا يفعل كذا ! وهكذا يجعلهم يطيعون ويحصل منهم على كل ما يريد ، وإذا اقتضى الأمر فإنه يستعمل عبارات مطلقة تبدو كأوامر العلي الجبار . غير أن هؤلاء الم رابطين يتصرفون بلطافة وكياسة ولا يسمحون أبداً بأي تجديد ولا يقومون بأي شيء مما يمكن أن يتعارض مع كرامة أو عادات الشعب وبهذا السلوك يحتفظ هؤلاء الم رابطون بنفوذ لا حدود له .

الفصل الثاني

طبائع البربر وعاداتهم

برندي الرجال قماشاً من الصوف . ولألبستهم شكل كيس مثقوب في الوسط لاجراج الرأس ، وبه ثقبان آخران على الجانبين لاجراج اليدين ، عرضه حوالي ذراع ويهبط إلى منتصف الساق . والقماش من الصوف الأسود ، وهو من صنع النساء ، وبما أن هذه الصوف لاتفضل كما ينبغي ، فلها تصدر رائحة لا تطاق عندما تبللها الأمطار ، وعندئذ يصبح هذا اللباس ثقيل جداً وهو بمثابة القميص والسرwal وغيرهما في آن واحد . لكن الأغنياء منهم يضيفون لباساً آخر فوقه يسمونه البرنس ، وهو دائماً من نفس القماش ، وشكله معروف في أوروبا وهذا النوع من الكساء يرقع ويبقى إلى أن يتساقط لإرباً وعادة فإن برنساً واحداً يكفي لمدة حياة الإنسان لافراق الجسم ، يتبلل ويبس على ظهر صاحبه إما بمفعول الهواء أو بفضل حرارة النار .

وتتشر النساء في حائل يشبك بالدبابيس ويصنع هو أيضاً من قماش ينسجه بأنفسهن بكف هذا الكساء بقطعة أخرى من القماش ذي اللون الأحمر أو الأزرق عرضها حوالي أربعة أصابع وتستورد هذه الصوف الملوثة من مدينة الجزائر ، والمثريات من النساء يقطن رووسهن بقطعة من الكتان أو منديل قطني . أما

(6) سياسي وجنرال فرنسي ، اسمه الكامل : آن جان ماري روني هافري ، ولد سنة 1774 وتوفي سنة 1833 . خلف فوشي بوزارة الشرطة سنة 1810 ، وكان من أنصار نابليون الأولياء . وبعد هزيمة واترلو ألقي عليه القبض في جزيرة مالطة ، ثم فر من السجن إلى مدينة أزمير سنة 1816 . وبعد ذلك بثلاث سنوات توجه إلى لندن ، ومن هناك استطاع أن يحصل على عضو الحكومة الفرنسية واسترجاع رتبته العسكرية . وفي سنة 1831 عين قائداً أعلى للجيش الفرنسية في الجزائر ، حاول أن يتفاوض مع الباي أحمد بواسطة حمدان خوجه لكنه لم ينجح في محاولته . له مذكرات كتبها سنة 1828 .

الأطفال، فإنهم عراة تماماً كما رأيتهم بنفسي، ولا تعطى لهم البسة إلا في الشتاء أو عندما يصلون سن البلوغ. والذي يغطي رأسه بقانسوة لا يجرأ أحد في مدينة الجزائر على أن يتقانس بها، يعتبر أنيقاً. ونرى بعض هؤلاء الأثقيين يحتفظون بهذه القانسوة مدة طويلة دون أن يبالوها حتى تصبح سوداء من العرق والغبار. أما عن الأحذية، فإن أغنياء القبائل يلبسون مثل الرومان نوعاً من الكوثرن مربوط بالجلد، ولقد شاهدت هؤلاء البربر في مناطقهم وفي مدينة الجزائر، شاهدتهم صيفاً وشتاء يخلعون ثيابهم ويجعلون منها وسادة عند النوم. ومن كان له برنس فإنه يغطي به نفسه ويتمدد على حصيرة إن وجدت. وفي الصيف يرقد أغلبهم متفرقين فوق الرمال، وفي الشتاء يشعلون ناراً كبيرة بما يحتطبونه من الغابات المتكاثرة ويرقدون جاعين أرجلهم أمام هذه النار، فينامون هكذا، نوماً حاداً، أما غذاؤهم فخبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبلوط. وإلى جانب ذلك فإن الأثرياء أي الذين يملكون عتريتين أو ثلاثاً، يشربون الحليب. وهناك، أيضاً من يملك عدداً من المعز والشيء المخصصة للبيع في المدن. والقبائل، عادة، لا يأكلون الأغنام ولا الدواجن ولا يذبحونها إلا عندما يؤمهم ضيف، لأن قانون الضيافة مقدس عندهم. ويعتبر ذلك اليوم في القبيلة، يوم عيد، يتطايّر فيه الأولاد فرحاً وتذبح الشاة ثم يطهى اللحم مع الكسكسي وعندما يحضر الطعام يقطع اللحم أطرافاً يزن الواحد حوالي رطل (1) ويقدمه صاحب الدار إلى الضيوف على

(1) كان يوجد في الجزائر، قبل الاحتلال، أربعة أنواع من الرطل: الرطل الكبير والرطل الحضاري والرطل العطارى والرطل القضي، ونعتقد أن الذي يعيننا هنا هو الرطل الحضاري ويساوي بالقرامات: 614,3، وعليه فهو أكثر من رطلنا الحالي. أما الرطل الكبير فيزن بالقرامات 921,5 ولذلك أبعدناه.

النحو التالي: يعطى لكل ضيف طرف لحم وإذا بقي شيء يعطى للجيران الذين يقربون الأحداث من بعيد نصيبهم من الطعام، وفي جميع الحالات، فإن رب البيت العالي في الأدب إلى درجة أنه يطعم هؤلاء الفضولين قبل أبنائه. وفي التحلية يأكل الهائل التين المجفف حتى ولو كانت لديهم فواكه أخرى. وبما أن الأشجار المثمرة كثيرة، فإنهم يحتفظون بشمارها ويبيعونها لسكان المدن في الأسواق أما هم فإنهم لا يكادون يعرفون طعم هذه الفواكه.

الفصل الثالث

طبائع وعادات البربر (تابع)

بنى المنازل في القرى الصغيرة أو في الأكفار بالأخشاب والقصب يربط بعضها في بعض ولكل منزل أربعة أوجه، وتفرش أرضه بنفس مادة البناء ثم يحصن الكل بخليط من الطين وخشي البقر لمنع المياه من التسرب وعلى السطح يزرع نوع من العشب يسمى اللديس . ولا يزياد ارتفاع هذا البناء عن قامة رجل . ثم إن الأهالي يجمعون الحشائش وأوراق الأشجار فيدخرونها لتغذية الحيوانات عندما يسقط الثلج ، وتأوي هذه المساكن في نفس الوقت النعجة ، والمعزة ، والبغل والدواجن ، والكلاب والرجال والنساء والأطفال ، كلهم يعيشون مكتسبين في مكان واحد . وعندما تشعل النار للتسخين ، فإن الأودحام التي تنشرها هذه الكائنات بالإضافة إلى الدخان الذي لا يخرج له تشكل سباباً كثيفاً وغير صحي وبما أنني لم أعود هذا النمط من الحياة فإنه كان من المستحيل علي أثناء رحلتي إلى قسنطينة أن أتحمل العيش داخل هذه المساكن إل كنت أفضل النوم في الهواء الطلق على المبيت وسط سفينة نوح هذه . ولقد اضطر صاحب المسكن الذي نزلت عنده إلى الخروج معي يحميني ويحمي حيواناتي ضد غارات اللصوص وإعتداء الحيوانات المتوحشة لأن الأسود

تأتي في بعض الأحيان تدور حول المساكن لاختطاف بعض المواشي بيد أن السكان يعدون هذه الحيوانات الكاسرة بنفس البرودة التي تطرد بها الكلاب وذلك نظراً لعدم زيارتهم مثل هذه الحيوانات المهولة وإذا استثنينا ما يمكن استعماله في الفلاحة وفي تربية الماشية فإن السكان لا يملكون أي نوع من أنواع الأثاث وانك لتجد عندهم مطحنة صغيرة لطحن الحب وكذلك كمية من دقيق الشعير ومن الحبوب يحتفظ بها لما يطرأ من الأحداث، وترى أيضاً عندهم تيناً مجففاً في كيس ، وبعض الأواني الخشبية وقرية فيها ماء الشراب معلقة على الدوام .

إن الحروب متعددة بينهم والمنتصر يحرق دار المهزوم غير أن تلك الدار يعاد بناؤها في أقرب ما يكون لوفرة الأخشاب التي تغطي هذه البلاد. ونصعد الخيل والبقال والحمير الأماكن الوعرة بكل سهولة ويستعمل السكان الأسلحة النارية في أغلب الأحيان ولذلك يولونها كل العناية، ويحفظونها في القماش وهذه الأسلحة هي التي يقصدها اللصوص ويفضلونها على أي شيء آخر يأخذونه من الأهالي الذين كثيراً ما يجردون على الرغم من حذرهم الشديد .

ومساجد هذه القرى مبنية على منوال المساكن بفارق واحد هو أنها تبيض بالجير والذين يحسنون الشمائر الدينية من بين الأهالي يعتبرون كما نعتبر العلماء في مدتنا .

أما القرى الكبيرة، الواقعة في الجبال الوعرة، فإنها منيعة لا يصلها العدو إلا بشق النفس .

ونستخرج من هذه الجبال الحجارة الصالحة لبناء المساكن . ولقد زرت بنفي جبال قلبه، وزواوه وبني عباس ووادي بجاية وبني جنات

حيث توجد قرى كبيرة تشبه المدن عندنا . وكل العمارات فيها مبنية بناء متيناً بالحجارة وبالكلب، والسطوح مغطاة بالقرميد ، وفي المساجد مآذن كما آذن مدينة الجزائر . وفي هذه القرى مصانع للأسلحة النارية تصنع فيها على نحو ما في الجزائر أساتين البنادق المرصعة بالفضة ، كما يصنع فيها البلاطين . ويعرف السكان طريقة استخراج خامات الحديد ومناجم الرصاص وملح البارود موجودة لديهم بكثرة فهم أناس كثيرو الاشتغال بالصناعة. وتشمل صناعتهم على الخصوص صنع البرانس والأغطية التي يمكن استعمالها في المدن لأنها من الصوف الجيد . ويوجد في هذه القرى كذلك مشاغل تصنع فيها النقود المزيفة . فالأهالي ذوو مهارة ومقدرة فائقة في نقش المعادن وتقليد جميع أنواع النقود مثل نقود الجزائر (1) وقروش اسبانيا (2) ولولاهم يتصلون بالجيش الفرنسي فلأنهم لن يترددوا في تقليد النقود الفرنسية إلى درجة أنه يصعب على العراف التمييز بين النوعين. ففي هذه الجبال قدم لي المسفوف، وفيها مدينة تدعى القلعة (3) لا يتم الوصول إليها إلا بشق النفس وبما أنني لم أتمكن من الذهاب إليها ركباً فلأنني قطعت الطريق راجلاً لأراها وأنه لطريق وعر ومنحدر جداً إلى درجة أننا عندما يتسلقه ثلاثة أشخاص بالتتالي ، نرى رأس الثالث عند قدمي الأول . وفي مثل هذه المدن التي حصنتها الطبيعة يودع سكان السهول لرواتهم وجيوبهم ولا يبقون لديهم إلا ما كان ضرورياً للحياة اليومية، ولقد أكدوا لي أنهم يعرفون طريقة للاحتفاظ بالحبوب مدة تزيد عن العشرين سنة .

(1) من جملة نقود الجزائر في ذلك الحين : السلطاني ، والريال بوجهه والباتاك شيك والريال مجبور ، والموزونة والصائم ، الخ . . .

(2) كان القرش الإسباني أو البياسر يساوي نصف سلطاني أو 5 من فرنكات فرنسا.

(3) هي قلعة بني عباس الواقعة في سلسلة جبال اليبان على مقربة من مزيفة .

أما لغتهم وطبائعهم وطريقة معيشتهم فتكاد تشبه لغة وطبائع وطريقة معاش سكان الأكوار السابقة الذكر . ولو أنني لم أكن في مثل ما كنت فيه من الحيرة والعذاب من جراء ما آل اليه بلدي المسكين ، ولو أنني لم أكن في مثل هذه السن المتقدمة ، ولولا الانعاب التي أصابني لكان باستطاعتي أن أجمع وثائق غاية في العجب حول هذا الجزء من افريقيا ، وثائق قد تساعد على كتابة تاريخ هذه المناطق . ومن بعيد كنت أشاهد مدناً تكاد تشبه ضواحي بجاية والمرابطين ابن عيسى وأكرومه .

انني لا أقدم هنا تاريخاً مفصلاً وإنما عرضاً ضرورياً لتكوين فكرة عن هذه المناطق وعن سكانها ، هؤلاء السكان الذين هم على العموم أناس رحل قريبون من التوحش ، ولكننا نعتقد ان من الصعب على فرنسا أو على غيرها من الدول أن تخضعهم . وإلى جانب ذلك فإن هذا الاحتلال بالنسبة لفرنسا لن يكون في مستوى عظمتها . انها تملك ثروات متعددة من حيث الرجال والأموال فماذا ستستفيد من محاربة هؤلاء السكان وإتفاق كنوزها وارقاع دماء جنودها وتعريضهم للموت الناتج عن المناخ ؟ وما هو الهدف من قيامها بمثل هذه الحملة أليكون ذلك مجرد الرغبة في إبادة الناس أم لأجل نيتها الحقيق في اكتساب أراض لا تنبت شيئاً .

الفصل الرابع

سُكَّانُ السُّهُول : طَبَائِعُهُمْ وَعَادَاتُهُمْ

ينقسم سكان الاماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين : أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الإرتفاع . والجميع من أصل عربي ويتكلمون اللغة العربية كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول . مهنتهم كلها الزراعة ، ومسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر ، ليس لهم مكان مستقر ، يتزلون حيث يجدون المرعى لماشيتههم ونظراً للاهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغلهم وضمان لاملاكهم ، فانهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الإيالة . ولا يوجد بين هؤلاء الاهالي الرحل مرابطون غير ان أصول دينهم هي نفس أصول دين القبائل ، وكما هو الشأن بالنسبة للآخرين فان لديهم تعصباً ليس من التعلل العمل على استئصاله .

يتنثر الرجال بمئاتك شائع في أوروبا تربط نهايته إلى الرأس بحبل من وبر يقارب شكل العمامة : ويلبسون تحته نوعاً من القمصان يسمونه القندورة كنا نكلمنا عنها في الفصل الخاص بالقبائل ، إلا ان هناك فارق في نوع القماش فهو قطني بدلاً من أن يكون صوفياً وتستعمل الاغلبية منهم أحذية متينة

تصنع في القرى ويحمل الأغنياء من القطن أو من الحرير بحسب الطاقة ، يربطونه في الحائك لكي لا يضيع .

وتتلف النساء أيضاً في نوع من الحائك يصنع من قماش القطن صيفاً ومن الصوف شتاء ويتنظف بأحزمة ملونة مصنوعة من الصوف. أو من الوبر الجيد خيزهم من القمح والشعير أو من الشعير وحده ولا يكون أبداً من القمح الصافي وذلك راجع إما للمناخ وإما لقناعتهم ، وعلى الرغم من وفرة القمح لديهم ، فإنهم يستهلكون الشعير بكثرة . والزيت نادر عندهم ولذلك تحضر المأكولات بالزبدة التي تملح للاحتفاظ بها طويلاً .

في الصباح لا يخرج أحدهم من بيته قبل أن يفطر بخبز الشعير والزبدة . ويستخدم الأغنياء أو الملاكون في هذه المناطق ، الصال والأجراء (لا يمكن مقارنة ثروات هذا البلد بثروات أوروبا) . وقد جرت العادة أنهم عندما يشغلون أو يسخرون واحداً من هؤلاء ، يدفعون عنه ديونه ، إن كانت عليه ديون ، أو يقدمون له مسبقات تساعد على سد حاجاته ، وهم بذلك كأنما يبيتون نية في أن يشدوه اليهم ، ويسكن هذا الرجل عند المالك صجة زوجته وأطفاله على النحو الذي سنذكره مفصلاً في ما يلي :

يعطي المالك ، صاحب المزرعة أو المؤسسة ، لهذا العامل بقرة أو بقرتين حسب إمكانياته أو حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما . ويتعهد الأخير بتسليم الأول أوطالاً معينة من الزبدة (الرطل في هذا البلد أكبر من الرطل الأوروبي ، إنه يساوي 28 أوقية) (I) وهكذا ، فإن هذا الرجل

(I) المقصود هنا هو الرطل الكبير الذي يساوي بالفراغات 5 , 921 .

يجمع الزبدة ويسلمها الى صاحبه في نهاية كل فصل . ومن الفلاحين من يستعمل ، أحياناً ، الزبدة التي يجمعونها ثم لا يتمكنون من تسليم الكمية الموعودة أو المتفق عليها : وعليه يضطرون الى تجديد الإلتزامات أو الى الإستهانة ، وهناك من يوفي بالعهد ويستفيد في بعض الأحيان .

يمش هؤلاء الملاكون عيشة معتدلة ومنظمة ، لا يأكلون اللحم إلا في بعض أيام الأسبوع أو في أيام السوق ، وفي هذه الأسواق تجتمع القبائل المختلفة لتبيع سلعها ومواشيها . وللوصول اليها يمشي المرء ساعتين أو ثلاث ساعات : وإن من عادات البلاد ان تنتقل الأسر من بعيد إما للبيع وإما لتشتري بضاعة أو سلعاً مختلفة وتنقل الصوف والزبدة والعسل على الإجمال ، وكذلك تحمل الحيوانات المخصصة للجزائريين . وعلى الرغم من ان صاحب المزرعة يملك الكباش والحرفان والعجول ، فانه لا يذبح منها إلا عندما يؤمه ضيف جديد . وهؤلاء السكان هم ، ربما ، أكرم من القبائل ، ومأكولاتهم المبهجة هي الكسكسي والحليب .

الأراضي شديدة الخصب بحيث ان ارتفاع سنابل القمح والشعير يزيد في بعض الأحيان عن قامة الرجل . وفي أثناء الحصاد تهمل السنايل القصيرة ، ويترك في الحقول كثير من التبن والحبوب ترعاها الماشية فيما بعد ، ولذلك فإن الحيوانات تكون دائماً سمينة والحليب جيداً وكثيراً .

وفيما يتعلق بوصف خيامهم ، لقد سبق ان قلنا أنها من الوبر ، وهو قماش مضلع بالأحمر أو بالألوان الأخرى . وتأخذ هذه الخيام شكلها المكور أو المثبت بواسطة أوتاد من الخشب وتقاس ثروة المالك باتساع هذه

الخيام ويعدد الأوتاد التي تشدها (أنظر رسم مختلف أشكال هذه الخيام آخر الكتاب) (2) .

تحات الخيمة بمجارة توضع عليها الأواني والذخائر اليومية . وبخصص جزء منها للمطبخ ، وفيه توجد الطناجر والقدر وهي من الطين ولكن الصحن والملاعق خشبية وكذلك الأوعية التي تحفظ السن والصل الذي يودع في الأجلاف . وفي المطبخ أيضاً ترفى الدواجن . ويستعمل الجزء الآخر من الخيمة لاستقبال الضيوف وللإجتماعات الودية . ومن داخل الخيمة كنت أسمع حركة وخوار العجول والبقر وكذلك غناء الخرفان ، والنساء هن اللاتي يحملن الماشية ويمعنن بصغارها ، كما انهن راعيات ، بينما تقوم الكلاب بحراسة القطعان ، وعندما يقرب الأسد تحس الكلاب بذلك فتنبح ويكون نباحها هذا بمثابة تنبيه وإنذار ، فيستيقظ الأهالي ويترد الأسد بواسطة التهديد فقط ، ومن خاف منه وقع ضحية . أما الخيل والبغال فانها تربط أمام الخيمة مدة ثلاثة فصول ، وفي الشتاء ، عندما يكثر البرد والجليد توضع على ظهورها أغطية من الصوف .

هؤلاء السكان يحبون الخيل حباً جنونياً . ولا يفكرون إلا في مضاعفة أعدادها ، وهم يفرقون بين أنواعها ويحفظونها بعناية . وتستعمل السلالات الوضيعة للحصول على البغال ، وهناك سلالات تخصص للحرب ، ولكن أحسن الأنواع ، أي الجياد ، فانها للسياق والحرب ولا تباع إلا نادراً ، وفي هذه المناطق يسمى تجمع عدد من الخيام « دواراً » .

(2) لم يرد هذا الرسم في الترجمة الفرنسية ، ولعل هذه العبارة دليل على أن الأصل العربي قد ضاع .

وهكذا ، كما رأينا ، فان المالكين أو أصحاب المزارع يستخدمون العمال والرعاة الخ . . . وليس لهؤلاء أرض ، ولا أموال ولا مواشي ، وإنما تعطى لهم التسيقات حسب حاجاتهم . ويسكنون بأزواجهم وأولادهم عند الملاك . ويقوم كل واحد بما يقدر عليه من العمل وكثيراً ما يتزوج بعضهم بأكثر من امرأة ليستعين بهن في أشغاله ، ولأن من الصعب على امرأة ان تحصل على عيشها ان لم يكن الى جانبها زوج . والأسرة بأكملها تعاون صاحب الضيعة على زرع الأراضي وإنجاز جميع الأشغال اليدوية . يعطي المالك أو صاحب الضيعة للعامل خمس الغلة مقابل أنعابه والمجهودات المادية التي يقوم بها أفراد أسرته . وإذا لم يكفه ذلك ، فانه يستلزم الجيوب من قمح وشعير .

وقبل تسليم الخمس لهؤلاء العمال ، وذلك عادة أثناء جمع المحاصيل ، فإن قائد الدوار يخصم كل ما عليهم من ديون وتسيقات ، ولا يعطى لهم إلا ما تبقى . وعلى أثر التقسيم يذهب العامل الى السوق لبيع محصولاته . وبما أن الغلال تجمع في نفس الوقت تقريباً ، فإن الجيوب تكون رخيصة في فترة معينة من العام ، بينما تكون الأسعار ثابتة عندما يقوم الأغنياء بتمويل الأسواق .

ويرى هؤلاء السكان الرجل أن من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصاناً وبنادقاً وسيفاً . والذي لا يملك هذه الأشياء يكون محترقاً ومنبوذاً ، لأنه ، كما يقولون ، لا يقدم أي ضمان سواء للقيام بواجباته أو للدفاع عن المجموعة .

يوجد قائد بالنسبة لعدد من الدواوير ، ويعين من طرف الباي أو من طرف آغا الناحية التي ينتمي إليها ، وتنحصر اختصاصاته في جمع الضرائب والسهر على تنفيذ القوانين وتبليغ تدابير حكومته .

ومن بين مالكي هذه الدواوير أو رؤساء العائلات ، هناك من يبدو ثرياً .
ولقد دعيت ، شخصياً لتناول الطعام عند أحد هؤلاء الملاكين فقدم لي
« ابريقاً » من الفضة لأغسل يدي قبل الأكل ، على الطريقة الشرقية ، وأحضر
الوجبة في صحون من الخزف الصيني .

وكما ذكرنا سابقاً ، فإن النساء اللاتي 'يكلفن' بالخلب ، يذهبن كذلك
لخلب الماء وقطع الخشب لإشعال النار . وفي الأماكن التي يوجد فيها الخشب
بقلة ، كما هو الشأن في نواحي قسنطينة ، فإن الأهالي يستعملون محروقات
من نوع آخر ، مكونة من خليط العشب وخشب البقر المجفف . والنساء هن
اللاتي ينسجن الخيام ، والحياك والبرانس ، وهن اللاتي يخضن ، ويتبعن
طريق الحصادين لجمع السنابل كما أنهن يتولين طحن الحب ، وعجن الدقيق ،
والقيام بكل ما هو متزلي على العموم ، ولذلك نرى هؤلاء النساء اللاتي لا
يتوقفن عن الإشتغال ، نراهن قدرات لا يمتنين بهنأهمن ، الأمر الذي
يجعلهن عرضة للحمى ولغيرها من الأمراض الناتجة عن كثرة ما يلاقين من
أتعاب . وعلاجهن عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا
يعرفون مبادئ التطبيب . وبالنسبة اليهم ، فالطبيعة وحدها هي التي تصنع
المعجزات ، ومن العادة انهم ، في مثل هذه الحالات ، يلجؤون الى الحمية (3) .
أما فيما يخص حيواناتهم فإنهم يعرفون علم البيطرة كما هو معروف في
أوروبا .

وتوجد لديهم طريقة للاحتفاظ بالحبوب سنوات متعددة دون أن يلحقها

(3) وذلك عملاً بقول الرسول عليه السلام: المعدة بيت الداء والحمية رأس الشفاء
(أو كما قال) .

ضرر ، وذلك بأن يضعوها في مطاير بعيدة عن الهواء والرطوبة . واثق لتجد
عندهم ، بدون مغالة ، قمحاً مخزوناً منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، واني
لأؤكد من هذه الحقيقة المعروفة في افريقيا معرفة جيدة . ولكننا نلاحظ عند
العلم أن دقيق هذه الحبوب التي تخزن طويلاً لا يحتفظ بنفس البياض الذي
يتم به القمح الجديد ، كما يكون له طعم لا يطيقه جميع الناس ، ويحب
هؤلاء السكان حباً جماً ، ويتقدمونه للضيوف كشيء نادر مثلما تقدم ، في
أوروبا ، الخمر المعتقة أثناء وجبات الغذاء . ويدعى هذا النوع من القمح
« المطمورة » ، وتختار لخزنها ، أماكن مجهولة تسمى بدقة حتى أن الأعداء
يخشون فوقها عندما يغزون المنطقة ولا يكتشفونها إلا إذا دلم على ذلك أحد
الحوثة .

ويوجد بين هؤلاء السكان فرسان ممتازون يشمون بكثير من الشجاعة
والمهارة ، عندما يركب الواحد منهم لا يتردد في محاربة عشرين أو ثلاثين
شخصاً ، وله القدرة على رد هجوماتهم ، وهم معروفون ببسالتهم وبهزة
النفس ، وجعل أبنائهم على هذه الأخلاق ، فلا يرضون بفعل أدنى ذنب ،
ولا اعتقد أن هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة . ومن الفرسان من يمد يده
الى الأرض ، أثناء الركض ، فيلتقط حجراً أو شيئاً آخر دون أن يغادر صهوة
جواده .

أما سكان الصحراء البعيدة ، فإنني لم أزرهم شخصياً ، وما أقوله عنهم
إنما هو رواية عن أشخاص موثوق بهم .

وتنحصر ملكيات هؤلاء السكان في الجمال والبقر والخيول ، وليس
لأعلامهم درجة قطعان من الغنم ولا من المعز ، لأن هذه الحيوانات تعرقل

فرارهم عندما تهاجمهم قبيلة من القبائل العدو ، وفي كثير من الأحيان يضطرون الى تركها .

وهم يحبون خيلهم حباً شديداً ، ويجعلونها في مكانة خاصة الى درجة انهم يقدمون لها حليب النوق .

عدد هؤلاء السكان كبير ، وأصلهم عربي كما تقدم ، والقيادة فيهم يتوارثها الابن عن الأب . ويزعمون أن هؤلاء القادة ينحدرون عن النبي داوود . ويتصرف كل قائد في حوالي عشرة آلاف خيمة لا تبقى في مكان واحد أكثر من شهر . وأهم ما يتغذى به هؤلاء الأهالي التمر وحليب النوق ، ويقدمون متوجاتهم للسكان المزارعين مقابل الشعير والقمح وكذلك القماش الذي يصنعون منه لباسهم والمناديل الخيرية التي تستعملها نساؤهم . ويجملون على ظهور الجمال الصوف والسمن الخ ... ويمتبر صوفهم من أجود الأنواع وهو يشبه المرينوس الى حد كبير . جمالهم شبيهة بالمتوحشة لا تروض إلا بصعوبة ، ولا تستعمل في الأشغال كما يفعل ذلك سكان التل .

ويوجد لدى هؤلاء السكان نوع من أجود أنواع الخيل ، وهم بالطبع ، أكثر نشاطاً ، وقوة من السكان المزارعين الذين ذكرناهم أعلاه ، ونستطيع القول بأن الرجل منهم يساوي عشرة من الآخرين .

وتعين مشايخ الصحراء من اختصاصات باي قسنطينة ، وعندما يقلدهم زمام الحكم يهدي اليهم معطفاً مديحاً بالخيوط الذهبية . ويضع تحت تصرف الشيخ الواحد عشرين خيمة من الجنود الأتراك وأعلاماً وجوقة موسيقى عسكرية ، ويكون هذا الشيخ كالمملك بالنسبة لسكان الصحراء ، الذين تبذل جميع الوسائل الممكنة لجلبهم الى قسنطينة ، فيدعون للتنقل اليها أيام السوق

يبدلون فيها متوجاتهم خدمة لمصالح هذه العاصمة ، ولذلك نجد مدينة قسنطينة التي ما كانت تبلغ هذه المكانة لولا هذه المنافع ، نجدتها مزدهرة تتمتع بكل ما للدره التجارة المركزة فيها ، إلا أن هناك بعض المشايخ ، الذين لا تسمح لهم كبرياؤهم بالخضوع لسلطة الباي ، يفضلون الذهاب لأسواق أخرى في الجهة الغربية مثل التيطرى وغيرها من المدن . وبفضل تنقلاتهم اليومية ، يفيدون مقاطعة باي التيطرى دون أن يخضعوا لأي واجب من الواجبات ، ولأجل هذه المنافع يتم البايات كثير الاهتمام بالتحالف ، عن طريق المصاهرة ، مع رؤساء هؤلاء السكان الرحل الأتية .

ان الحاج أحمد (4) ، باي قسنطينة الحالي ، ابن اخت أحد كبار رؤساء هؤلاء العرب ، ويدعى الدوايدي بن قانة .

وقد كان الباي ابراهيم (5) الذي سلم عناية للفرنسيين ، باياً في قسنطينة أيام الأتراك . وفي ذلك العهد صاهر أحد أفراد عائلة الشيخ فرحات (6) ، وهو من قواد الصحراء .

(4) هو الحاج أحمد بن محمد الشريف وحفيد الباي أحمد القلي . أما أمه فهي الحاجة رقية من أسرة ابن قانه الصحراوية . ولزيد من المعلومات حول هذه الشخصية الجزائرية القليلة راجع مذكرات الباي أحمد التي ترجمناها عن الفرنسية .

(5) عزله حسين داي سنة 1821 نتيجة تصرفاته اللامسؤولة . والجدير بالذكر أن هذا الباي هو الذي كاد للحاج أحمد ، خليفة آنذاك ، وأقنع الداي بضرورة إبعاده عن قسنطينة فتغاف إلى المدينة فالبليدة .

(6) هو فرحات بن سعيد من أسرة بو عكاز . عينه إبراهيم باي شيخاً للعرب بعد أن أهدر ابن قانه على التخلي ، وهو شخصية فريدة يبحث عن المسؤولية فقط . ولكنه كان شجاعاً وطموحاً . يقول عنه الباي أحمد في مذكراته : إنه رجل بارود ، لا يهاب المنية . حاربني عدة سبع سنوات ، فكان يساوي وحده مائة فارس .

الفرنسيين والأساليب التي استعملوها حتى الآن لم توضع للاغراء. وفي الصفحات المقبلة ، عندما أتكلم عن رحلاتي الى قسنطينة ، ومصادقاتي مع باي هذه المقاطعة ، سأذكر بعض الملاحظات القيمة التي أبدتها الحاج أحمد. ويحق لي أن أذكر بأنني كنت كلما قدم الحاج أحمد حججاً ، أبذل كل ما في وسعي لإقناعه بالتخلي عن الفكرة التي تكونت لديه ، ولقد أردت أن أفهمه بأن ليس للحكومة الفرنسية سوى نوايا حسنة ، وأن الأعمال التي قام بها بعض القادة والتي يعتبرها ناقصة وتستحق العقاب إنما نصفها مبالغ فيه ، والربع لم يؤول تأويلًا صحيحاً ، والباقي ، الذي تدينه الامة الفرنسية ، لم تأمر به حكومتها .

ان وصول رسل الشيخ فرحات النوادي كان سبباً في الحادث المفجع الذي وقع لقبيلة العوفية (8) . ولقد قدم السيد بيشون (9) ، في كتابه ، تفصيلاً عن تلك الفضيحة التي ستكون صفحة سوداء في تاريخ الشعوب والتي لا يصدق الكثير أنها وقعت في القرن التاسع عشر ، عهد الحرية والحضارة الأوروبية . منذ ذلك الوقت ، أخذ الشيخ فرحات حذره ، وصار باي قسنطينة يحترس من الفرنسيين ، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع القادة الآخرين ولل سكان بأكملهم . انهم يعتقدون أن عدل الفرنسيين ظاهري فقط . وأن كل قبيلة محتمي بهم

(8) قبيلة كانت تسكن ناحية الحراش . نظم الدوق دورونكو حملة ضدها فباغتها ليلة السابع من شهر أفريل 1832 قتل جميع أفرادها العزل باستثناء بعض الأطفال والنساء . وتذكر المصادر أن البارون بيشون قد حاول أن يمنع تلك المذبحة ولكنه لم يفلح (انظر بيشون ، وبيليبي في الحوليات الجزائرية ، الجزء الأول ، الكتاب العاشر) .

(9) ديبلوماسي فرنسي ، ولد سنة 1771 في مدينة نانت وتوفي في باريس سنة 1850 . كان أول مبعوث مدني في الجزائر بعد الاحتلال ، ولم يغادر البلاد إلا سنة 1832 . له مؤلفات كثيرة أهمها : الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي ، نشر سنة 1833 أي في نفس السنة التي نشر فيها المرأة باللغة الفرنسية .

وتبدي الاخلاص لقضيتهم تلقى مصير العوفية . هل ان الفرنسيين لا يودون التقرب منا إلا لإبادتنا ونهبنا ، كما فعلوا ذلك بالنسبة لتلك القبيلة الضعيفة ؟ ان الفائدة التي يمكن انهم حصلوا عليها نتيجة نهبهم إياها لضئيلة جداً ، اذا قارناها بالخزي والعار اللذين أصابا المتسببين في هذه التكتبات .

والذي يدهشني في هذه الواقعة ، ويخجلني عندما أتكلم عن هذه الأحداث هو أن السيد بيشون قد عرض قلبي ، في كتاب ، وبكيفية صادقة هذه الأحداث ، ولم تتخذ الحكومة الفرنسية أدنى الاجراءات للتتديد بهذه الأعمال التي لا تليق بمقامها وبكرامتها . ولقد كان من حقها أن تبرهن على أن مشاعرها تتعارض مع هذا النوع من التصرفات ، ومن واجبها ، كما فعلت ذلك بمناسبة الاستيلاء بالقوة على الصوف ، أن تشجب بشدة وبواسطة نصريح وقوع مثل هذه الكوارث التي ينسب فيها أعوانها . وأخيراً ، كان عليها أن تعوض للسكان القتلى الذين سلموا من المذبحة ما أتلّف من أملاكهم ، وأن تمنع بيع الغنائم المغتصبة . لقد تم هذا البيع في باب عزون ، ومن جملة ما رأينا أساور ما تزال مشدودة الى زنود مقطوعة وقرطاً دامية . وعلى العكس فإن جميع الأعمال التمسفية كانت تشجع وانطلمست مبادئ العدالة كلها في أذهان الحكام . وبهذه التصرفات ، سوف تستحيل الإقامة في هذه القارة بالنسبة للفرنسيين الذين سيفقدون الى الأبد جميع الامتيازات التي يكونون قد اكتسبوها .

وهكذا نظمت حملة عسكرية ضد البلدة التي كانت بين أيدي الفرنسيين وفي حمايتهم ، وعلى غرار ما وقع في العوفية ، فإن سكانها نهبوا وذبحوا . وهذه المدينة المعرضة ، دائماً ، لهجومات المفسدين المقيمين في الجبال المحيطة

بها . ليس فيها أي حصن ولا يمكن لها أن تقاوم طويلاً . واتي لأذكر هذا الحادث وأترك الحكم فيه للأجيال المقبلة .

لقد خضع سكان البلدة للفرنسيين على رغم أنف جيرانهم سكان الجبل ، ثم ان الفرنسيين تركوهم فريسة للأحقاد ، يموتون دون أن يقدموا لهم وسيلة للدفاع عن أنفسهم .

وكل هذه الأعمال التخريبية الهدامة معروفة ويزداد انتشارها من يوم لآخر في كامل أنحاء الايالة .

ان هذا البلد ، كأنه سلسلة في احساسه بالخير والشر ، يكفي أن تمس حلقة واحدة لتقوم الباقية برد الفعل . وهكذا ، فان الانطباعات التي تنتج عن تصرفات الحكام تسري حياً والى كل مكان ، لكن ، مع الأسف ، فإن جزءاً من الانسانية وحده هو الذي يزرع تحت عبء كل ما يمكن تصوره من الشرور .

ولكي أعود الى وصف الخيم ، فعلى الرغم من أنني لم أتجول في هذه الدواوير التابعة للشيخ الشهم الكبير الذوايدي ابن قانه ، خال الحاج أحمد ، باني قسنطينة ، أستطيع القول بأنها رحة ومقامة بأناقة وأبهة . وعلى كل مدخل نجد الخيل الجميلة مربوطة . ولقد سألت عن عدد الفرسان الذين يمكن تجنيدهم عند أول اشارة ، وكان الجواب أن الشيخ ابن قانه يستطيع الاعتماد على عشرة آلاف فارس . ولا أعتمد أن في هذا العدد مبالغة ، لأن مجموع الخيم يزيد عن العشرة آلاف واذا فرضنا أن كل خيمة يمكن لها أن تجهز فارساً واحداً وجدنا بكل سهولة العدد المطلوب ، أما أنا ، فإني أعتقد انه بالإمكان ، عند الحاجة ، مضاعفة العدد ، وذلك نظراً لكثرة ما يملكه هؤلاء السكان من

الخيول ولكثرة شغفهم بركوبها وبخوض الحروب . وهناك ، أيضاً ، مشايخ كثيرون يعرفهم ابن قانه ويسكنون هذه المناطق .

وها هي الآن بعض التفاصيل عن الصحراء . انها باب وموطن للرمال ، نرى فيها من حين لآخر جبلاً شامخاً ثم يزول في لمح البصر لأنه من رمل وليس من أجسام صلبة . ان الرياح تصنع الجبال وتهدمها كما شامت ، وتصنع السهول والأكوام . ومن المسحيل شق طريق تضمن الذهاب من نقطة والإياب إليها ، اننا لا نجد فيها شجرة ولا حجرة ولا أنهار ولا أودية . ولا أية علامة لمعرفة الاتجاه . غير أن سكان هذه الناحية يتمتعون بموهبة خاصة تفوقهم في الأسفار ، انهم يهتدون بكواكب النهار ونجوم الليل ، ويكشفون المياه بسهولة عجيبة ، وفي بعض الأحيان فان هذه الينابيع تكون مغطاة بقدم وقدمين من الرمل ، ولكن ذلك لا يمنع من الوصول إليها وهذه ملكة اختصوا بها دون غيرهم .

يوجد في وسط الصحراء بعض المدن مثل بسكرة ، ميزاب ، لغواط وغيرها ... مقامة على الأنهار أو على الينابيع ، وتخضع لإدارة مشايخ الصحراء الذين يتقاضون نوعاً من الغرامة مقابل حمايتهم لأهالي هذه المدن .

وسكان الصحراء لا يعرفون البذلة الأوربية ، ما عدا اولئك الذين يذهبون الى المدن الساحلية مثل مدينة الجزائر وغيرها .

ويوجد في هذه المناطق عدد كبير من الحيوانات السامة مثل الثعابين والعقارب ، وهي خطيرة جداً ، ولا أستطيع ذكر أنواع الخلد التي يتدبر بها السكان لحماية أنفسهم ، لأن هذه الحيوانات تختبئ في الرمال ، وهناك أيضاً ، الأقاعي بأحجام مختلفة ، ونوع آخر قصير ونحيل ينطلق نحو الأفراد

وكانه السهم ، وبمجرد ما تتصل هذه الزواحف بالجسم تطلق النار ثم تقتل نفسها بعد أن تمت الشخص المددوغ ، ويقال كذلك أنها تترك أثراً في قطعة الحديد أو الفولاذ التي تصطدم بها . فمثلاً ان ركاب الخيل في هذه المناطق عريض ومحف لثجد الرجل فيه مكانها ، وعندما يلمسه هذا الحيوان ، فإنه يترك فيه علامة .

ولن أنهي من هذا الفصل دون التذكير بأن هذه المنطقة الواقعة في داخل البلاد هي مصدر ثروات الإيالة وأساس كيانها السياسي ، وأنها تشكل بمفردها أكبر جزء تعتمد الإيالة كل الاعتماد على سكانه . - وهنا أصل إلى تفاصيل أقل أهمية على الرغم من أن بعض مشاهير الكتاب أرادوا أن يظهروا بأن المناطق الساحلية أهم وأغنى ، وسأبين في الفصل القادم مدى خطأ زعمهم ، وأبرهن ، بكيفية منطقية وهندسية ، على أنهم ارتكبوا أغلاطاً فادحة عندما تكلموا عن أشياء لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وأن إقناع ذوي المنطق السليم والرأي الصائب لا يتم أبداً بواسطة الحمل المنمقة ، والمحيط لا يمكن أن ينشأ فوق مونتمارنر كما أن القصور في اسبانيا ستظل خرافات ، وعلى الرغم من كل ما قد تفوهت به تلك الشخصية التي هي بلا شك أقرب إلى أن تكون رجل سيف منها إلى أن تكون رجل قلم ، على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أنني من مواليد المشرق ، فإنني سأقف ضد حقوق غير مشروعة وأحارب الآراء الخاطئة بواسطة حجج لا تقبل المنازعة .

الفصل الخامس

المتيجة : طبائع سكانها وعاداتهم

إن المتيجة التي دوخت بعض الشيء ذلك الكاتب المشهور (I) وجعلته يعلم بأنها الأرض الموعودة ، التي أراد الجنرال أن يحولها إلى جزيرة في وسط هذه القارة الواسعة بعد أن أوحى له بعدد آخر من المشاريع الوهمية ، رقعة منضعية وغير صحيحة . أنها سهل لا تساوي تربته تربة غيره من سهول الإيالة ، بالإضافة إلى كونه موطناً لحمى تظهر في أوقات متقطعة ، فتصيب السكان وتلازم حتى المتأقلمين .

وعليه ، فإن الجنرال الشهير وأنصاره مخطئون كل الخطأ وأرى من واجبي أن أنصت إلى وسائلهم التي تبدو لي غير صالحة . يعتقدون أن باستطاعتهم استصلاح هذا السهل ، ويتوهمون أنهم اكتشفوا قنوات كذلك التي تعود الرومان أن يستعملوها وظنوا أنها كافية لتجفيف التربة .

(I) المقصود هنا هو السيد كلوزيل الذي سنكلم عنه فيما بعد .

ومن واجبي ، كمالك - من أب لابن - لجزء كبير من هذا السهل مثل أسر أبي قنطرة، وأبي هراوه، وناصف خوجة، - من واجبي أن أقول بأنني أجهل تماماً وجود قنوات تشبه قنوات الرومان . وشخصياً ، فإنني أملك عدداً من هذه القنوات على مقربة من مزارعي ومن الأليق أن نسميها ميازيب لأنها معدة فقط لإبعاد المياه العفنة والمضرة ولجعل الضواحي قابلة للإسكان . وكلما حاول بعض الكتاب أن يقارنوا رقعة منقوعة كمنطقة الشبجة بأراضي أمريكا ، فإنهم يكونون عرضة للانتقاد . ومن الأفضل لهم التفكير في مقاطعات لومبارديا(2) أو في ضواحي روما الاصحبة لتكون المقارنة عادلة ومنطقية . وعليه ، فإن من واجبي أن أقوم ، عن وعي ، بتكذيب كل ما قبل عن هذه المنطقة حتى ولو كان في ذلك خيبة أمل لبعض الأشخاص الذين يتظنون منافع كبيرة من الاستعمار .

ان سكان الأيالة ، أو الأهالي كما يسمون ، يعرفون بلادهم أحسن من الأجانب الذين زاروها مرة أو مرتين والذين يمكن التشكيك في إدعاءاتهم الإحصائية والطوغرافية . هناك أشخاص يزعمون أنهم يعرفون مقاطعة أو مملكة ، جيلاً جيلاً وحجراً حجراً ، وهم في الواقع لم يشهدوا تلك الأماكن إلا عرضاً ومن بعيد . تماماً كما لو قلت أنني أعرف فرنسا حتى المعرفة لأنني قطعت المسافة ما بين مرسيليا وليون وباريس وكالي ، ذهاباً وإياباً فوق العربة . فيكل فزاحة لا أستطيع ان أكتب مقالة وصفية لإعتماداً على

(2) منطقة في شمال إيطاليا تقع بين جبال الألب ونهر البو . مناخها صعب جداً ، بارد في الشتاء وحار في الصيف . اشتهر سكانها بزراعة الكروم والأرز ، والقنب وبترية دودة القز . وهي الآن منطقة فلاحية وصناعية في نفس الوقت .

مثل هذه المعطيات ، وأترك للقارئ حرية الحكم على الملاحظات التي قد تتعارض مع الإستلاحة .

ان الطبيعة لم تحب سكان المتيجة . انهم يجبلون على الكسل والنذالة والحياة والحقد والدسيسة . وليس لهم مورد غير التسيقات التي يقدمها لهم الجزائريون (سكان العاصمة) مقابل الإعثناء بمزارعهم وقطعانهم ، وما يدره عليهم الحليب الذي يبيعونه في مدينة الجزائر . وعندما يراد وصف شخص بأنه كسول ومسكين يقال عادة انه من متيجة .

ان قمح هذه المنطقة أقل جودة من غيره ، ولونه يميل الى السواد وكية النشاء فيه أقل من تلك التي تحتوي عليها القمح الأخرى . ولا يمكن تخزينه أكثر من سنة لأنه يتعرض للفساد حتى ولو كان البذر من مكان آخر . وهذا العيب ناتج عن جو المنطقة ومناخها ، ويقول الفلاحون ان اللون القريب من السواد ناتج عن كثرة الندى الذي ينساقط على القمح قبل فترة النضج . وهذا أمر لا نجده في باقي أنحاء الايالة . انني أتكلم عن بصيرة لأنني كما ذكرت في السابق ، أحد المالكين في المتيجة . وأزرع سنوياً في هذا السهل ، ولحسابي الخاص ، حوالي مائة وستين حمولة جمل من القمح ، وحوالي مائة أو مائة وعشرين من الشعير .

انني أزور هذا السهل مرة في ربيع كل سنة لأنني أخشى الحمى في الفصول الأخرى ، وحتى في هذه الفترة آخذ معي ماء الكولونيا وغيره مما يقيني شر الهواء القاسد ، كما أتزود من ماء مدينة الجزائر أشرب منه . ان هذا السهل يشبه الغدير في الشتاء ، وفي الصيف والحريف تستوطنه

الحمى باستمرار الى درجة انه من الصعب جداً إتقاؤها ، وما تمسكي بهذا السهل إلا لأنه قريب من المدينة ولأن فيه مزارع ومواشي غير بعيدة عن ضواحي الجزائر التي أزرع فيها القطن وهي زراعة منتجة لا يعرفها العرب . وعلى أثر الغزو الفرنسي ضيبت هذه الزراعة كما أرغمت على ترك منافع أخرى . ان هذا السهل يكاد يكون مملوكاً من طرف سكان مدينة الجزائر وحدهم ، أما معاش سكان النتيجة فمن وادي جر ومليانة ، (3) وعندما لا تكون الغلال كافية يلجأون جميعاً الى المناطق الغربية . وبعد مجيء الفرنسيين ارتفعت الأسعار وقلت الموارد في هذه المنطقة بكيفية ملموسة . وأصبحت الطرقات غير آمنة مما جعل سكان الغرب لا يسلكونها كما كانوا يسلكونها في السابق . ان هذا الشر قد ظهر خاصة هذه السنة بعد اعتقال مرابطي القليعة الذي هو أكثر المرابطين تأثيراً في هذه المنطقة ، والذي كان يحمي المسافرين ويدفع السكان البعيدين الى الإتيان ببضائعهم وذلك بأن يحفظهم من جميع أنواع الستم . لقد أصبح اعتقال هذا المرابط مصيبة على المنطقة ، لا سيما وانه اعتقال غير شرعي وان براءة الشيخ لا بشك فيها أحد . ويبدو ان الاعتقال ما يزال مستمراً ، وان غرامة محبقة قدرها مليون قد فرضت عليه وأغاظ هذا التصرف الجائر جميع سكان الولاية الى درجة انه لم يعد لديهم أي اعتماد للإتحاد مع الفرنسيين الذين صاروا ينظرون اليهم كمتعصبين . ولقد باع أهالي هذا المرابط كل ما يملكون من ماشية وخيل وأراضي وجيوب ولم يتمكنوا إلا من جمع عشرة آلاف فرنك . وعلى الرغم من دفع هذا المبلغ ، واستحالة الحصول على أكثر من ذلك ، فان اعتقال قائدهم

(3) وادي جر سهل شاسع يبعد عن مليانة بحوالي عشرين كيلومتراً .

ووالدهم ما يزال مستمراً . وهذا هو السبب الذي دفعني الى القول بأن سكان النتيجة تألموا كثيراً من هذا الوضع ، وبأن فلاحتهم قد توقفت كما انقطعت وسائل عيشهم الأخرى لأن هذا القائد هو حامي الفلاحين في هذا السهل ، وهو نفسه واحد منهم . وعلى فرض هؤلاء السكان سيخلصون الى الفرنسيين ، فان وسيلة عيشهم محصورة في بيع البقر والدواجن . فبا لهم من تعساء ! لأن عرب الجبال يتحكمون في هذا السهل بحكم موقع المنطقة الطبوغرافي . والخيل غير موجودة بتاتاً ، وما هو في حوزة السكان منها يستعمل للركوب ولتنقل السلع وحرث الأرض . وعندما يصل أهالي هذه الناحية الى مدينة الجزائر يعرفون بكل سهولة نظراً لما هم عليه من جهد وتعب ، وذلك لأنهم لا ينقصون تغذية فحسب ، ولكن الغذاء الذي يتناولونه لا ينفع كثيراً بل هو غذاء مضر . ونظراً لكل هذه الاعتبارات يبدو لي من العجب أن يكون « الدوق دوروفيكو » أراد ان يفرض على هؤلاء المساكين ضرائب كذلك التي كانت تفرض عليهم في عهد حكومة الأتراك . وهم كذلك يقولون « اننا كنا ندفع الضرائب للأتراك مقابل قيامهم بتهدئة البلاد وتأمين الطرق وحمايتنا الخ ... فافعلوا مثلهم وسندفعها لكم ! ! ! » .

ان دفع الضرائب في بلاد الإسلام واجب ديني لأن الأموال المتأنية منها تنفق في صالح المجتمع بصفة عامة ، ومعنى ذلك ان رئيس الدولة ليس إلا أمين مال المجموعة . يجمع الضرائب لينفقها في سد حاجات البؤساء والأرامل والأيتام ورجال الدين وأبناء السبيل . وأخيراً ، في العمل على صيانة النوع البشري وتحسين أوضاعه . ولكي تكون هذه الضريبة شرعية يجب ان يكون رئيس الدولة مسلماً ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، يتحتم على

السكان ان يقوموا ، حسب ضمايرهم ، بتوزيعها بأنفسهم . وإذا أرغموا على الدفع ، فأنهم يعتبرون ذلك قرصنة أو سرقة ، ولا يمكن ان تكون السرقة عملاً شرعياً . ولا يمكن لجميع الأشخاص الذين يعرفون التشريع الإسلامي ان ينكروا هذه المبادئ . ومن خلال هذه التفاصيل يجب نفهم بأنهم اذا امتنعوا عن إبداء هذه الملاحظات للدوق دوروفيكو ، فلأنهم كانوا يخشون ضغينته والتعرض لمصير قبيلة العوفية . ومن نتائج هذا التعسف ان جميع السكان هاجروا وفروا وأخذوا جميع ثرواتهم الى الجبال المجاورة ليكونوا في مأمن من سائر أنواع العدوان . ولم يبق ، اذن ، سوى الضعفاء واليواساء وهم لا يقدرّون على حرث الأرض . وسيكون من الصعب إجبار هؤلاء السكان على دفع الضرائب خاصة بعد ان حرموا من الفلاحة التي هي من أهم وسائل عيشهم . وحتى اذا دفعوا الضرائب ، فإنهم لن يحصلوا على أمن الطرق ولا على الحماية التي وعدوا بها ، بل سيكونون كسكان البلدة الذين اضطهدوا وأجبروا على دفع ضرائبهم بعد ان خضعوا للفرنسيين ، وتعرضوا بسبب ذلك الى انتقام سكان الجبال المجاورة لهم والذين هم أقوى منهم ، بدلا من ان يحصلوا على الحماية الفرنسية وعلى وسائل إقامة الحصون التي تقيهم وتدفع عنهم الشرور . ولأجل ذلك تركوا البلاد ووجدوا أنفسهم مجبرين على إقامة العلاقات مع سكان الجبال .

وفيما يخص طريقةتهم في الحياة وألبستهم ، فإنهم يمشون ويلبسون على وجه التقريب مثل السكان الذين تحدثنا عنهم سابقاً ، حسب ما توفره لهم وسائلهم المالية . ولن أنخصص باباً لوصف طبائعهم وعاداتهم على الرغم من أن شخصاً مدفوعاً بمصالح شخصية ، - ما في ذلك من شك - قد قام

يوصف هذه المنطقة ويوصف سكانها وصفاً سطحياً لا أساس له من الصحة . ولأنني أمتنع ، في الوقت الحاضر ، عن محاربة هذه الأغلاط التاريخية التي ، بالرغم من أنها تخدع القارئ ، أكسبت صاحبها مرتبة أعلى وهو يأمل أن يرى المخططات التي وضعها تتحقق . واذا سمحت لي الظروف فيما بعد ، فلأنني سأعود إلى الوراء وأعالج هذا الموضوع .

البلدة

سكان البلدة يشبهون بعض الشيء سكان النتيجة إلا أنهم أكثر منهم حضارة . أنهم يصنعون قماش المناديل التي تباع في مدينة الجزائر ، ويرغم ذلك ، فإنهم فقراء لا يعرفون تجارة ولا صناعة . مناخهم غير صحي .

الفصل السادس

عن سكان الجهة الغربية

هذه المنطقة أقل خصباً وأقل اتساعاً من مقاطعة قسنطينة . وتلمسان التي هي إحدى المدن الرئيسية فيها ما زالت تحتضن أوابد كبيرة ومآثر هندسية جميلة للغاية . وقد كانت هذه المدينة ، في القرن السابع ، عاصمة للمقاطعة ، تأوي حكومة مستقلة (1) ، وهي أقدم من مدينة الجزائر ، كما أنها كانت مقراً رسمياً لدولة عبد المؤمن (2) . وفي المدينة ما زال يُعثر على نقود تحمل اسمه ، ومن جملة هذه النقود قطع من الذهب الدقيق في حجم نصف العملة الانكليزية أو سكين جمهورية البندقية القديمة . ومدينة تلمسان التي هي أكبر مدن الأيالة كانت قد تهدمت ، وشرع في بنائها من جديد وهي الآن آهلة بالسكان الذين ينقسمون الى صنفين : الأتراك والعرب أو الأهالي .

(1) هي حكومة دولة بني عبد الوادي التي أسسها بوعمراس سنة 1248 بعد أن افتك مدينة تلمسان والنواحي من السلطات الموحدية . وقد كانت تلك الدولة تشمل على ولايتي وهران والجزائر وبني عبد الوادي هم أنفسهم بنو زيان .
(2) أول رئيس للدولة الموحدية . ولد سنة 1100 ، وتوفي بعد ذلك بثلاث وستين سنة ، استولى على ممتلكات المرابطين في المغرب وأسبانيا كما أنه أخضع الجزائر ونونس ، وبذلك كوّن دولة عظمى .

وبما أن الجزائر كانت تحت حماية الباب العالي ، فإن من المسلم به أن حكامها يكونون دائماً أتراكاً وكذلك نظامها العسكري ، وإن العرب لا يقبلون أبداً في صفوف الميليشيا . ونتيجة هذا التمييز تولد بين الصنفين ، في تلمسان ، حقد ما زال إلى يومنا هذا وكثيراً ما يؤدي إلى صراع بينهما في وسط المدينة . وعندما دخل الفرنسيون الجزائر قامت معركة بين الطرفين ، وحتى لا تسود الفوضى ، طلب من سلطان المغرب (3) أن يتدخل ليضع حداً لهذه الحرب الأهلية . وقبل السلطان هذه الدعوة ، ولكنه بدلاً من أن يحمي السكان ويعيد الأمن سلط على المدينة ظملاً أدهى وأمر من الظلم الذي كان يسودها . فأبعد إلى مدينة فاس عشرين من الأعيان ولم يطلق سراحيهم إلا عندما استولى على سائر ممتلكاتهم .

ولما رأوا أن سلطان المغرب يفتي عليهم ، وإن الفرنسيين ، من جهتهم ، سلطوا على مدينة الجزائر حكماً جائراً ، ووجدوا أنفسهم بين نارين . بادروا إلى إبرام الصلح فيما بينهم . كانت مصالحهم تستدعي الوحدة فنسوا كل الصغائر المهلكة التي لا معنى لها . وفي هذه الفترة أرسلت فرنسا السيد دومرني في مهمة لدى سلطان المغرب قصد الحصول على الانسحاب من هذه المقاطعة التي تحتلها الجيوش المغربية . وفي أثناء الانسحاب شكل الأهالي حكومة مستقلة مكونة من أشخاص محكيين يرفون جبيع الثقلبات البشرية ، وباختصار ، أقاموا نوعاً من الجمهورية إذ أن الحكم أصبح بيد جمعية يؤلفها عدد من أعيان المقاطعة .

لقد اطلعت على تفاصيل هذه الأحداث عن طريق مستغاثم التي هي أيضاً

(3) هو السلطان عبد الرحمن .

مدينة من مدن الجزء الغربي في مملكة الجزائر ، وتقع على مقربة من وهران . وتأكدت لدي هذه المعلومات بواسطة جزائريين يسكنون تطوان وغيرها من مدن المملكة المغربية أجبروا على الخروج من مواطنهم بسبب التنكيلات التي تعرضوا لها من طرف الفرنسيين .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن سكان تلمسان من الأتراك والعرب . أشداء ، ذو خلقة حسنة ، غنيون ومفكرون ، يحبون المجد وهم شجعان . ولكنهم طيبون واجتماعيون وتجار وفلاحون في أرضهم . يوجد في منطقتهم عدد من معامل الصوف يصنع فيها نوع من الأقمشة العادية التي يستعملها الجيش ، كما تصنع فيها المحازم التي يبلغ عرضها أربع بوصات والتي تنسج (4) نسجاً متيناً وتنقل إلى كامل أنحاء البلاد . مناخ تلمسان ألطف من مناخ الجهات المجاورة لها ، ووضعها الطوبوغرافي جعل منها منطقة ثرية ومزدهرة ، إنها أحسن من منطقة الجزائر لو تزود بحكومة عادلة . ومن الممكن أن تصبح تلمسان مخزناً للسلع بالنسبة لكامل الجزء الغربي والجنوب الغربي إفريقيا . إن مملكة المغرب تفرض على المواد الصناعية والتجارية الأوروبية ضريبة قدرها 10٪ . وعليه فبالإمكان أن نستورد عن طريق البر بجميع أنواع السلع دون أن ندفع رسوماً ، كما يمكن لنا أن نجد أسواقاً جديدة في مملكة المغرب وفي داخل إفريقيا .

(4) البوصة هي الجزء الثاني عشر من القدم . وكان القدم في فرنسا يساوي 32 سم وفي انكلترا 47,30 .

المدينة (5)

سكان المدينة شجعان ومتصلبون . لا يميلون إلى الصناعة . مناخهم معتدل ولكنه بارد دائما تقريبا . إنهم يحنون تماراً ممتازة والجو صحي في منطقتهم .

مليانة (6)

يتسم سكان مليانة بنوع من العناد . أرضهم خصبة للغاية وهم فلاحون ومزدهرون ممتاز . لا يمارسون أي نوع من أنواع الصناعة وليس لهم حرف غير تجفيف النواكه ، وصناعة نوع من المعجون بعصير العنب واللوز يمكن الاحتفاظ به طوال السنة . مناخهم صحي .

وهران

لم تدخل هذه المدينة في خوزة الجزائريين إلا سنة 1790 (7) . والذي استرجعها من الإسبانيين هو الباي قاره محمد (8) . وهي آهلة بسكان معسكر والمغاربة وبني مزاب والبرابرة . وضعها الجغرافي جعل من سكانها تجاراً وذلك

(5) توجد جنوب غربي الجزائر ، وتقع في مفرق الطرق الرابطة بين سهول الشلف والنتيجة . كانت تسمى لميدية في عهد الرومان . أنشئت في القرن العاشر ، وكانت عاصمة لبابلك التياوي .

(6) تبعد حوالي مائة كلم عن مدينة الجزائر . وتقع في سفح جبل زكار الغني بالمناجم . ولقد كانت ، في العهد العثماني ، تابعة لبابلك الغرب ، وقبل الاحتلال ضمت إلى دار السلطان .

(7) تذكر كتب التاريخ أن خروج الإسبانيين من وهران كان سنة 1792 .

(8) ويسمى ، أيضاً ، محمد الكبير ، عزله حسن داي بعد أن حكم أكثر من عشرين

سنة . وفي مطلع القرن التاسع عشر عين ابنه عثمان بابا على قسنطينة ، وهو الذي قتله الربوئي أثناء ثورة ابن الأحرش سنة 1804 .

لما في التجارة من منافع ولأن الباي مهتم بها . ويأخذ الباي من التجار رسماً مقداره 5 بالمائة من السلع ، ويبيع هذه البضائع إلى السكان نقداً أو مقابل حيوب ومواشي كالأبقار والأغنام . وبهذه الحالة يكون هو أيضاً ناجراً . إن الدراهم متوفرة والفلاحة مزدهرة والبلاد في رخاء .

معسكر (9)

سكانها من الأتراك والعرب والبربر وفيهم كثير من الكراغلة . طبائعهم وعاداتهم كثيرة الشبه بطبائع وعادات أهل تلمسان . إنهم فلاحون ويشغلون خاصة بمضاعفة أجناس الخيل المختلفة وغيرها من الحيوانات الأخرى . يمارسون التجارة مع بني ميزاب . وفي هذه المنطقة تصنع البرانس الشهيرة السوداء ذات اللون الطيبي والأقمشة الكتيفة والتي تستعمل في كامل أنحاء إيالة الجزائر ، وتصدر إلى مصر وتركيا . يباع البرنس الواحد من البرانس المهففة بسعر يبلغ المائة فرنك . ولقد أصبح الفرنسيون أنفسهم من هواة البرانس .

مدينة معسكر أقل قيمة من مدينة تلمسان . وعندما كانت وهران في قبضة الإسبانيين ، كانت معسكر هي مقر الباي ، وكانت المقاطعة عندئذ طنية ، وشاع الترف في معسكر يظهر ذلك من خلال منازلها وهندستها . إنها مدينة أكثر تقدماً من مدينة تلمسان . أما المدن والقرى الأخرى ، فلا يبدو لي من المفيد أن أتكلم عنها إذ هي شبيهة بها لا تختلف عنها إلا بحسب موقعها .

(9) تشرف على سهول اغريس . كانت عاصمة بابلك الغرب قبل استرجاع وهران . ألغىها عبد القادر عاصمة له سنة 1832 .

وتبلغ مقاطعة التيطري نصف مقاطعة تلمسان وصفناها ووضعنا حدودها . ويقطن باي التيطري في المدينة ، وتعتبر المقاطعة أسهل مقاطعة يمكن أخذها في الإيالة ، والأتراك يعرفون ذلك كما أعرفه أنا . وهناك مثل يقول بأن باي التيطري أضعف وأفقر من أمين بني ميزاب . وبني ميزاب هم سكان الميزاب الذين تكلمنا عنهم عندما ذكرنا الصحراء ، يأتون مدينة الجزائر كعمال يشتغلون بأحقر المهن ، فيشتغلون مثلاً في الحمامات والمطاحن وبيع اللحوم والفحم ، ويمكن مقارنتهم ، في باريس ، بسكان مقاطعتي الليموزين والصابوا (IO) . وحفاظاً على الأمن العمومي ، تعين الشرطة أمين بني ميزاب أو مسؤول الطبقة الشغلية .

لا ينبغي اعتبار التيطري منطقة جبلية تصعب على المدفعية أو على الخيالة ، وإذا قيل عن حملة التيطري أنها تشبه حملة أوسرليتير (II) أو حملة وفرام (I2) ، فإن ذلك بلا شك للحصول على تقدير الأمة الفرنسية .

أما المزيمة التي مني بها الجنرال بارتوزين (I3) في المدينة ، فلها لا ترجع

(IO) منطقتان فقيرتان في فرنسا . ونشهر الثانية بجبالها ، وأهم وارداتها تربية البقر واستغلال الغابات ، كما أنها تشتمل على كثير من المياه المعدنية مثل إيفيان وتونوب ، الخ . . . (II) مدينة صغيرة في تشيكوسلوفاكيا تسمى حالياً : سلافكوف ، وقد انتصر فيها نابليون على النمساويين والروس سنة 1805 .

(I2) قرية نمساوية أحرز فيها بونبوت على انتصار باهر أمام جيوش النمسا التي كان يقودها الأرشدوق كارل ، وذلك يوم 6 جويلية سنة 1809 .

(I3) جنرال فرنسي ولد سنة 1775 وتوفي سنة 1847 . شارك في حروب الثورة وفي جميع الحملات التي نظمها نابليون . هو الذي كان يهود الجيوش الفرنسية التي انتصرت على إبراهيم آغا في سطاولي . غادر الجزائر سنة 1832 . يقول حمدان إنه كان إنساناً يعرف قوانين الحرب .

أبداً إلى تفوق قوات التيطري ، ولكن اتحاد مجموعات أخرى من برابرة الجهة الغربية هو الذي زاد في عدد القوات التي قد تكون وجدت في هذه الناحية ، وجعل الجنرال بارتوزين يتخذ في حساباته . إنه لم يكن ينتظر مجابهة مثل هذه القوات المجتمعة فضّل في مهمته . غير أن الذين نصحو الجنرال بتنظيم هذه الحملة ادعوا - تحلياً من التوبيخ - بأن الاتحاد تم بإيعاز من الأتراك الباقين في مدينة الجزائر . ولذلك اضطهد هؤلاء المساكين وأخذتهم القوات المسلحة من ديارهم لينفوا أو ليزج بهم في السجون .

وكان صهري من جملة هؤلاء المظلومين . فقصدت الجنرال بارتوزين لأعرف أسباب الاعتقال ولكنه أعتمر وأجاني بأن قائد الشرطة ، الذي كان آغا ، هو صاحب القرار الذي أفقد صهري حريته . وعندما توجهت إلى قائد الشرطة أجاني بكل برودة ولم يزد على قوله : « يجب أن تذهب ، يجب أن تبث النساء إلى تطوان أو إلى غيرها » . ولما ذكرت له بأنني لا أوافق على ذهاب بناتي أجاني بقوله : « اذن ، فليطلق ! » .

إننا لم نعرف الطلاق الإجباري في عهد أكثر الحكومات جوراً ، ولكن الإدارة الفرنسية سنت هذا القانون في إفريقيا مع أنه غير موجود في فرنسا ، ولا يمكن - مهما كان الأمر - أن يوجد على هذه الصيغة .

وفي هذه الحالة وجدني محيراً على الاحتجاج ضد هذا الإجراء ، وتوجهت إلى القاضي لإبقاء الزواج والبحث عن كيفية الخضوع لهذا العمل التعسفي خصوصاً ظاهرياً على الأقل .

كل هذه الإهانات جعلت الجزائريين يأسون . وإن الطريقة التي تسلكها

الإدارة الفرنسية قد نفرت السكان ونقلت الحضارة أكثر من قرن إلى الوراء .
وفيما يخصني ، إنني مقتنع بأن الحكومة الفرنسية لا تعلم بكل ما يجري من
أحداث ، وإذا كانت على علم بهذه التدابير اللاإنسانية واللاستورية ولم
تعاقب أصحابها ، فإننا نستطيع القول بأنها تشجع الإجرام وتساعد على البغي .
وفي هذه الحالة تكون سببها مناقضة تماماً للمبادئ التحررية والفكرية التي
أخذتها عن الشعب الفرنسي . تبدأ حدود هذه المقاطعة في مليانة (شرقا)
وتمتد إلى وجدة (غربا) (14) . مساحتها تقارب ربع مساحة قسنطينة ، وقد
أخذت هذه التفاصيل عن باي قديم مارس سلطته في وهران ثم في قسنطينة .
أما المدن الأخرى التابعة للمدينة ، فإنني أستطيع أن أعفي نفسي من وصفها
لأنني لا أعرف عنها ما يمكن أن يكون عجيباً أو مفيداً .

هذه هي ، إذن ، التفاصيل الوصفية والإحصائية والجغرافية والزمنية
الخاصة بالجهتين الشرقية والغربية في إيالة الجزائر ، ولقد ذكرت كذلك الأقسام
التي تتكون منها المقاطعات في كل منها ، وبقي عليّ أن أتكلم عن العاصمة
وعن تنظيم الحكم التركي والوسائل التي تمكن بها من إخضاع هذا الشعب ،
والطريقة التي استعملها لاكتساب قلوب هؤلاء الناس ، ذلك أن هذا الحكم
استطاع ، بفضل سياسته التي يُزعم أنها همجية ، أن يثبت ثلاثة قرون (15)
في جوار أوروبا .

(14) مدينة مغربية قريبة من الحدود الجزائرية . مشهورة بزراعة الحبوب والزيتون
والخضراوات . أنشئت سنة 994 . فيها مناجم من الرصاص .
(15) ابتداء ذلك الحكم سنة 1516 ، ولم يسقط إلا عندما وقع الاحتلال الفرنسي
سنة 1830 .

الفصل السابع

الجزائر

تسكن الجزائر طبقات مختلفة من الناس ، وكان سكانها في الأصل من
العرب الذين فروا من إسبانيا عندما كان الإسبان يولون مضيق جبل
طارق لاقتراف جريمة الإغراق إلى درجة أن عدد الضحايا بلغ ثلاثة ملايين
لسمّة . وفي ذلك الحين جاء الأتراك لنجدتهم ، ولقد عرفنا التاريخ بهذه الفترة
المشؤومة حق المعرفة . وإذن ، فإن جزءاً كبيراً من سكان مدينة الجزائر
مكون من العرب والأتراك . والأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين
العنصرين يسمون الكراغلة . ويسكن المدينة ، أيضاً ، أعراب وقبائل لم
تفس عادات ونفس حضارة العرب والأتراك . وإن مرّ الزمن قد أتى على
الأصول الأولى وأصبح جميع الذين يسكنون مدينة الجزائر اليوم يسمون
جزائريين .

ول هؤلاء السكان صفات خاصة وأخرى عامة ، وإن المناخ للو تأثير كبير
على طبيعة الإنسان . وعلى العموم ، فإن سكان هذه المدينة شجعان واجتماعيون
وأولياء للعهود وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم ، وصناعيون

ونجار . وإذا وضعوا ثقتهم في شخص فلأبد ، وكذلك إذا خدعوا فلنهم سيحلون إلى الأبد الشخص الذي خدعهم . إن معظم مبادئهم يتم بدون عقد وبدون شهادة ، وبكل أمانة ينفذون جميع التزاماتهم .

عندما تقع أفراس الزواج أو عندما تكون هناك أعياد عائلية ، فإن هؤلاء السكان يستلّفون من بعضهم حلياً وجواهر ثمينة يفوق سعرها في بعض الأحيان عشرة أو خمسة عشر ألف فرنك . وكل شيء في هذه الظروف ، يتركز على الثقة ولا يشترط أي دليل لإثبات الدائنية . ولقد يوثق بامرأة عجوز إذا كانت معروفة حتى ولو كانت فقيرة . وإننا لا نذكر أن مشكلاً قد وقع من جراء ذلك . ولقد جرت العادة كذلك أن بعض الأسر الغنية (التي تُفني معظمها من الجزائر نتيجة الحكم الفرنسي الجائر) تشتري جواهر وحلياً فاخرة تعار للأيتام عند زواجهم وللفقراء الذين لا يستطيعون الحصول عليها . وتعتبر الأسر هذا التصرف كمكمل من الأعمال الخيرية ونحن نعتقد أن الخير لا يتم فقط بواسطة التصديق على الفقراء ، واعطاء فرنك أو ألف فرنك لشخص معين ، ولكن الخير يكون كذلك في كل ما يفرغ الجوار ويحدث في نفسه شعوراً بالغبطة والسرور . وهكذا ، فإن هذه الحلي مخصصة فقط للاستعمال المحلي كما فصلنا ذلك أعلاه ، ومن ثمة ، فإن قيمتها تشكل نوعاً من الرأسمال الجماد .

إن الجزائريين مسلمون بالطبع ، ويخضعون للسلطة حتى ولو جارت . وإن المحنة التي سلطها عليهم الفرنسيون لخير دليل على ذلك ، إذ ما أكثر الآلام التي تعرضوا لها من طرف السادة الحكام ابتداء من بورمون (١) نفسه إلى

(١) هو قائد الحملة الفرنسية . ولد سنة ١٧٧٣ وتوفي سنة ١٨٤٦ . كان من جنرالات الامبراطورية ثم انضم إلى لويس الثامن عشر . هو الذي وقع على وثيقة الاستسلام وأول من نكث العهد الذي عقده مع الجزائريين باسم الأمة الفرنسية .

هذا الذي يحكم الجزائر اليوم (٢) ، إلا أنه يجب أن نستثني الجنرال بارتوزين .

إن الجزائريين صريحون وصادقون ، لا يعرفون الخقد والبغضاء ، وهم كرماء في أعمالهم ، يحترمون الجيران كما لو كانوا أقرباء . وعلى الرغم من أن النساء عند المسلمين يحجب عن الرجال الأبعاد ، فإن الأسر التي تنتمي إلى الطبقة الفقيرة والتي لا تستطيع أن تسكن وحدها ، تجتمع في دار مشتركة على أن يخصص مسكن لكل عائلة ، ويبقى الرجال في معزل عن النساء .

إن الهندسة المعمارية الشرقية وتقسيم المنازل المحلي يختلفان كل الاختلاف عما تعود عليه أهل فرنسا . وعلى العموم ، فإن الأمن يسود المدينة ، وليس في استطاعة الرجال ، حتى ولو كانوا أشراً ، أن ينالوا من التقاليد لأن ذلك يكون بهتاناً وتدنيساً . وإذا كانت هذه هي الخاصية العامة ، فإن هناك بعض الاستثناءات ، وهناك ، أيضاً ، أشخاص لهم نوع من الفلسفة يخيل إليهم أنها متصلة بالدين ، ومفادها أنهم يبدون أموالهم دون التفكير في المستقبل . غير أن الدين أو القانون لا يتدخلان في مثل هذه الأمور . وإنما بحث الدين على اكتساب المال الحلال وعلى عمل الخير بقدر المستطاع . وبما أن عمل الخير لا يتأني إلا بالثروة ، فإنه بحث ، بالتالي ، على النشاط والحركة .

ويوجد لدى الجزائريين من المحاسن ما يجلب الانتباه : إهمهم أوفياء لا يعرفون سرقة ولا خيانة ولا قتل ولا أي نوع من أنواع الجريمة . وعلى العموم لهم رجال شرف لا يخلّون بعهودهم أبداً . وعلى الرغم من أنهم بنو وطني ،

(٢) هو المارشال كلوزيل الذي سيجد القاريء عنه كلاماً وافياً في عدة فصول من الكتاب الثاني .

فلاني أعترف لهم بهذه الخلال الحميدة . وقد يتمكن الفرنسيون من مناقضتي ، لكنه لن يكون في وسعهم إلا الثناء على الجزائريين ، في حين أن الفرنسيين لم ينجزوا الجزء المثوي مما وعدوا به في بياناتهم ومعاهداتهم . إن معظم الفرنسيين لم يؤدوا حتى واجباتهم الاجتماعية - التي تسمى بالحقوق العمومية - إزاء أمثالهم من البشر وبمقتهم ينتمون إلى أمة منحصرة . وعندما وطأت أقدامهم أرض الجزائر ، نسي الفرنسيون جميع قواعد الأدب والأمانة ، بينما لم يطرأ أي تغيير على الجزائريين الذين استسلموا استسلاماً كلياً لمصيرهم البائس حتى أن السيد كلوزيل وصف هذا الاستسلام بالقدرية الشرقية .

إن الفرنسيين يتركون أبواب منازلهم مفتوحة طوال الليل ويجوون الشوارع في الظلام وبدون سلاح ، ومع ذلك لم نسمع أنهم تعرضوا لمكروه أو شيء مما كان يقوم به ضدهم الإيطاليون والإسبانيون وغيرهم من سكان البلدان التي حملوا إليها الحرب . أما في الجزائر ، وعلى الرغم من هذا الظلم ، فإن الفرنسيين لا يشكون من السكان ظلماً ناتجاً عن التعصب أو الاختلاف في الدين ، لأن قوام ديننا أخلاق فاضلة فقط ، وأساس شريعتنا مبادئ حقوق الإنسان ، والجزائريون يطبقون هذه المبادئ .

أما من حيث الطاقات الفكرية ، فإن خيال الجزائريين خصب ، وأفكارهم منظمة . إنهم يتركون الأمور بكيفية عجيبة ولا يصعب عليهم أي عمل يدوي كان أم آلي ، أوله علاقة بالعقريّة . انهم يصنعون مختلف الأقمشة الحريرية والمحارم ، يصدرونها إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس وكامل أنحاء آسيا . ولهم كذلك معامل تصنع الألبسة المطروزة بالحرير التي تنال إعجاب

الشرقيين وغيرهم من سكان الدول الأخرى . وبالنسبة لمعظم هذه الحرف ، فإن مدينة الجزائر هي التي تزود تونس وغيرها من المدن بالعمال .

إن الجزائريين يعنون كذلك بالعلوم والآداب ، ففيهم الشعراء والأدباء وأساندة التاريخ والمشرعون .

ومن حيث التكوين الجسدي ، فإن أجسام الجزائريين رشيقة ، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصراً مختلطاً من النوع الرفيع . الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالاً من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل الفرس وغيره ، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة أو أمراض الجلد ، ومرض الزهري لم يعرف إلا حديثاً وبسمى « بارس » ويعالج بحمية من أصعب ما يكون ولكن المريض يشفى شفاء كاملاً في ظرف شهرين .

الفصل الثامن

حكومة الأتراك : تنظيمها وأصلها

في سنة 1530 ، عندما طرد الإسبان الأندلسيين من بلادهم بواسطة الاضطهاد ، أرسل الباب العالي خير الدين باشا لتجدة المسلمين ووضع تحت تصرفه أسطولاً صغيراً للقضاء على الأعمال الوحشية التي يمارسون لها (I) .
فجاء هذا الرسول ، إذن ، إلى الساحل الإسباني لإنقاذ البؤساء المطاردين

(I) المعروف عند المؤرخين أن عروج وخير الدين وأخويهما كانوا يعملون في البحر لحسابهم الخاص ولكن إسلامهم المتين هو الذي حثهم عليهم الجهاد البحري لإنقاذ المسلمين المضطهدين في الأندلس ولإفكك بعض الموانئ الغربية التي كانت قد سقطت في قبضة الإسبان . ولم يبدأ هؤلاء الأخوة أعمالهم سنة 1530 كما ذكر حمدان ، وإنما دخلوا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط مع مستهل القرن السادس عشر . ولو أن الباب هو الذي أرسلهم لكان قد زودهم بأسطول قوي ، ولكن ينتج نشاطهم في كل مكان . ومعلوم أن أيا من هذين الأمرين لم يتم .

من الأندلسيين وقيادتهم إل جيبل وبجاية (2) وغيرهما من الأماكن المجاورة، ولم يكن في الجزائر في ذلك الوقت سوى حصن فانال (3) الذي يشكل جزيرة كانت في قبضة الأوربيين ، أما الباقي فهو عبارة عن قرية مسلمة . وقبل هذا الحادث بقليل ، كان سلطان المغرب (4) قد بنى في هذا المكان مسجداً وكذلك صومعة الاعلان عن المواقيت ، كما شيد معهداً لتدريس العلوم وأحياء صحية مفضولة عن هذين المبنيين للراحة والاستجمام. والمسجد ما زال موجوداً إلى يومنا هذا ويسمى الجامع الكبير ، والأسوار التي تحيط به قد بنيت في ذلك الحين . والقصبة أيضاً من الآثار القديمة . وكانت تتكون في ذلك الوقت من بضعة منازل تحيط بجامعها والباقي كان خلاصاً يعقد فيه البدو والبرابرة أسواقهم في أيام معينة من الأسبوع . وتحمل هذه الأماكن أسماء خاصة مثل : سوق الجمعة وهي السوق التي تعقد يوم الجمعة ، وسوق السمن وهي التي تباع فيها الزبدة . وسوق الكتان وهي خاصة بالأقمشة ، وما زالت هذه التسميات شائعة في مدينة الجزائر إلى يومنا الحالي .

أما عن حكومة الأتراك ، فإن هؤلاء السكان عندما رأوا أن هذا القائد المسلم جاء لنجدة الأندلسيين ولمنع الإسبانيين من أن يقتلوهم أو يفرقوهم ،

(2) من المدن الساحلية في شرقي الإيالة. كانت الأولى ميناء تجارياً تحت تصرف شركة بكري وبوجناح ، والثانية مدينة يغلب عليها النشاط الصناعي . وقد احتلها الإسبان مدة وكان خلاصهما على يد الأخوة المذكورين .

(3) المقصود هنا هو البيون .

(4) هو يوسف بن تاشفين . وقد بنى المسجد الكبير سنة 460 هـ الموافق لأواسط القرن II م .

استقبلوه بالعرفان والحماس وعينوا له القصبة لينتخذها مقراً (5) . وبعد حين من ذلك تكونت في مدينة الجزائر حكومة قائمة على مبادئ معتدلة وتدعو إلى التفاهم لربط مصالح الأهالي بمصالح الأندلسيين . وقد ساعد وجود الأندلسيين في الجزائر مساعدة كبيرة على تنظيم الحكومة وعلى تقديم الحضارة وهكذا نشأت ثلاث سلطات : إحداهما مدنية ، والثانية ، قضائية ، والثالثة هي سلطة السيادة التنفيذية. وجعل على رأس السلطة المدنية شيخ المدينة يساعده مجلس بلدي . ومن اختصاصاته المحافظة على الأمن والنظافة والعمل على توفير كل ما من شأنه أن ينفع المدينة . كما أنه مكلف بجمع الضرائب ، وكانت في ذلك الوقت تفرض على الحوانيت فيدفع كل حانوت شهرياً حوالي ست «سوردي» من سوارد فرنسا (6) . وضبطت غرامة على اليهود والأغنياء لحماية أشخاصهم وضمان معتقداتهم ، وهي غرامة تتناسب مع ثروتهم وتتماشى مع قانون البلاد . ومن بين الأسر التي كانت تفر من إسبانيا عدد كبير من اليهود الذين فضلوا مدينة الجزائر على غيرها لما رأوا فيها من حكم معتدل وأمن على أشخاصهم .

ولتمكين الدولة من الحصول على مدخولات ، أنشئت ، أيضاً ، مصلحة الجمارك تفرض رسوماً على الصادرات والواردات ، وسأنتطرق فيما بعد إلى الكيفية التي كانت تدار بها هذه المدخولات . لكنني أشير إلى أن هذه الرسوم كانت قد حددت بخمسة في المائة بالنسبة للمسلمين والأوربيين على السواء (7) .

(5) كان ذلك سنة 1516 .

(6) السوردي أو الصولدي هو جزء من الأجزاء العشرين التي تكون القرنك الفرنسي .

(7) وتذكر المصادر أن اليهود كانوا يدفعون 12,5 % .

وكانت السلطة القضائية تشمل على محكمتين ، ومكونة من قاضيين ومفتيين أحدهما مالكي والآخر حنفي . سأشرح فيما بعد الفارق بين هاتين الوظيفتين ، الحنفي وهو الذي يتولى الرئاسة لأن الباب العالي هو الذي يبين رئيس الدولة ، والباب العالي حنفي ، وقصره يعتبر محكمة عليا . وتنظر هذه السلطة التشريعية في القضايا الإجرامية والتأديبية والجنائية ، والمدنية والحكومية ، وتنظر كذلك في الخلافات التي قد تقع بين رئيس الدولة وأي شخص آخر . وهذه المحاكم مستقلة عن السلطان ، وحكمها لا رجعة فيه .

وأخيراً سلطة السيادة ، التي بالإضافة إلى سهرها على تنفيذ الأحكام التي تصدرها السلطة القضائية ، والتشريعية ، وفقاً للعبادة الأساسية التي يقوم عليها قانوننا ومؤسساتنا والتي تكاد تكون ، من سوء الحظ ، مجهولة في أوروبا . يهدف لها يجمع المدخولات العمومية وإدارتها التي تشمل على الأغنياء بالمؤسسات والمحاكم ودفع أجور موظفي الدولة ، ومساعدة الفقراء والأرامل والأيتام الذين يتحتم على الدولة أن تسهر على مصالحهم بقطع النظر عن معتقداتهم ، وأخيراً المحافظة على الحصون والجسور والطرق والغابات ، الخ . . .

وإن باب الحكومة في قانوننا ليكلف العاهل بالسهر على العائلات العمومية المأتمنة من الفلاحة كما سأشرح ذلك فيما بعد .

هكذا نشأت لإيالة الجزائر . وشرح الأهالي إلى هذا العاهل طبائع الشعب البربري ، وبينوا له نقطة الضعف فيه ، أي أنهم نصحوه بأن يمنع المرابطين ثقة مطلقة لأن ذلك يمنع الجميع من أن ينفقوا موقفاً معارضاً خاصة وأن هؤلاء السكان لن يرددوا في قتل أصدقائهم وحتى أقاربهم إذا علموا أنهم يحتفرون المرابطين ، أحياء كانوا أم أمواتاً . ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن

فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين ، وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأتمنها . وصارت أماكن سكناهم وضرائحهم ، بعد الموت ، مقدسة ، كما أن القانون لا يمس كل من لجأ إليها . كانت هذه من إحدى الوسائل التي استعملها الأتراك لاكتساب ود العرب والبربر . وهناك وسيلة أخرى استعملوها وتمثل في أنهم كانوا يظهرون أنفسهم في مظاهر حمالة الدين ، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو منافي للقوانين ، ولا يعملون إلا بالقانون ولقائده القانون . ثم هناك وسيلة ثالثة عرضية فحواها أن الأتراك يقيمون الصلاة بانتظام مما جعل البرابرة يتصورون أنهم مرابطون وصالحون . هذه هي الأسباب التي جعلت سكان الإيالة يخضعون طواعية للأتراك ويثقون فيهم ثقة عمياء .

وإذا اعتزمت إحدى القبائل على تشويش الأمن العام ، فإن القبائل الأخرى تنضم إلى الأتراك لمحاربتها . وقلماً يلجأ هؤلاء إلى قوتهم الحربية ، وإنما كانوا يفضلون الاعتدال لبلوغ الأهداف التي وضعوها لأنفسهم . والدليل على ذلك أنهم عندما يخضعون قبيلة عدوة ثم تسلم تلك القبيلة ، يستقبلونها بحفاوة ويعيدون إليها ما أخذ منها أثناء الحرب ، وقد يروضون لها الأشياء المتلفة حتى يتمكنوا من أن يحلبوها إليهم بعد الانتصار عليها . لقد كانوا يبرهنون مثل هذه القبيلة على ثقتهم بها ويدفعونها إلى أن تعيش هادئة . وكانوا يقولون لها بأن الهجوم لم يكن موجهاً لإبادتها وإنما لتأديبها وإرجاعها إلى الصراط المستقيم . وعلى الرغم من أن هؤلاء البربر أميون ، فإن الاعتدال والإكرام يؤثران فيهم أكثر من القوة والعنف .

وإذا كانت بعض القبائل ، كما ذكرت ، تنضم أحياناً إلى الأتراك لإخضاع القبائل الثائرة ، فإن القبائل في ناحية بجاية وفي الجبال المجاورة

للمنطقة ، لم تكن ترضى بأن تأتي قبائل أخرى إلى أرضها لتساعد الأتراك على إعادة الأمن . وإن كبار المنطقة ورؤساءها هم الذين يسهرون على أمن الطرقات الواقعة في المقاطعة ، ولكن ذلك لا يتم إلا إذا قام الشخص أو القافلة ، باتخاذ أحد المرابطين كمنقذ أو كحام ، ويزعمون أن ليس في استطاعتهم ، بدون رابط أن يؤمنوهم من الحوادث التي قد تقع في أثناء السفر . وجعلت الضرورة من هذا الإجراء شيئاً لا بد منه تبناه الأتراك بدورهم للمحافظة على أمن الطرق . وما زال هذا النظام ساري المفعول إلى يومنا . وإن الحاميات التركية نفسها عندما تتوجه إلى حصن بحاية ، سنوباً ، مضطرة إلى اصطحاب مرابط ، وإلا فلنأخذ طريق البحر .

ونخرج عن هذه السياسة وهذا الاعتدال طاعة العرب والقبائل وأمن الطرقات . وهناك وسيلة أخرى استعملها الأتراك لاكتساب ثقة الأهالي . وتتمثل في تطبيق العدالة والإنصاف اللذين يعتبران أساساً لجميع الحكومات التي تريد أن تكون عظمتها دائمة . وعندما يتم التأثير على العقول فإن الأجسام تتبع بالطبع ، وما الفتح الحقيقي إلا ذلك الذي يستهدف القلوب لا الأجساد .

وبما أنني أرغب صادقاً ، في إسعاد وطني ، رأيت من واجبي أن أبلغ إلى الجزائر بواي هذه المبادئ لأبين له الوسائل التي ينبغي استعمالها لإخضاع قبائل الداخل . إذ أن هذه الطريقة هي التي مكنت الأتراك من السيطرة على هذه الرقعة الشاسعة التي تمتد من وجدة غرباً ، إلى الكاف في الجنوب التونسي . ولقد رجوت أن يقول للجزائر كلوزيل ألا يحيد عن هذه المبادئ إذا كانت فرنسا تنوي الاستفادة من الجزائر عن طريق نشر العلم والحضارة . وأوصيته بعدم اللجوء إلى وسائل العنف و باحترام المبادئ السائدة عند هؤلاء الأقوام

الذين ليس لهم المعرفة الكافية لاستبدال عاداتهم مقابل القوانين الأوروبية التي لن يخضعوا لها بالقوة أبداً . وإن تطبيق النظام القائم وحده هو الذي من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مرضية .

ولكن التعطش إلى الثروة الذي يبدو أنه استهوى الفرنسيين في الجزائر قد نفى عنهم كل حذر وكل تعقل ، فأصبحوا صمّاً عمياً لا يبصرون !

إن هذا النظام الذي ظل يطبق منذ زمن طويل لم يعد نظاماً نظرياً ، وإن الأحداث لتشهد بصحة ومثانة المبادئ القويمة التي نريد إثباتها . ولكنني أكرر بأن طمع الفرنسيين في الثروات قد وصل ، في الجزائر ، إلى درجة أنني عندما أبدأ إلى الاستعارة أشبه هؤلاء الأوروبيين بعمالق يدفعه العطش ، وأشبه المدينة بحوض صغير من الماء المالح ، كلما شرب العمالق ازداد عطشاً ، ويحف الحوض ولكن العطش لا يزول .

وللدلالة على ما يحدثه العدل والاعتدال من مفعول حسن ، أشير إلى أنه تم غزو تونس إحدى عشرة مرة ، منذ أن استقر الأتراك في الجزائر ، وفي جميع هذه الغزوات لم تنتهك ولو مرة واحدة مبادئ الحرب ومبادئ حقوق الإنسان ، ومعنى ذلك أن هذه الحروب لم تكن من أجل التنافس على السلطة . ولقد كان الغالب يدخل تونس منتصراً فيدخل الباي الحاكم وينصب الباي الجديد ثم يقيم معه معاهدات فيها منافر للجزائر وإذلال للمغلوبين . ولم يحاول الغالبون ، ولو مرة واحدة ، الاستيلاء على تونس ، أو الاستحواز على ممتلكات الأهالي التي ورثوها عن آباءهم أو التي حصلوا عليها بمجهوداتهم الخاصة . لقد كانوا دائماً يحترمون الأملاك بما فيها من عقارات ومقولات ولم ينسبوا ، أبداً ، في قلب النظام الاجتماعي وإنما كانوا يغادرون البلاد

بعد إبرام المعاهدات مباشرة كما يحدث ذلك عند الشعوب المتحضرة ، وليس
ثمة أمة تستعمل القوة لإزاء شعب ضعيف دون أن تنال من مبادئ حقوق
الإنسان .

ولندعيم هذه الحجج ، أذكر بالأحداث الأخيرة التي أصبحت فيما بعد
من التاريخ ، والتي تتمثل في غزو الجزائريين للإيالة التونسية .

وأتمنى أن يحقق قراء هذا الكتاب في صحة ما أوردته قبل أن يهتموني
بالتعيز ضد الفرنسيين وبالحدود عليهم . وأترك للعتورين والفلاسفة مهمة
المقارنة بين أعمال الحكام الفرنسيين وأعمال الحكام الأتراك ، وبين عنف
الأولين واعتدال الآخرين . كما أترك لهم أن يحددوا أي الحكام كانت لهم
أحسن المبادئ .

وإذا رجعنا إلى تفاصيل نظام حكم الأتراك ، وتنظيمات الأهالي المجاورين
لمدينة الجزائر مثل النتيجة وبئر سليمان ، الخ . . . أعيد إلى الأذهان بأن هؤلاء
السكان قد طلبوا من الباشا ، قائد الإيالة ، إن يعين لهم أحد الأتراك يجمع
الضرائب ويقيم بينهم شهيداً على تصرفاتهم وشاهداً على طاعتهم للباشا .
واستجابة لهذا الطلب تم تعيين قائد هذه المنطقة . ولأمور سياسية ، كان
الباشا يثق في السكان أكثر من ثقته بعامله ، وذلك أن السلطان أو الملك يستطيع
الاستغناء عن أي حاكم ولكنه لا يستطيع أن يكون على ما هو عليه إذا لم يكن
تحت امرته شعب يشكل أساس حكمه . وكما ، إذن ، كان الباشا مستعداً
لتأييد شعبه أكثر من استعداده لمساندة عامله ، اللهم إلا إذا حظي هذا الأخير
بشهادة جزء من السكان لتزكية سلوكه وتبرير مواقفه . هذه هي الطريقة التي
استعملها الأتراك لسيط نفوذهم ، ثم تمكنوا بالتدريج من تمدين القبائل

بواسطة إشراكهم في النشاط البحري حيث كانوا يحاربون بشجاعة وإقدام
موقنين بأنهم إنما يستشهدون في سبيل الدين .

ومن بين هؤلاء القبائل رجال أذكيا يتكيفون مع الحياة البحرية . وهناك
أمثلة رائعة عن استعداداتهم الطبيعية (8) ، ومنهم من يستولون على السفينة بعد
رحلتهم الأولى وهم يجهلون مبادئ الملاحة الأولية ، وبما أنهم يعرفون
البحال وقسمها معرفة جيدة ، فقد كانوا يتمكنون من التمييز ، بدقة بين
نقطة وأخرى . وعلى أثر الرقيات ، فلهم يتقلون من دوجة نوتي إلى رتبة
ربان . وعندما يتخلون عن المهنة ، يأتون إلى مدينة الجزائر حيث يغيرون
أوضاعهم وأنماط حياتهم وينتقلون من البساطة إلى البذخ . وعندئذ ، يتركون
جبالهم إلى الأبد ليستقروا في المدينة . وسرعان ما يتبنون عادات المدنيين
وطرائعهم . وعندما يلاحظ العربي أو البدوي ، هذا التغيير في وضعه يزداد
ارتباطاً بالأتراك الذين تصبح مصالحهم هي نفس مصالحه .

وعلى أثر الغزو الفرنسي تعرض القبائل أو البدو إلى جميع أنواع الاضطهاد
فصاروا ولا زالوا يتمتعون بالحكم التركي الذي كان يمكنهم الاستفادة من
منافع كثيرة حرّموا منها الآن ، ولكن كانت خيبتهم كبيرة عندما اطلعوا
على حقيقة محاسن الحضارة والحرية الفرنسيين .

(8) لقد اشتهر من الجزائريين ريس كثيرين كانت لهم سمعة عالية . ولكن أهمهم ،
والذي دوخ أساطيل أوروبا وأمريكا هو الرئيس حميدو الذي توفي سنة 1815 أثناء معركة
مع أحد الأساطيل الأمريكية . ولقد ترجمنا كتاباً خاصاً به ونشرناه في جريدة المجاهد
الأسبوعية (أنظر الأعداد الصادرة في شهري جويلت وأوت) .

الفصل التاسع

حَوْلَ كَيْفِيَّةِ تَجْهِيْزِ سَفُنِ الْقَرْصَنَةِ فِي الْجَزَائِرِ
وَتَوْزِيْعِ الْغَنَائِمِ ، وَحَوْلِ النِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ وَالْدِّيَّوَانِ

لقد نتجت فكرة تجهيز سفن القرصنة في الجزائر عن الرغبة في الانتقام . وكان لا بد أن تتسم مثل هذه الاستعدادات بالعنف والضرارة ضد الإسبانيين الذين تشكو منهم هذه الشعوب أكثر من أية أمة أجنبية أخرى . وفيما بعد سوف تستعمل هذه السفن في تصفية التراعات الدينية .

كان الجزائريون يجهزون سفناً صغيرة تشبه سفن الإسبانيين ، وكانوا يراقبون السواحل ويقومون بنوع من التجارة ، وفي نفس الوقت يحتجزون السفن الأسبانية ويقودونها إلى مدينة الجزائر . ولا تدوم هذه الجولات البحرية ، في العادة أكثر من خمسة أو ستة أيام . وعلى الرغم من أن قواد هذه السفن يجهلون فن الملاحة ، كما سبق أن ذكرنا ، فإنهم يعرفون أن الساحل الإسباني في الشمال والساحل الإفريقي في الجنوب ، وكانت قمم الجبال هي بوصلتهم التي تقودهم في سيرهم وتساعدهم على بلوغ المهدف .

(I) هي الصفة التي كان الغريبون يطلقونها على الجهاد البحري الذي كان يقوم به سكان شمال إفريقيا ضد الفراصنة من الأوروبيين وغيرهم .

ونظراً للنظام البحري الذي وضعته الإيالة ، وتشجيعاً للطامحين على امتحان هذه الحرفة ، كان هؤلاء البحارة يستطيعون الارتقاء حتى إلى درجة أميرال ويشاركون في المجالس التي تنظر في أمور السلم أو الحرب مع هذه الأمة أو تلك . وليس للداي ، في هذا المجلس ، أكثر من حقه في التصويت .

« وكيل الخرج هي التسمية التي نطلق على من يتولى وزارة البحرية . وتنحصر اختصاصاته في الجزائر ، في كونه محاسباً للعتاد الحربي في الإيالة ، ومراقباً لأشغال الترسانة .

وعندما تجلب الغنائم إلى مدينة الجزائر ، تباع للسكان وتوزع قيمتها حيناً على ذوي الحقوق . وتأخذ الخزينة العامة الخمس كنصيب لها ووفقاً لما تنص عليه شريعتنا ، على أن هذا الخمس لم يكن تاماً أبداً لأن الأشياء الثمينة كانت تؤخذ قبل الإلاعاء على الغنائم . وفي كثير من الأحيان تعلم الحكومة بذلك ولكنها تغض الطرف حتى لا تشغل هؤلاء البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للموت إما تعصباً للدين وإما رغبة في الحصول على الغنيمة .

وكانت حكومة الأتراك تعلم كل العلم أنها إذ تشجع السكان في إنجاز مشاريعهم هذه ، وتدفعهم في طريق الثروة ، إنما تعمل على إثراء نفسها . وعلى الرغم من أن العائدات كانت ضئيلة عندما تأسست الإيالة ، فإنها كانت تدرك بأنها إنما تعمل للمستقبل ، وإنها سوف تتمكن فيما بعد من أن تحييها بطريقة شرعية ، ثمار صناعتها وسياستها مثل رسوم الجمارك وغيرها .

وعندما تأسست الإيالة كانت الميليشيا تتكون من الأتراك وأبنائهم من النساء العربيات ، لأنهم كانوا يتزوجون من الأهالي .

ويتسم الأتراك بالقناعة والشرف والكرم . وبمجرد ما يحصل أحدهم على بعض المال يسافر إلى تركيا مسقط رأسه (2) ، فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم ، إذ ربما هو ابن لأحد العمال أو المزارعين . وعندما يعود إلى الجزائر حيث عائلته ، يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر ، وتحت ضمانته يقبلون في صفوف الميليشيا ثم يتولى بنفسه تدريبهم على الجندية وتعليمهم واجباتهم الجديدة . ويخبرهم بأن في استطاعتهم الارتقاء ، يوماً ، إلى أعلى مرتبة ، وفي إمكانهم ، على غرارهم وبعد آتاع الحرب ، أن يتمتعوا براحة طيبة ، ويعيشوا في هناك ورخاء في أوساط المجتمع ، وأن يتزوجوا بزوجاتهم من الأهالي ،

ومن النادر أن تجد سارقاً أو قاتلاً من بين هؤلاء الجنود . وقد كانوا شديد الخرص على احترام عادات البلاد ليحيبوا أنفسهم إلى سكان الإيالة . ومن كانت لهم بعض الماوي ، كانوا يعملون على إصلاحها أو يخفونها بدقة للأسباب التي ذكرتها ولأن مستقبلهم موقوف على حسن سيرتهم .

وبعد المشاركة في إحدى الحملات ، يستطيع الجندي التركي أن ينخرط في صفوف البحرية تدفعه إلى ذلك مصلحته الشخصية وتساوده تربيته والصدف في بعض الأحيان . وتشتمل هذه المهنة على إمكانيات كبيرة للهلاك ولاكتساب الثروات . فبعض البحارة يموتون أو يستعبدون ، وبعضهم يحصلون على الثروة والرتب . وفي الفصل الخاص بالفن العسكري سأذكر الدرجات التي يمكن لهم أن يبلغوها .

(2) لم تكن تركيا هي مسقط رأس جميع الانكشاريين ، وإنما استعمل حمدان ذلك تجاوزاً فقط .

وفي وقت من الأوقات ، رأى الداى نفسه مضطراً إلى بناء مسكن يقيم فيه خارج القصة ، وتشيد حصون لحماية المدينة ، وثكنات للجيش . وحتمت عليه مثل هذه المصاريف ألا يمنح الجندي الواحد سوى أجر مقداره ١٨ فرنكاً عن كل شهرين وأربع خبزات يومياً ، وللانقصاد ، كان هذا الخبز يحتوي على ثلثين من القمح وثلث من الشعير .

ويعطى للجندي ، عند انخراطه في السلك العسكري ، بذلة عادية وبندقية وطفان وقليل من البارود وقطعة من الرصاص بذيبها ويقولها بنفسه ، وبما أن الغنائم كانت معتبرة في ذلك الحين ، فإن هذه المؤن كافية بالنسبة للجندي الذي يستعد للمشاركة في حملة من الحملات .

أما الأجناد المتزوجون ، فإنهم يتنازلون عن الخبز عندما يرون أن خزينة الإيالة مثقلة بالديون ، ولما تجمع الحكومة ، فيما بعد ، مبالغ كافية تمنح لكل واحد منهم ، اعترافاً له بالجميل ، صاعاً قمحاً (3) أي ما يعادل حوالي مئة رطل في فرنسا .

يسكن الجنود أو الميليشيا التركية ، في الثكنات تحت إشراف قوادهم ، كل غرفة تحمل رقماً ، ويسير كل كتيبة ثلاثة قواد ، اسم الأول بولكباشي والثاني أوضاباشي والثالث باش بولداس . وعندما يتغيب أحدهم يستخلفه الآخر ويتولى تطبيق الانضباط . وكلما نظمت حملة أو وقع تغيير حامية تحم على بولكباشي أن يقود الكتيبة صحبة نائبه . وللهذين القائلين فقط حق ركوب الخيل حتى ولو كانت المسافة قصيرة ، كما أنهما يستطيعان اصطحاب الشواش . وللهؤلاء الجنود الأتراك قوانين عسكرية لا يتجاوزونها أبداً ،

(3) هذا غير صحيح لأن الصاع يزن حوالي قنطار وثلاثين كيلوغراماً .

ولا يحظى أحدهم بشيء ، ولا يتقدم في الرتبة إلا بعد مرور الوقت الذي يحدده القانون . ولكي يصبح الجندي قائداً يجب أن يقضي على الأقل ، عامين أو ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية ويجب أن يمر بجميع الدرجات .

والقواد برتبة بولكباشي هم الذين يكونون الديوان . وعدددهم في هذه الإيالة ستون ، يجتمعون صباح كل يوم في محل مخصص لمداولاتهم للاطلاع على الأعمال الإدارية أي لمراقبة الحكومة بمقتضى السلطات المخولة لهم بصفةهم حياة عليا تتكون من قواد الجيش .

ولا يحصل الداى أو الباشا على مرتبته إلا منهم وبحضورهم ، وحتى عندما يبعث الباب العالي بالقفطان والفرمان (4) ، فإنهم هم الذين يقومون بعملية الانتخاب ويعينون العامل لمبعوث الباب الذي يحمل تعيين من تم تعيينه بعد .

وعند كل يرم (5) تنظم الاحتفالات كالآتي : يعقد الاجتماع في قاعة ويتنصب الداى الحاكم وسط المجتمعين ثم تقترح إعادة انتخابه ، وبمجرد ما يتم ذلك تسلم له الإجازة ، وإذا ما وجد اختلاف في الآراء يبين آخر في مكانه .

ولا يمكن أن يصبح الإنسان عضواً في الديوان إلا إذا توفرت فيه الشروط التي ينص عليها القانون ؛ يجب أن يبرهن عن خبرة ومقدرة ، وأن يكون عمل في الجيوش البرية والبحرية ، ولذلك فإن جميع أعضاء الديوان تقريباً يكونون متقدمين في السن ومتزوجين من الأهالي . ويسمى رئيس

(4) كلمة فارسية تعني عهد السلطان للولاية . ويتضمن الفرمان عادة الأوامر والتوجيهات

(5) عيد النضر .

الديوان آغا العسكر ، ويحمل سيفاً ونوعاً من القرباب يضع فيه قوانين الإيالة . ولا يحق للآغا أبداً أن يتدخل عن هذا القرباب . كما أنه يركب حصاناً مديحاً ويتولى ، صباح كل يوم ، رئاسة الديوان كما ذكرنا ذلك . ولا تدفع أجور الجنود إلا بمحض هذا الرئيس . لأن خزينة الدولة ، في الجزائر ، لا تفتح إلا بحضور الخوجه أو موثق الدولة وبحضور لجنة خاصة يكون لكل عضو فيها مفتاح وكلما استدعي جاء لتقييد المدخولات والمخرجات . وإن الداي نفسه لا يستطيع التصرف في خزينة الأمة . وإنما يأتي كالجندي البسيط ليتقاضى مرتبه أو مخصصات الملك .

ومن اختصاصات رئيس الديوان تطبيق العدالة ، في منزله ، على الأتراك الذين يخولون بقواعد الانضباط أو يتعلون على القوانين ، كما أنه يقوم بنفس المهمة بالنسبة للكراغلة الذين هم أبناء الأتراك أو من سلاطنتهم .

وفي القضايا الخاصة بالعادات والقوانين العسكرية ، يتوجه رؤساء المحاكم الجنائية والتأديبية إلى القاضي لمعرفة رأيه ولتطبيق القوانين . وإذا كانت هناك عقوبة ، فإن رئيس الديوان هو الذي يأمر بتنفيذها في مقر الديوان حتى تعطى لقرار القاضي صبغة رسمية .

لا يمكن أن يدخل الأتراك أو من كان من نسلهم إلى أي سجن آخر غير سجن الديوان .

وفي حالات مختلفة ، يلجأ القاضي نفسه إلى الديوان لتنفيذ الأحكام لأن العسكريين لا يحاكمون أبداً بواسطة القوانين المدنية وإنما بواسطة القوانين العسكرية .

لا تدوم مهمة رئيس الديوان سوى شهرين ، ويتولى الرئاسة كل عضو

بالتناوب وحسب الأقدمية ، وإذا وجد خلاف يكون الفصل بأغلبية الأصوات . وعندما تؤول الرئاسة إلى أحد أعضاء الديوان ، يضاعف مرتبه . والديوان هو الذي يقرر في كل ما له علاقة بسياسة الإيالة الخارجية أو الداخلية . وإذا حدث أي اضطراب في الداخل كتمرد قبيلة أو انقطاع طريق ، فإن أعضاء الديوان يحققون في أمره ثم يعطون رأيهم فيما يخص الوسائل التي يجب استعمالها لإعادة الأمن .

وكما هو الشأن في فرنسا ، فإن القانون لا يتراف بالمعهر . وإنما ترجع لإباحته إلى عادات البلاد وأمن المجتمع ، والديوان ، دون القاضي ، هو الذي ينظر في جميع الخلافات التي تحدث في هذا الميدان .

وبما أن أبناء الأتراك ومن كان من نسلهم قد قبلوا ، في وقت من الأوقات لعضوية الديوان ، فإنني سأوضح فيما بعد الأسباب التي أدت إلى حرمانهم من التمتع بهذه العضوية .

الفصل العاشر

حوّل الدائم وحكومته ومختلف العادات

ليس للداي سلطة غير الأمر بتطبيق القوانين المدنية والعسكرية ، والإشراف على حصون المدينة وتنظيم الجيوش ومراسلة القبائل المختلفة قصد التهذبة والمحافظة على الأمن ، وقصد حماية تلك القبائل من سائر أنواع الظلم وذلك بأن يبرز لها منافع السلم ومساوىء الحرب .

إن المالية العمومية والتنظيم الضروري لإدارتها ، وكذلك تعيين الوزراء وغيرهم من أعضاء حاشيته تدخل أيضاً في جدلة اختصاصاته . ومن خلال النظام السياسي الذي وضعوه في الجزائر ، يحاول الأتراك ، بقدر المستطاع ، أن يتحالفوا مع البرابرة وأن يشجعوا الصناعة بجميع أنواعها . ولكل حرفة أمين أو مفتش ، ويسمى رئيس كل هؤلاء الأتماء شيخ البلدة أو والي المدينة . زيادة على ذلك يوجد في كل مدينة حاكم ثان يختار من بين الأسر الشريفة التي تنتمي إلى أحد المرابطين . ويسمى هذا الشخص نقيب الأشراف ، وواجبه كلما حدث أمر هام ، أن يجمع في بيته شيخ البلدة وسائر الأتماء التابعين له للبحث عن التدابير التي يجب اتخاذها .

فهؤلاء هم الذين ينظمون شؤون المدينة ، ويحافظون على الأمن في أوساط مختلف الطبقات العاملة ، ويراقبون الشرطة المحلية ، والنظافة والقنوات والمؤسسات العمومية والجمعيات الخيرية والمستشفيات ، الخ . . . وأخيراً ، فإنهم تلجأ السلطة في جميع الحالات . ومن قوانينهم أنه لا ينبغي أن يساهم جميع المواطنين ، بدون استثناء ، في تكوين الجيش ، لأن بعضهم يشتغل بصناعته أو يسهر على رعاية أسرته ، ومثل هؤلاء لا يطلب منهم القيام بما قد يعرقل أعمالهم أو يبعدهم عن واجباتهم ، وإنما يكونون ، فقط ، أجناداً متطوعين لحماية مناطقهم الخاصة إذا كانت هناك تعبئة عامة ، ومعنى ذلك أنهم ينخرطون في جيش لا يتقاضى أجراً ويمكن مقارنته بالحرس الوطني في فرنسا (1) .

وعندما وضع هذا التنظيم للإيالة ، كان الأتراك يريدون أن يساهم مواطنو الجزائر في الديوان الذي تكلمت عنه أعلاه ، غير أن هؤلاء المواطنين رفضوا حتى لا يكونوا مسؤولين أمام الحكومة ، وقالوا بأنهم يفضلون أن يكونوا وسطاء بين الحاكم ومكان الداخل ، ومراقبين لما يقوم به الحاكم أو أعوانه من أعمال ، أملاً منهم بأن سلوكهم هذا يجعل الأتراك يزدادون ارتباطاً بالإيالة ويرتاحون للثقة التي يولونها إياهم . أما الذين يصون إلى المسؤوليات ، فإنهم كانوا يقدسون القوانين ولا يخالفونها أبداً . وبما أن هناك جنوداً من الميليشيا يرتبطون بالأهالي عن طريق الزواج ويندمجون في المجتمع قبل بلوغهم درجة بولكباشي ، فإن الواجب يحتم عليهم قبل ارتقايتهم إلى

(1) نوع من الميليشيا ، أنشئ سنة 1789 من الطبقة البورجوازية وأنهى في عهد العودة . يظهر الوجود مرة أخرى سنة 1848 تحت اسم الحرس الوطني المتجول .

الديوان أن يتفحصوا عدة سنوات في دراسة الشؤون الإدارية والحكومية . والحصول على هذه العلوم الجديدة الضرورية لعضوية الديوان ، يجتمعون عند شيخ البلدة ونقيب الأشراف ، ذلك أن الديوان هو المجلس الأعلى للحكومة التركية المكلف بمراقبة جميع أعمالها .

وبواسطة هذا التنظيم الحكومي ، تمكن الأتراك من بسط نفوذهم في إفريقيا ، لأن غالبية سكان الإيالة ، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه ، مكونون من الأندلسيين ومن القبائل أو البرابرة الذين تمدنوا وغيروا أوضاعهم . وبنيهم الطرق الجديدة لحياة المدينة حدث التقارب بينهم وساعدت على ذلك مصالح الأسرة والمصالح الصناعية والتجارية .

وتأكدت الحكومة التركية من أن قوة القبائل لا تقهر ، وأيقنت أنها لن تتمكن من إخضاعهم بحمد السيف وإنما بالطاقة والتسامح والإرادة الحسنة التي أسفرت عن نتائج مرضية تتمثل في بقاء الحكومة مدة تزيد على ثلاثة قرون . وللباشا أو الداي نائب يحتفظ بمفتاح الخزينة ويسمى الكاهية . ومن جملة أعضاء الحكومة يوجد اثنان أحدهما يسمى وكيل الحرج ، وثانيهما يسمى الخزانجي ومن بين هؤلاء الأشخاص يختار الداي ، لأن الحكم ، في الجزائر ، ليس وراثياً ، إذ أن الاستحقاق الشخصي لا ينتقل إلى الأبطال . وبعبارة أوضح نستطيع القول بأن الجزائريين اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري (2) ، ورئيس الجمهورية هو الداي .

(2) هناك من يقول أن الجزائر كانت جمهورية عسكرية ، ويذكر آخرون أنها كانت ملكية . والواقع أنها لم تكن هذه ولا تلك ، وإنما كانت تحكم بنظام خاص لم يعرف في أي بلد آخر ، أهم ميزاته أنه كان يجمع بين الصبغة المدنية والعسكرية .

و بعد الوظائف التي ذكرناها تأتي مرتبة الآغا وهي درجة سامية، اذ هو الذي يقود وحدات الفرسان التي تتكون في معظمها من العرب أو القبائل. وعليه يتحتم على الآغا أن يتكلم العربية لينتمكن من إعطاء الأوامر وتسيير جيوشه.

وبعد الآغا يأتي خوجة الخيل الذي يشرف على الأملاك الوطنية، وتدخل في اختصاصاته، أيضا، إدارة الحارات (٣) والنصرف في الجمال المخصصة لنقل الجيوش والعتاد الحربي. وهو الذي يأمر بتوزيع هذه الخيول والجمال على مختلف قبائل الإيالة التي تتولى الاعتناء بها والمحافظة عليها، وذلك بعد أن تدمغ بخاتم الدولة. وإذا وقع حادث يؤدي بقطعة الجلد التي تحمل العلامة للتدليل على صوت الحيوان. ونتيجة لهذه الطريقة في العمل يحظى الحيوان بعناية وتمنح الثقة لتلك القبائل التي تجد منفعة في استعمال الحيوانات لقاء حاجتها.

و بالإضافة إلى ذلك تعمل هذه الوسيلة على تمكين الرباط بين القبائل ومصالح الحكومة. ويحدث في بعض الأحيان أن رعاة الخيل والجمال هؤلاء يحتاجون إلى دراهم فيبيعون صغارها. عندئذ يحدد خوجة الخيل سعر المبيعات بأثمان تكون دائما معتدلة، ولتسهيل الأمور على هؤلاء الرعاة، غالبا ما يعطيهم أجلا للدفع يتراوح ما بين عام وعامين. وكثيرا ما يقدر الحيوان المباع بثمن أقل من سعره الحقيقي، وذلك لشدهم إلى الدولة وللحصول على طاعتهم طوعا، وإقناعهم بعدل الحكومة إزاءهم وبالعناية التي توليها لإسعادهم.

(٣) الحارات جمع حارة وهي الزقاق تسكنه، عادة، عائلة واحدة أو عدة أسر من سلالة واحدة.

وهناك شخص آخر هو رئيس الكتبة ويسمى المقطجي (٤) وهو الذي يشرف على سجل محاسبات الدولة وسجل القوانين العسكرية الذي يحتوي على الأسماء والألقاب والدرجات المختلفة بالنسبة لكل فرد. ويوجد تحت تصرف هذا الكاتب الأول ثلاثة أشخاص مكلفين بالسجلات. يسهر أحدهم على المحاسبات الخاصة بالعسكريين وعلى كل ما يتعلق بهم، ويقوم الثاني بالمحاسبات العامة فيما يخص الدولة، أما الثالث فيعنى بسجلات الجمارك. وتنقل هذه السجلات الثلاثة على سجل رئيسي كبير، لأن كل واحد منها يعتبر كمجرد دفتر يقيد فيه بالضبط كل ما يجري لتجنب سائر أنواع الخطأ والسيان.

إن مهمة المقطجي أو الكاتب الأول لفي غاية من الأهمية. وتعتبر كمهنة شيخ الإسلام الذي هو المفتي الحنفي. ومن الواجب على هذا الكاتب الأول، الذي يستشير به العاهل في جميع الحالات، أن يعرف القوانين الأساسية والتاريخ وحقوق الإنسان حتى لا يقوم بأي عمل ضد القانون، كما أنه يحظى بلقب أفندي الذي لا يلقب به سوى الداي والمفتي. وعلى الرغم من أن رتبة الخزانجي مباحية لدرجات هؤلاء الأشخاص الثلاثة، فإنه لا يتمتع بهذا اللقب. وعندما يحضر أحد هذه الشخصيات الأربع يتحتم الوقوف على جميع القادة العسكريين الذين يكونون الديوان. وإذا كان الخزانجي يحظى من العامة بنوع من الاحترام فلأنه من الممكن أن يصبح دايًا في يوم من الأيام، ولذلك يتوددون إليه مسبقاً.

إن الحكومة التركية لم تتمكن أبداً من تأسيس إمبراطوريتها في إفريقيا إلا

(٤) ويقال له كذلك المكتوبجي. وقد كان والد حمدان مكتوبجياً.

بالعدل وبتطبيق النظام السياسي الذي انتهت الآن من وصفه . ومكانتي في مدينة الجزائر هي التي مكتني من أن أقدم هذه التفاصيل بدقة . لقد كان والذي مشرعاً وأستاذاً بالقانون ، كما أنه اشتغل مقطعي أو كاتباً أول ، وهو الذي علمني نظام الحكم التركي ، وفي عهده درست شريعتنا ثم اشتغلت بالتدريس بعد وفاته .

وفي أثناء رحلتي إلى أوروبا ، درست مبادئ الحرية الأوروبية التي تشكل أساس الحكم التمثيلي والجمهوري ، ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا قانوناً بسيطاً في التطبيق ، وعليه فكل من يدرك الشريعتين إدراكاً صحيحاً يستطيع الموافقة بينهما واعتقد أنه لن يتمكن من إنكار هذه الحقيقة . وهناك أحد المبادئ الأساسية في شريعتنا يقول « ترتب عن الزمن وحاجات الإنسان ظروف لم تنوقها القوانين ، ولذلك يجب على المشرع أن يفهم الضرورات ويعمل على إيجاد كيفية حكمية لتطبيق هذه القوانين » . لكن من سوء الحظ أن سائر الملوك يجولون مبادئ هذه القوانين ، مما يجعل أوروبا تنتقد تشريع الشرق .

ولو أن السادة المتحررين كانوا يعرفون مبادئ قوانيننا معرفة جيدة ويدركون مدى الحرية التي تتم بها مؤسساتنا ، لكان من الممكن أن نجد فيهم مساعدين بدلاً من أعداء كما هو الشأن الآن .

سأقدم ، فيما بعد بسطة عن شريعتنا وعن قواعدها الأساسية . وعلى الرغم من أنه ليس من اختصاص هذا الكتاب أن يعالج هذه المبادئ ، وما دمت أتحدث عن تاريخ الإيالة ، ونظام حكومة الأتراك وعن السياسة التي سلكوها للبقاء مدة طويلة ، فإنني أرى من المستحسن بل من الضروري أن

أعطي فكرة عن القوانين الشرقية . وأقول شرقية لأن هذه القوانين هي التي تدير شؤون جميع البلدان الإسلامية أو 130 مليوناً من المسلمين الذين يسكنون مختلف أنحاء المعمورة .

« وللرجوع إلى حكومة الأتراك ، أقول بأن الإدارة لا نطاق إلا إذا كانت عادلة . ولذلك فبمجرد ما تعلن مقاطعة عن خضوعها للقوانين ، كانت الحكومة التركية ترسل حماية تقي سكانها من كل هجوم ، ويقود الحماية ضابط برتبة بولكباشي يساعده أوضاباشي وباش يولدش . وهؤلاء الثلاثة يمثلون الديوان ، ويعتبرون قادة عسكريين وإداريين في نفس الوقت وعليهم أن يتفاهوا مع رؤساء المقاطعة لحماية المصالح المحلية والقيام بمهام الشرطة وتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الفلاحة والتجارة الخ . . . وتغير الحماية كل سنة . وكان الشيوخ الذين مارسوا هذه الوظائف يرددون ، دائماً ، للشبان ولخلفائهم : « إننا أجنب ، لم نخضع هذا الشعب ولم نمتلك البلد لا بالقوة ولا بحمد السيف . إننا لم نصبح سادة إلا بالاعتدال واللطافة !!! وفي بلادنا لم تكن رجال دولة ، وإنما حصلنا على ألقابنا ومراتبنا في هذه الأرض ، فهذه البلاد إذن وطن لنا . وأن واجبنا ومصلحتنا تتطلب منا أن نعمل على إسعاد هؤلاء السكان كما لو كنا نعمل من أجل أنفسنا .

« ومن واجبات الداي كذلك العمل على معرفة مشاعر سكان الإيالة ، وسلوك ولاته ، وعلى كيفية تطبيق العدالة . وأداء هذا الواجب يكون على الدوام موضوع المناقشة بين الديوان والداي كلما دعي المجلس للانعقاد ، وأن ارتباط المصالح والزواج من نساء جزائريات قد جعل من اختصاص أعضاء الديوان أن يتداولوا فيما يخص منافع البلاد وما يجري في الإدارة . وكانت

مجهوداتهم تهدف ، دائماً ، إلى تحقيق السعادة والأمن العموميين . وباختصار
لقد كانوا ينصرفون كأرباب أسر تجاه أبنائهم .

هذا ، وإن الأتراك - وأكرر ذلك - يبدوون جنوداً ، فيعرضون أنفسهم إلى
جميع المخاطر قصد الحصول على الأروة وعلى المسؤوليات . وعندما يتقدمون
في السن ينجحون إلى الراحة ويتقاضون تعويضات تتناسب مع خدماتهم ،
وعندئذ ، فقط ، يبلغون المراتب العليا ، ويستطيعون الارتقاء حتى إلى درجة
داي .

وعندما يموت الباشا ، يجتمع الديوان كما تنص على ذلك القوانين ،
ومن توفرت فيه جميع الشروط الضرورية يتم انتخابه ويعلن باشا ، ثم يجلس
حيناً على أريكة الملك بعد أن يكون قد ارتدى قفطان الداى الراحل . بعد
ذلك يؤدي اليمين القانونية ويحتفل بتعيينه . وعندما تنتهي عملية التنصيب
بكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم
وقيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد ، وهذه المناسبة تكتب رسالة تحمل
إمضاء وخاتم كل واحد من أعضاء الديوان وخاصة القاضي والمفتي ونقيب
الأشراف . ويوافق أعيان المدينة كذلك ، على هذا الاختيار ويشهدون على
مقدرة الشخص المعين .

ويسمى الرسول الذي يحمل هذه الرسالة آغا الهدية ، إذ أنه يحمل معه
هدية مكونة من بضعة جلود الأسود والنمرة ، وعدد من الأغصان الصوفية التي
تصنع في الجزائر . والغرض الرئيسي من الهدية ، التي لا تتجاوز قيمتها 5000
فرنك ، هو تقديم نموذج عن منتجات الإيالة الصناعية . وتوزع على السلطان
وأعضاء حاشيته الذين هم القبطان باشا والوزير ، الخ . . .

ويكلف هذا الرسول بأن يطلب شفاهياً ، من الباب العالي أن يعطف
على الإيالة ثم يطلعه على بؤس البلاد وقلة الأموال اللازمة لإقامة الحصون ،
ويطلب المساعدة والحماية . عندئذ يقدم الباب العالي للإيالة عتاداً حروبياً مثل
المدافع والبارود والحبال ، وأخشاب البناء إلى غير ذلك ، وفي بعض الأحيان
يزودها بيوأخر جاهزة .

وإذا استمر عهد الباشا أو الداى حوالي عشرين سنة ، فإن الأمر ينتهي
عادة ، إلى تجديد البعثة للحصول على قفطان جديد أو فرمان . وظلت هذه
التقاليد سارية المفعول إلى سنة 1770 .

وفي عهد محمد باشا ، سنة 1784 ، (كنت صغيراً آنذاك) صاحبت
شاهي الذي سافر إلى القسطنطينية مع آغا الهدية في ذلك الوقت . ويقال أن
الهدية ، في تلك الفترة ، كانت معتبرة ، ومع ذلك فأنا متأكد من أن قيمتها
لم تتجاوز 6000 فرنك .

وجاءت هذه السفارة بعد حملة الإسبانيين المشهورة عندما كانت الجزائر
في حاجة إلى بعض العتاد الحربي ، وبالفعل ، فإن الباب العالي قد زودها ،
بثلاث حمولات كاملة .

وبعد وفاة محمد باشا الذي خلفه مصطفى باشا (5) ، كانت الهدية التي
أرسلت إلى الباب العالي أكثر اعتباراً ، إذ تتضمن الماس والمجوهرات وأشياء

(5) غير صحيح ، لأن الذي تولى بعد محمد باشا هو باباحسن خال مصطفى باشا ،
وقد حكم من سنة 1792 إلى سنة 1798 . وعندما توفي ، نتيجة دمل في رجله ، خلفه
مصطفى .

أخرى مماثلة مما يتقبله الدايات من البلدان الأوروبية (6) . ويمكن تقييم هذه الهدية بمبلغ مليون من الفرنكات . وبالمقابل كانت عطية الباب أكثر أهمية إذ اشتملت حتى على بعض الحراقات . هذه هي المساعدة التي تقدمها الجزائر إلى الباب ، وهذا هو المقابل الذي تتلقاه بنورها من السلطان كإعانة للمحافظة على الإيالة التي تعد من جملة أملاكه .

ووفقاً لأحد قوانين حكومة الأتراك - عهدذاك - تأسست في الإيالة ، هيئة يسمى رئيسها التركي بيت المايجي ، يساعد هذا الرئيس قاض وموثقان وكاتباً ضبط ومسجلون .

تنزل هذه الهيئة مراقبة تركات جميع الأشخاص الذين يتوفون . والأولياء هم الذين يقدمون إليها المعلومات . ولا يمكن أن يقبر الميت إلا بأمر من رئيس هذه الهيئة التي تعين حقوق الورثة ، وإذا كانوا متغييبين ، فإن القاضي الخاص يقوم ، صحبة أحد المسؤولين السامين ، بتعيين وكيل يمثلهم ، وأوصياء بالنسبة للقاصرين . وإذا كانت هناك وصية ما ينفذ محتواها بعد تسجيلها والتأكد من صحتها . عندئذ يؤذن بحمل الميت ، في نعش ، إلى مثواه الأخير ، ويذهب الموثقان إلى محل سكناه بقميدان جميع الأشياء الموجودة فيه . وتنقل الأشياء الثمينة ، التي يخشى أن تضيع ، إلى مأمن حتى يجتمع الورثة أو غيرهم من ذوي الحقوق . وإذا كان الميت أجنبياً ، مجهولاً أو كان أهله متغييبين ، فإن هذه الهيئة تمثلهم ، فتبيع التركة بالمراد العلي وتحتفظ بالقيمة كوديعة مقدسة

(6) كانت جميع الدول الأوروبية وأمريكية تلحق إتاوة سنوية للإيالة وكذلك كثيراً من الهدايا الثمينة . وذلك لنحسب أساطيلها من هجمات الجزائريين .

بعد أن تخضع منها المصاريف التي يجب أن لا تتجاوز سبعة في المائة لتدفع أجور كاتب الضبط والموثق ومصاريف البيع العلني الخ . . . ويودع المبلغ في صندوق عمومي ، ويسجل مقداره في ثلاثة سجلات ، ولا يستطيع أحد أن يتصرف فيه إلا بإذن شرعي .

وإذا لم يترك الشخص المتوفى وارثاً حاضراً أو غائباً ، تحسم المصاريف المترتبة عن دفنه وتدفع ديونه إن كانت عليه ديون ، ثم تنفذ رغباته الأخيرة إذا كانت لا تتجاوز المقدار الذي ينص عليه الشرع . لأنه لا يملك التصرف إلا في ثلث أملاكه ، هذا حتى ولو ترك أقباء . أما الثلثان الباقيان فيضمان إلى الأملاك الوطنية . وتستعمل الأموال التي يحصل عليها هذا الصندوق العمومي في دفن الفقراء والأجانب الذين لا مأوى لهم ، وفي مساعدة المعوزين ودفع أجور الأساندة العموميين الذين ينفقون أوقاتهم في تنوير المجتمع وتزويده بالمعرفة . كما أنها تستعمل لمساعدة المؤلفين والطلبة المعدمين ، الخ . . .

وهناك من الأتراك من هو مرتبط أشد الارتباط بالإيالة . فنجد الكثير منهم لا يتزوجون عمداً ليتركوا ثرواتهم إلى بيت المال . ولهذا السبب كان دخل هذا الصندوق معتبراً في وقت من الأوقات .

وبمجرد ما تجمع خمسون ألف فرنك في هذا الصندوق تحول إلى الخزينة العامة نظراً لمصاريف الدولة المرتفعة ودخلها الضئيل . وقد ظل هذا هو الشأن إلى أن كان الغزو الفرنسي .

وتعتمد قوانين بيت المال على المبادئ الأساسية لشريعتنا ، وفي بعض الأحيان يستلزم صندوق من صندوق آخر دون أن يحدث أي خلل في النظام القائم .

وفي زمن الطاعون (7) كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق نشاط جميع الإدارات الأخرى، فهي التي تقوم بإحصاء الموتى وتعمل على تجنب الفوضى التي قد تنسب فيها كثرة الوفيات كما أنها هي التي تتولى التركات المهمة وتقوم بعمليات الميراث .. الخ .

وعندما كان الغزو الفرنسي استولى الفرنسيون على صندوق بيت المال الذي كان يحتوي على مبالغ هائلة (8) كما إنهم استولوا على الودائع الخاصة التي كانت فيها ، وبذلك صار الصندوق في عجز كبير .

وعلى أثر هذا الغزو ، ومنذ أن طرد الأغنياء ، صار دخل بيت المال في نقصان كبير ، وكيف يمكن لهذه الإدارة أن تسترجع دخلها العادي إذا كانت تركة الشخص الميت بالوقت الحاضر سواء كان له ورثة أم لا ، لا تكفي إلا لدفع مصاريف دفنه ؟ بل انني أعتقد جازماً أن رئيس بيت المال حالياً ، وهو جزائري ، يدفع أموالاً طائلة من عتده لدفن الفقراء كسبيل للصندوق مثلما تعود أن يفعلها سابقوه . ولكن الراجح هو أن هذا الرئيس انما يقصد بتصرفه عمل الخير لأن تصرفاته كانت دائماً هي تصرفات الإنسان السخي المحسن .

والملاحظة هو أنه لا يمكن التصرف في الأموال المودعة في خزانة بيت المال لأنها لأشخاص مختلفين من الخواص وفي عهد الأتراك كانت هذه المودعات

(7) آخر طاعون أصاب الجزائر المستقل هو ذلك الذي ظهر سنة 1817 ولم يخف إلا سنة 1822 . وقد قضى على حوالي مئتي ألف من سكان الإيالة .
(8) تقدر تلك المبالغ بحوالي مائة مليون من الفرنكات . ويقال إنها نقلت إلى لندن حيث تقاسمها لويس فليب وتاليران وبعض أروانها .

لعتبر دائماً من المقدمات التي لا تحس .

وكأحد سكان مدينة الجزائر العالمين بنشاط خزانة بيت المال ، أستطيع أن أوكد صحة كل ما قيل أعلاه .

وللأسباب التي ذكرتها ، فإن مدخولات مدينة الجزائر غير معتبرة ولكن أعمال الظلم لا يمكن أن يكون لها أثر خارج المدينة ، لأن السلطة الفرنسية لا تمتد إلى ما وراء الأسوار .

لكن لم يكن للحكومة التركية ، عندما أسست ، موارد كبرى حتى أن أحد الدايات أو الباشوات قد وجد نفسه مضطراً ، لدفع أجور الأجناد ، أن يقدم أشياء مختلفة مثل العتاد الحربي وغيره ، وبعيد شراهما عندما تتوفر الأموال في الخزانة .

وفي وقت من الأوقات ، كان خمس الغنائم المخصص للدولة لا يكفي لسد حاجات الإيالة اليومية ، الأمر الذي كان يجعل من الصعب إيجاد متطوع للحكم . ولقد حدث أن بقي العرش خالياً إلى أن رأى السلطان من الضروري إرسال أحد الباشوات بعد تقليده زمام الحكم . وكان هذا الشغور يدوم فترات مطويلة .

وعندما تحسنت أوضاع الخزانة ، وذلك الصعوبات ، توقف الجزائريون عن مطالبة القسطنطينية بتعيين القادة ورعي السلطان بذلك .

وعندما تم توحيد نلسان وقسطنطينية إلى باقي أجزاء الإيالة ، وجد باشا الجزائر نفسه مضطراً إلى تنظيم إدارة هاتين المقاطعتين الجديدتين . وبهذا الصدد أرسل بايا أو والياً إلى قسطنطينية وآخر إلى معسكر .

أما وهران ، التي هي مقر الباي ، فإنها كانت تابعة للاسبانيين في ذلك الوقت . ولم يخرج من قبضتهم إلا مؤخراً ، كما أوضحنا ذلك سابقاً .

وفي نفس الوقت تم تعيين باي في المدينة وهي أهم مدينة في مقاطعة الشبطني . وفيما يلي قانون هؤلاء البايات :

تأتي هذه المرتبة بعد درجة الآغا الذي ذكرنا اختصاصاته أعلاه . وعلى كل واحد من هؤلاء البايات أن يؤمّ مدينة الجزائر بخبر عن إدارته ، ويقدم بنفسه فائض المدخولات ، وذلك لأنه يخصم منها كل ما هو ضروري لموظفيه ولفرسانه ورجال المدفعية بحيث يكون المبلغ الذي يدفعه إلى الخزينة العمومية كل ثلاث سنوات مساوياً لشئ مدخولاته .

حدود كل مقاطعة مضبوطة ، وكل باي مسؤول عن إدارته وعن الحدود .

إن الأجزاء التي توجد بها أملاك وطنية تخضع في إدارتها وتسييرها لخوجة الحبل . أما الأراضي الكائنة في ضواحي مدينة الجزائر ، والتي لا تدخل في ممتلكات الدولة ولا في مقاطعة من مقاطعات البايات الثلاثة ، فإنها تكون تحت تصرف الآغا (9) .

وعندما يموت الباي ، فإن الواجب يقضي بأن يكون خليفته صهراً لشيوخ العرب ومطلقاً كل الاطلاع على العادات والتقاليد . أما تركة الباي المتوفى فتعود لورثته ، باستثناء العتاد الحربي وكل ما له صاغة بالإدارة التي كان مكلفاً بها ، إذ أن هذه الأشياء ترك في المسكن تحت تصرف الباي الجديد

(9) هو رئيس القوات المسلحة .

حتى لا يكون مضطراً لشرائها أو للمطالبة بالأموال اللازمة لذلك ، وهكذا يجد الباي الجديد مورداً هو بداية ثروته .

وقد جرت العادة أن يرسل الباشا لكل باي حامية في كل سنة مرة .

وبما أن سكان مقاطعة الشبطني فقراء وقليلو العدد ، فإن الحامية لا تبقى عندهم إلا شهرين ثم ترجع إلى مدينة الجزائر . وفي معسكر ، في الجزء الغربي ، تبقى الحامية أربعة أشهر ، وأما في قسنطينة التي تشكل شرق البلاد ، فإنها تبقى ستة أشهر .

وإذا أراد أحد الجنود ، في حامية ما ، أن يقيم في المقاطعة إلى أن تعود الحامية المقسلة ، فإنه يحصل على الإذن بكل سهولة . وإن الكثير من أعضاء الميليشيا يفضلون السقاء في المقاطعات على العودة إلى مدينة الجزائر : 1 - لأن مرتباتهم تنضاعف أثناء غيابهم ، وأدخارهم يتزايد لأن حياة المدينة أغلى من حياة الريف . 2 - لأن الباي الذي يبقون معه يقدم لهم العطايا والمنح .

وفي أثناء السير تطعم الجيوش بالبرغل ، أي بالقمح ، يقلب ثم يرحى ويغريل لتتنزع منه النخالة فيصبح نوعاً من البسيسة . ويحتفظ بهذا القمح المطحون عاماً كاملاً ، ويحضر ويطبخ تماماً مثل البيلو (أكلة تركية شائعة في فرنسا) . ويحضر بالزبدة فقط . ولا يأكل الجنود اللحم إلا مرة في الأسبوع . ولذلك يفضلون في الشتاء حياة الحامية في المقاطعات على البقاء في مدينة الجزائر وعلى حياة القرصنة .

تتكون حامية قسنطينة من 100 خيمة ، وحامية معسكر من 60 وحامية المدينة من 40 وتاوي كل خيمة 30 جندياً يقودهم ضابط برتبة بولكباشي

وآخر بدرجة أوضاباشي وثالث يسمى باش يولدش . وفي كل واحدة من هذه الخيام محافظ للمؤونة يحرس المعاش والطبخ ويسمى الطباخ . ويساعده في مهمته عامل يسمى الصاغا ، يكلف بحلب المياه من مختلف الآبار وتوزيعها على الجيوش .

ولكل خيمة ، بالإضافة إلى ذلك ، خادم يتولى جمع المتاع ونقله على الجمال من مكان لآخر . وهؤلاء الأشخاص الخمسة الذين ذكرتهم يركبون الخيل ، أما الباقي فيمشون ورجلين ويحمل كل واحد سلاحه . ويشرف على كل معسكر قائد يسمى آغا المحل ، ويختار عادة من بين الضباط الذين لهم رتبة بولكباشي ، بحيث لا يمكن التقدم في الدرجة إلا بقدر ما تكون الوفيات كما ينص على ذلك قانون الميليشيا في الجزائر .

ويصطحب هذا الآغا شاموشاً من ديوان الجزائر يعهد إليه بنقل أوامره .

وعندما يقوم البايات بحولات في كامل أنحاء مقاطعتهم لجميع الضرائب ، فإنهم يصطحبون معهم الحامية التركية ، وعندئذ يكلف الشاوش بنقل تعليمات الباي إلى الآغا . فعندما يشير الباي بتبديل المكان ، يقوم الآغا بنقل أوامره إلى الأوضاباشوات الذين ينقلونها بدورهم إلى من هم أدنى منهم درجة ، بحيث تتخذ جميع الإجراءات في رمشة عين .

وبحسب الموقع الذي يكون فيه المركز ، يجب أن تقام خيمة الباي وسط الجيوش محاطة بهالة من الفرسان هي نفسها مطوقة بدائرة من المشاة ، ولا يترك سوى ممر يقود إلى وسط المركز ، وعلى حافتي هذا الممر تقام خيمة كبيرة نجد فيها المستشفى والصيدلية والمقهى ، وأخرى يقيم فيها آغا المحل . وأمام

هذه الأخيرة تنصب الأعلام من جهة ، والمدافع والمدفعيون والعتاد الحربي من جهة أخرى .

وعندما يريد الباشا عزل أحد البايات ، يرسل تلميحاته إلى آغا المركز أو آغا الحامية ، بحسب المكان الذي يكون فيه الباي ، فيضع حداً لسلطته ويلقي عليه القبض في بعض الأحيان إلى أن يأتي خلفه ، وذلك مخافة أن يهرب ، الأمر الذي قد يؤدي إلى وقوع الاضطرابات في البلاد .

كان البايات لا يعزلون إلا نادراً ، في الأيام الأولى من عهد الأتراك . وعندما أصبح الباشوات والدايات جشعين يحررون وراء الثروة كثرت التبديلات والتغييرات التي كانت مضرّة بالنسبة للشعب وللحكومة على السواء .

وكان من عادة الباشوات القديمة القيام بحولة ريعية في كل سنة . ويرافق الباشا في هذه الحولة ديوانه الخاص الذي يشكل الحاشية ، وكذلك أعضاء ديوانه الأعظم ما عدا آغا اليولدش الكبير ونائبه اللذين يجب أن يبقيا في المدينة . ويتبع الباشا ، أيضاً ، القواد والسناجق وفرقة موسيقية كاملة وعدد من الشخصيات الأخرى . وعلى بعد حوالي نصف ساعة من مدينة الجزائر ، بجوار حديقة مصطفى باشا ، يوجد مكان في موقع حسن وله منظر جميل ، تقام فيه خيمة رائعة لاستقبال الباشا وحاشيته . وعندما يصل الباشا يدور المركب دورة حول هذه الخيمة قبل النزول ، ثم يقفز الفرسان إلى الأرض ويدخلون خيمة الداي حيث يجدون طاولة مجهزة بأنواع المبردات والحلويات والمرطبات ، الخ . . . وبعد أكل خفيف تقام صلاة يعقبها ابتهاج إلى الله ليحفظ السلطان ويرفع عدد العرب ويسعدهم وينوي إيمانهم في حدود معينة حتى لا يتفاسموا الحكم مع الأتراك . وبعد هذه الحفلة يرجع أعضاء الديوان

الأعظم وغيرهم من الشخصيات الأخرى إلى مدينة الجزائر ، ولا يبقى في الخيمة إلا الباشا وحاشيته لتسوية قضايا البلاد . ويفتح القطاعي السجل ليعين الجنود الذين سيعينون للقيام بالحملات ولتكوين الحاميات الضرورية لمختلف الجهات . ثم ترتب المعسكرات وتنظم ، وتعين الوحدات التي ستقوم بالعمليات البرية ، وفي الحين تعطى الأوامر لإقامة الخيام ولتموين الجيوش ، الخ . . .

يبدأ الاعتناء بالجيوش التي توجه إلى مستغانم ، ثم تجهز جيوش التيطري وتبقى حامية قسنطينة هي الأخيرة ، وكل هذه الحاميات يجب أن ترسل في الأيام الأولى من فصل الصيف . وعندما تم جميع هذه الإجراءات ، يعود الباشا إلى مدينة الجزائر . ولكنه بمرور الزمن ، أهمل الدايات هذه الحفلة وصاروا لا يقيمونها بالكيفية التي وصفناها ، وإنما أصبحت العادة شكلية فقط ، أي أن الخيمة ظلت تنام في المكان المعين ويقصدها الديوان في اليوم الموعود كما لو كان يذهب إلى نزهة ، وبدلاً من أن يترك الداي وحاشيته في الخيمة ، صار يترك فيها أحد الحراس فقط .

الفصل الحادي عشر

تحديد رسوم الأرض وطريقة جمع الضرائب

وفقاً لشريعتنا ، ترتب الأرض على النحو التالي : إذا كانت البلاد ملكاً للمسلمين بمقتضى الفتح وبعد السيف ، وإذا كان سكانها القدماء قد بقوا فيها بعد تفاهم مع الفاتحين ، فإن أراضيها تسمى خراجاً وهي كلمة تسمى أن الحكومة لن تطلب أكثر من المبلغ المفق عليه حتى ولو انتقلت تلك الأراضي من مالك لآخر على شرط أن تحترم الالتزامات المنصوص عليها في بداية الأمر . وعندما يعتنق مالكو الأراضي الإسلام طواعية ، فإنها تسمى عندئذ ، حكراً .

وعلى هذا النوع من الأراضي يزخذ العشر أو الجزء العاشر من الإنتاج . وتوضع مقادير تلك الأعشار في صناديق الخزينة لدفع مرائب الجيش وللاعتناء بالفقراء ولتربية الأيتام ودفع أجور القضاة الخ... وحتى إذا لم تطلب الحكومة بهذه الأعشار ، فإن كل واحد منا مجبر ، حسبما يقتضيه ديننا ، على أن يضعها جانباً ويوزعها وفقاً للطريقة المذكورة ، ولا يستطيع أي أحد أن يستحوذ على تلك القسمة كما سبق أن أشرنا لذلك .

وتسرع القوانين للعادل ان يتفادهم مع الشعب حول تلك الأعشار ،
واستبدالها بمبالغ معينة . وأراضي الجزائر كلها من هذا الصنف الثاني .

وعندما علم الأتراك ان جباة الضرائب يقومون بتجاوزات ، أي ان
الدولة لم تكن تقبض بالضبط جميع المبالغ التي تعود لها ، أو ان الجباة كانوا
يجمعون أكثر من اللازم ، عندئذ أوجدوا وسيلة تمنع تلك التجاوزات
التي كانت تثبط الفلاحين وتوقهم .

لقد فرض على كل محراث يحرقه ثوران حمولة بعير من القمح وأخرى
من الشعير : وعندهما يأتي السكان بمقادير رسومهم ، فان القابض يسلمهم
مقابل ذلك وصلاً .

ان القائد في كل قبيلة يجبر على إحصاء عدد الفلاحين المالكين للمحاريث ،
وبعد ذلك يسلم نسخة صحيحة للقابض الذي يجمع الضرائب حسب ذلك
الإحصاء ، ويغطي الإيصالات لكل فرد ، ويتفقد الكميات المقبوضة من
الحبوب ليتمكن من محاسبة القابض الرئيسي في الدولة . ولكن عندما يثبت
ان الأراضي لم تنتج شيئاً ، فان المزارعين يعفون من تلك الضرائب .

يتعمل . في العادة لزراعة ما ينطويه محراث واحد حوالي ست حمولات
من القمح وأربع من الشعير .

لقد سبق ان تعرضنا لاستعمال هذه الضرائب ، ولكن الشعب يعتقد
كذلك ، انه عندما يدفع ما عليه يصيح من الواجب على الحكومة ان تحميه ،
وان تؤمن الطرقات وتحرسها ، وأن يكون الملك متديناً بدينه .

وحسب قانوننا ، فإذا قام مفتصب أو ملك لا يتدين بنفس الدين ،

واستحوذ على الضرائب التي ينص عليها ذلك القانون ، فان الفلاح يبقى
في عين الشرع ، مطالباً بأداء واجبه الذي لا يكون إلا عشر الكمية الباقية
له بعد الإغتصاب .

وحسب هذا القانون الشائع في افريقيا ، فاني أعجب للدوق دوروفيكو
الذي اشترط ، بإيعاز من اليهود والأشرار ، ان تدفع نتيجة العشر وسكانها
أفقر الناس وأكثرهم بؤساً .

ومع ذلك ، فان الولاة الفرنسيين كانوا قد نشروا بياناً يعلنون فيه لسكان
الايالة انهم يلغون جميع أنواع الضرائب ، وان الحكومة تنتازل عن هذه
الأنواع من الموارد .

وبقطع النظر عن هذا الوعد ، فان الحكومة الفرنسية لا تستطيع ان
تجمع الضرائب بكيفية شرعية ما لم تؤمن الطرق ، وما دام البلد مضطرباً ،
فعليها ان تبدأ بالحفاظ على الأمن وحمايته من كل هجوم تقوم به القبائل
المعارضة والمعادية .

وخلاصة القول ، فان كل ما يمكن ان يعطى للحكومة الفرنسية التي لا
تتدين بنفس دين هذا الشعب ، لا يعتبر إلا من قبيل التعسف ، ويبقى السكان
- في عين الشرع - مطالبين بأداء واجبهم . ويترتب عن هذه الأوضاع ،
كذلك ، ان قبائل الداخل ، عندما تعلم بأن الضرائب دفعت للفرنسيين ،
ستحارب أولئك الذين دفعوها وتتهمهم بأنهم خضعوا لمن هم أعداء الايالة
بأكملها .

لقد كانت الضرائب تدفع على النحو الذي ذكرناه إلى أن كان الغزو الفرنسي . واليوم ، وبما أن هذا الشعب لا يعرف ملكاً شرعياً ولا ظاهراً في البلاد ، فإن كل مالك سيوزع أعشاره بنفسه على الفقراء .

وليكسب ثقة هذا الشعب ، فإن باي قسنطينة ، بدلاً من أن يشترط حمولة بعبر من القمح وأخرى من الشعير عن كل محراث ، فقد اكتفى بأن يقبض مكان ذلك مبلغ 15 فرنكاً ، كما أنه اقتصرت للفلاحين ، مقابل سبعة وعشرين فرنكاً ، كل ما يمكن أن يغطيه طوال السنة محراث بحره ثوران .

يقوم القادة أو جباة الضرائب بالإحصاء عندما تجمع المحاصيل . وقد يحدث في كثير من الأحيان ، أن هؤلاء الجباة يبقون لأنفسهم جزءاً من الضرائب ، ويتركون منها جزءاً آخر للفلاحين ؛ فيترتب عن ذلك أن الدولة لا تقبض جميع مدخولاتها . وعلى الرغم من أن الباي كان على علم بوقوع مثل ذلك التفاهم ، فإنه كان يغمض عينيه لكي لا يشبط عزائم الفلاحين وليكسب الشعب حوله ويبين اعتداله .

أما عن مقاطعة الغرب ، فلأنني أجهل وضعها الحالي ، ولا أعرف شيئاً عن فلاحيتها ولا عمن تدفع إليه الضرائب .

إن مقاطعة التيطري فقيرة ، خاصة بعد الزيارة التي أداها لها الجنرال كلوزيل . ويعتبر جميع البدو والقبائل أن سكان التيطري من أعدائهم لأنهم لم يبدون العداوة للفرنسيين . ويتهمونهم بالتفاهم معهم وبأنهم لم يخبروهم بوصول الجيش الفرنسي ، ولو فعلوا لوفروا لهم الوقت الكافي لاتخاذ التدابير

والدفاع عن أنفسهم . ومن هنا ينحتم على جميع القبائل أو كل من يخضع للفرنسيين أن يكون يقيلاً لتجنب سحق القبائل .

وعندما نرى سلوك الولاة في إفريقيا ، نحيل إلى الاعتقاد بأنهم إنما ينشرون الخلاف والشقاق من أجل التوضحية بالشعب الجزائري .

الفصل الثاني عشر

عن انحطاط حكومة الأتراك وسقوطها

بعد أن ثبتت حكومة الأتراك أقدامها في هذا البلد ، ووسعت سلطانها المتمثل في الحصول على طاعة هذا الشعب ، كان من أسباب انحطاطها إرسال مندوبين إلى أزمير يجمعون الأجناد . وبدلاً من أن يتبع هؤلاء المندوبون الطريقة القديمة التي لم تكن تسمح بأن يجند في الميليشيا إلاّ الرجال التزاماء الذين لهم جاه ومكانة ، فإنهم كانوا يفتحون أبواب الميليشيا لأي كان حتى لأناس كانوا قد أدبوا أو أدينوا . وكان يوجد من بين المجندين يهود ويونانيون ختنوا أنفسهم . وكما أن حبة فاسدة تكفي لإفساد كوم كامل من القمح ، فإن رجلاً فاسد الأخلاق يكفي لجلب الشر على جميع الذين يخالطهم ويحيطون به .

وهكذا ، صارت تلك الميليشيا المسلحة التي لا مبدأ لها ، صارت ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل . ثم قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثورات وقلب قادة الدولة بحسب هواهم .

وكان أول ضحاياهم الملكية هو الداي مصطفى باشا ، والد سيدي إبراهيم الذي كان موجوداً بباريس قبل مدة قصيرة . لقد جهل الثائرون على رأسهم المسمى أحمد خوجه الذي دبّر المؤامرة والذي كان دفتردار معزولاً . إنه هو الذي كان سبباً في موت ذلك الداي عندما أمر بالاعتقال في كل مكان ؟ لم نعد نبي حكومة مصطفى باشا ! واستجابة لتلك الهتافات تجمعت الميليشيا ، فحطمت عظمة الداي مصطفى وقتلته دون أن يكون قد ارتكب أدنى خطأ (1) .

أما السكان ، فلمهم لا يشغلون أبداً في مثل هذه القضايا ، ويخضعون لمن يختاره الديوان ملكاً عليهم .

إن الجريمة السياسية تؤدي دائماً إلى جرائم أخرى تتبعها : لقد عامل هؤلاء المتهيجون بعنف ووحشية معظم أعضاء حاشية الداي وأهم أنصاره واستولوا أحمد خوجه على الحكم (2) .

لقد ارتكب هذا الرجل ، أثناء ولايته ، عدداً من الجرائم . ولكافأة الميليشيا رفع أجور أفرادها . ولكنه عزل وقتل البايات للاستيلاء على أملاكهم وثرواتهم . وكانت الشخصيات المحيطة به والمكونة لحكومته تنقصها المهارة ولا تملك الوسائل ، إذ لم تكن تعرف حتى تقاليد العرب ولم تكن لها أية علاقة بمختلف الشيوخ . وفي تلك الفترة ، لم يكن على الذي يريد أن يصبح باياً إلا

(1) لقد ارتكب مصطفى أخطاء كثيرة ، أهمها والذي قتل من أجله هو إعطائه لليهودي يوجناح سلطة مطلقة ، يتصرف في الإيالة كيفما يشاء ، حتى أن المؤرخين الغربيين كانوا يسمونه ملك الجزائر .

(2) هو أحمد بن علي الذي جابه تمرد ابن الأحرش في بابل الشوق ، وأحمد تمردات أخرى في تلمسان واورم . وقد مات في إحدى المعارك سنة 1806 بعد أن حكم عاماً واحداً .

أن يشج لأقارب أحمد باشا ويمدهم بالأموال . لقد كانت تلك المناصب تباع وتشترى ، وهو أمر كان يلائم رجال الحكم الذين كان ظلمهم يتجاوز القانون . ودام هذا الوضع إلى أن كانت الحادثة التي تعرضت لها مدينة قسنطينة التي كان باي تونس يريد استرجاعها . سأوري ، فيما بعد وفي فصل آخر ، تفاصيل تلك الأحداث وكذلك تفاصيل الحملة التي قام بها أحمد باشا ضد تونس .

وبعد ثلاث سنوات من الحكم تعرض أحمد باشا بدوره إلى مؤامرة تهدف إلى قلبه . وكان على رأس الميليشيا مجهول يدعى علي خوجه الذي استطاع أن يدفع الميليشيا لاستبدال أحمد بعد أن فضح التجاوزات التي قام بها وكذلك الأعمال الوحشية والإعدامات التي سلطها على معظم أعيان الأتراك . لقد قتل أحمد مصطفى باشا فكان له نفس المصير . وبعده تولى الحكم علي باشا ، ولم يكن هذا الملك إلا آلة في خدمة الأتراك ، يستعملونها لتنفيذ مشاريعهم ، لأنه كان عاجزاً عن الحكم وعن فرض طاعته . وبعد ذلك بفترة وجيزة (3) قتل ختلاً واستبدل بالحاج علي باشا (4) . ولقد برهن هذا الأخير على نوع من الكفاءة ولكنه كان سفاحاً ، فقتل كثيراً من العرب وبعض أعيان البلاد دون أن يرتكبوا أية جريمة .

(3) لقد حكم الجزائر ثلاثة دايات في الفترة ما بين 1806 و 1815 . وكل واحد منهم كان يسمى علياً ، ولذلك اختلط الأمر على حمدان . والصحيح أن قاتل أحمد باشا بقي في الحكم إلى غاية سنة 1808 . وقد قتل علي خوجه غسول والذي خلفه الذي ظل يحكم البلاد إلى أن قتل ختلاً سنة 1809 .

(4) هو الذي خلف علي غسول سنة 1809 ، وظل في الحكم إلى سنة 1815 . وقد قتل في حرب وقعت ضد تونس .

وخلال ولايته ، كاد الحظ ان يكون دائماً إلى جانبه ، ومع ذلك لم يتمكن ، بالرغم من مجهوداته ، من غزو مملكة تونس التي كان يريد السيطرة عليها . سأنتكلم عن هذه الحملة فيما بعد .

كان الحاج ، بعد أن استولى على زمام الحكم في الجزائر ، يشعر بتفوق كبير في العلوم والمعرفة ، ولذلك احتقر وزراءه وآراءهم ، وعندما أمين هؤلاء الأخيرون وملأ الرعب قلوبهم وضعوا مشروعاً يهدف إلى التخلص منه . وهكذا فلما ذهب يستحم ، ذات يوم ، قام الشخص المكلف بإعداد الحمام على الطريقة الشرقية - وكان من المتأمرين - بفتح الأبواب غلقاً محكماً ثم ضاعف النيران بكيفية عنيفة إلى أن اختنق الحاج باشا بالبخار بدون ضجيج ولا هرج ، واستبدل بخزناجه المسمى الحاج محمد باشا (5) . ويعتبر هذا الأخير نموذجاً حقيقياً للأثراك القدماء ، إذ كان رجلاً فاضلاً ، وكان من الممكن أن يحكم مدة أطول لو لم يتعرض لخيانة آغاه المسمى عمر (6) .

وكغيره ، ضحى عمر هذا بالحاج محمد باشا بعد أن تفاهم مع الميليشيا على أن تعطى له الولاية . وكان عمر ، أيضاً ، سفاحاً ! وكانت الظروف تكاد تكون دائماً غير مؤاتية له ، وهذا الداي هو الذي أبرم مع اللورد آكسماوث ، سنة 1816 ، معاهدة بعد أن قام بقبلة المدينة . وقد ساهم هذا الحادث مساهمة كبرى في سقوط عمر .

(5) عين في مكان الحاج علي ولكنه قتل في نفس اليوم من طرف خليفته كما ذكر حمدان .

(6) حكم من سنة 1815 إلى سنة 1817 . وقد قتل خفياً . وفي عهده تعرضت الجزائر لحملة آكسماوث 1816 ، وإلى الطاعون الذي قضى على عدد كبير من سكان الإيالة .

وقام علي (7) ، وهو رجل مجهول ومعتوه ، فاعتنم هذه الفرصة وجمع الجيوش ثم استولى على مقاليد الحكم في الجزائر .

وعندما تولى الحكم ، قام الداي علي هذا بثورة شاملة في نظم الإيالة القديمة . كما أنه ارتكب عدداً من الجرائم ونفى كثيراً من الناس . وذات يوم ، أمر سكان مدينة الجزائر أن يلقوا أبوابهم في ساعة مبكرة ، وأمر كذلك بفتح الثكنات ، ثم جمع عدداً كبيراً من البغال حمل عليها ، ليلاً ، جميع كنوز الجزائر التي كانت في محلات الباشا القديم ، ونقلها إلى القصبية التي انتقل إليها مصحوباً بالجيوش يحافظ على شخصه ، وفي الصباح أعلن عن هذا التغيير بطلاقات مدفعية .

وخلال مدة ولايته التي لم تدم سوى ستة أشهر ، ساءت أحوال الدولة إلى أقصى درجة . وأثناء نقل الثروات إلى القصبية ، وقع كثير من النهب قام به وزراءه وأعضاء حاشيته . وقد مات علي بالطاعون في مقر إقامته بالحديد ، ولو أنه عاش لتسبب في خراب الإيالة ما في ذلك شك . وكان أعداؤه الذين كان يضطهدهم هم أنصار عمر باشا . ولم ينبج من هؤلاء الأنصار سوى حسين خوجة الذي عينه خزناجياً ، وفيما بعد رفعه إلى مرتبة خوجة الخيل . وقد دهش الجميع عندما رأوا أن حسين الذي كان من المقربين لعمر ، يحظى بمثل تلك التقديرات من علي باشا . وحقيقة فإن حسين - من بين

(7) هو علي بورصالي ، تولى الحكم سنة 1817 ، وعلى عكس ما يقول حمدان ، فإن الرجل كان نقياً ورعاً : حارب العهر والفساد وأراد أن يعطي الدولة طابعاً آخر ، إذ تخلص من الميليشيا وراح يعمل على إشراك الأهالي في الحكم وانتقاله إلى القصبية دليل على ذلك .

الشخصيات التي كانت تحيط بذلك الداي - هو الوحيد الذي كان قريباً
وذا أخلاق فاضلة ، أما الآخرون ، فأنهم لم يكونوا سوى مغامرین . وعندما
توفي علي باشا هذا ، اجتمع الديوان لاختيار الملك ، فوقع اختياره على حسين
الذي كان آخر باشوات الأتراك قبل الغزو الفرنسي .

ولقد ارتكب الأتراك خطأ فادحاً عندما تركوا السلطة المطلقة بين أيدي
الباشوات ، لأن ذلك جرد الديوان من كل قوة وسلطان وجعله كلاً شيئاً ،
في حين أنه أنشئ لمراقبة أعمال الباشوات ومساعدة الحكومة عن طريق
تزويدها بالنصائح . ولم يعد يطلب من أعيان البلاد آراؤهم ، كما ان أهم
المناصب في الدولة والوزارات ووظيفة خوجة الخليل لم تعد تعطى إلا للأتراك
لأن الكراغلة طردوا من الحكم على الرغم من أنهم كانوا فروعاً لهؤلاء
الأتراك أنفسهم .

وفيما يخص الكراغلة ، سأروي حادثة تاريخية كانت هي السبب في إبعادهم :
ففي حوالي سنة 1630 ، وللاستيلاء على الحكم ، وضع أفراد تلك الطبقة
مشروعاً يهدف إلى طرد الأتراك (آبائهم وأجدادهم) الذين كانوا يحكمون
البلاد . ولهذا الغرض اجتمعوا في حصن الامبراطور . وعندما علم الأتراك
بهذه المناورة فكروا ، لإحباط المشروع ، في ان يلبسوا عدداً من العمال
الذين يدعون بني ميزاب ملابس نسائية ، ولما تذر هؤلاء بالملاحف أخذوا
أسلحتهم والدخيرة في شكل متاع مستورد ، ثم تقدموا إلى مدخل الحصن
وكانهم نساء هربن من جور الأتراك . وبمجرد ما دخل أولئك الرجال
الحصن وهم تحت ذلك القناع ، هاجموا المتمردين بمساعدة فوج كان
ينبهم عن كذب ، فأخضعوهم وأحبطوا مشاريعهم . وعلى اثر هذا الحادث ،

وبما ان الأتراك لم يكونوا قادرين على ان يطردوا ذريتهم من البلاد ، فأنهم
قرروا فقط ، عدم السماح للكراغلة بشغل المناصب السامية . وقد عزل
كل من كان يشغل منهم وظيفة حساسة في ذلك الحين . وهكذا ، اذن ،
فان كل كراغلي يصل إلى المرتبة السابعة ، كان يعزل ، وبهذه الكيفية لم
يكن لأي واحد منهم ان يشغل في البلاط .

وان الترجمان الذي هو مترجم البلاط ، أو أمين اللغات الأجنبية (وهي
وظيفة هامة جداً) وكتاب الدولة ، كلهم كانوا يختارون من بين العرب لا
من الكراغلة . كما ان مراقب المؤسسات البحرية التابعة لأملاك مكة والمدينة ،
كان يعين من بين العرب .

وقد استمر هذا الحقد من الأتراك على أقلاذ أكبادهم مدة قرنين تقريباً .
وهؤلاء الكراغلة كثيرو العدد ، وموزعون على كامل أنحاء الإيالة ، وخاصة
في المكان المسمى وادي الزيتون الواقع في سفح جبل فليسه ، ويعتقد أنه
يوجد منهم في هذا المكان وحده ما بين 8 و 10 آلاف محارب . ومعظمهم
كان يأخذ أجراً من الدولة ، وعلى الرغم من إبعادهم ، فأنهم ظلوا يتفاوضون
رواتبهم خوفاً من إثارة سخطهم .

وبعد ذلك فكر الكراغلة في استعطاف آبائهم ونيل رضاهم ، ثم قاموا
بإحضار جنود آخرين ، على نفقتهم ، وسجلوا أبناءهم كمتطوعين في الميليشيا .
والكراغلة الذين كانوا يتفاوضون أجوراً من الدولة ، والذين كانوا موزعين
على مختلف أنحاء الإيالة ، لم يكونوا يستطيعون الحضور ، شهرياً ، كما هي
العادة ، لتقاضى مرتباتهم ، ولذلك كانت جماعة من اليهود تسبق لهم
رواتبهم السنوية مقابل وكالة تسمح لهم بأن يقبضوا - باسمهم - ما لهم

في ذمة الدولة . وفي العادة ، فإن هذه التسيقة لا تكون في شكل نفوذ ، وإنما تدفع في شكل بضائع وبالفائدة . وقد كان هؤلاء الرجال دائماً في وضعية تجبرهم على قبول التسيقات مهما كانت الشروط . ولكن ، لو أن واحداً منهم يموت قبل نهاية السنة ، ولم يترك وراءه شيئاً ، فإن اليهودي ، يخسر المبالغ المسبقة . وكانت قوانين الإيالة تسمح بهذا النوع من المعاملات وعندما قام الفرنسيون بغزو الجزائر توقفت أجور هؤلاء الكراغلة ، وضاع الضمان المتمثل في الحكومة التركية بالنسبة لكل من كان مقرضاً هؤلاء الرجال ، ذلك أن الفرنسيين لم يكونوا يدفعون الأجور للكراغلة . وعندئذ اجتمع اليهود وأرسلوا اعتراضاتهم إلى السيد المارشال بورمون يطلبون منه أن يدفع ذلك الدين المترتب على الدولة . وقد رفض المارشال التسليم لادعائهم . إنهم كانوا يريدون الحصول على ديونهم من موارد المؤسسات الخيرية المخصصة للاعتناء بالثكنات التي تقوم في هذا البلد مقام دار العجزة والمقعدين في فرنسا لأنها لم تكن آهلة إلا بالجنود المقعدين وبأرامل الجنود وأيتامهم وهؤلاء المقعدون هم وحدهم الذين لهم الحق في المطالبة بالمعونة من تلك المؤسسات .

أما مطالب اليهود الناتجة عن ديون وقع التعاقد عليها مع جنود يعملون ويتمتعون بصحة جيدة ، فإن وفاءها لو تم من صندوق تلك المؤسسات لشكل خرقاً للترتيبات التي وضعها منشئ تلك المؤسسات .

وعندما رأى اليهود أنهم لن يحصلوا في الجزائر على أي شيء يرضيهم من الولاة الفرنسيين وجهوا مطالبهم إلى باريس قصد الحصول على المبلغ الذي هم به دائنون وأناي أجهل ماذا كانت نتيجة مطلبهم .

ولقد جاعني عدد من هؤلاء اليهود يسألوني رأيي فيما يخص مطالبهم وليعرفوا ماذا أفكر في مثل تلك المطالبة .

وكانت إجابتي كالآتي يا أصدقائي ليس لكم أي حق في مطالبة الفرنسيين وليس في إمكانكم إلا أن تلتسوا من تلك الحكومة لتمنحكم عطفها ومساعدتها ، وأناي لا أشك في أنها ستستجيب لرغبتكم عندما تعرضون عليها أوضاعكم .

ولكي أعود إلى ذلك الشقاق الذي كان موجوداً بين الأتراك والكراغلة أقول أنه منذ أن وقع الحادث المفصل أعلاه تكون حازر بين الطائفتين بحيث أن الأتراك أصبحوا لا يستفيدون من علوم أبنائهم ولا من نفوذ ما لهم من أقارب في البلاد وقد كان حذر الأتراك شديداً إلى درجة أنهم لو أسدى لهم الكراغلة النصائح ولو كانت مفيدة لهم لنظروا إليها كجائيل منصوبة لاقتناص حسن نيتهم وإذا ما علموا أن هناك اجتماعاً يعقده الكراغلة في مكان ما فإنهم كانوا يرسلون إليهم جواسيسهم تنظر هل يشتغلون بالسياسة وينتقدون بعض أعمال الحكومة أو حتى الحياة الخاصة للأتراك ، كما أن الكراغلة كانوا يراقبون خشية أن يحدث بينهم وبين بعض الأعيان في داخل البلاد نوع من التفاهم بقصد الاستيلاء على الحكم ، وعندما يكتشف الأتراك أنهم يضمرون لهم نوايا سيئة ، بل عندما يخامرهم أدنى شك في ذلك ، فإنهم كانوا ينفون قادتهم ويفرقون اجتماعهم . وأخيراً لقد بلغت الإهانات التي كانت تسلط عليهم إلى درجة أن سكان الجزائر من كراغلة وغيرهم لم يعودوا يهتمون بالسياسة لا في اجتماعاتهم ، ولا أمام الملأ ، ولا في مجتمعاتهم الخاصة . وما يحدث أحياناً أن بعض الأشرار كانوا إذا ما أرادوا الانتقام يتهمون الشخص الذي ييغون هلاكه

بأنه يشتغل بالسياسة ولقد قضى هذا النوع من المراقبة على بذور الكفاءة عند رجال هذا البلد وخلق في المجتمع حذراً عاماً استمر حتى مجيء الفرنسيين ، وهذا الانحلال هو الذي جعل السادة الولاة يستطيعون القيام بأعمال تعسفية أو يتفنون في تطبيق الأحكام الجائرة دون أن يحسوا أناساً لهم من الشجاعة ما يمكنهم من الشهير بسلوكهم امام الجمهور ومن اعلام الحكومة الفرنسية بما هم عليه .

ومن جهة أخرى فإن نصائح الغير التي كان يسأها اليهود قد ساعدت على أن يتزايد الطغيان ويبلغ منتهاه، وعلى أن تنشأ فكرة مشوهة عن طبائع سكان الجزائر الذين يزرعون تحت نير الاستبداد .

وفيما يخصني ووفاء مبي للحكومة الفرنسية ولصالح قضيتها، فاني قد حاولت ان اعرف بطائع تلك الأمة الحرة وكذلك بالشعور النبيل الذي تتحلى به حكومتها التي لن توافق أبداً على أساليب الجور اللاسياسية والمناهضة للقوانين وبناء على هذا الاحتراز من الكراغلة والذي نكلمنا عنه اعلاه وضع الأتراك ثقتهم في اليهود لأنهم لا يخشون منهم الاستيلاء على الحكم .

وأقام سكان الجزائر من جهتهم حاجزاً بينهم وبين الأتراك وأبدوا تحفظاً شديداً لإزاءهم بحيث لو طلب الأتراك من الجزائريين إبداء آرائهم لما افصحوا لهم عما يدور في أنفسهم. هذه هي الاسباب التي قضت على الديوان وعلى الشورى في الأمور .

وهكذا ، فإن اليهود قد ارتبطوا بالأتراك من اجل المصلحة وقد جمعوا في تلك الظروف اموالاً طائلة. وسأذكر اليهودي بكري الذي كان أخوه ميخائيل يملك عندما قدم إلى الجزائر حانوت عطار صغيرة يبيع فيها الحردوات بالتفصيل. وكانت هذه الحانوت تقع في نواحي باب عزون. ومنذ تلك الفترة ارتبطت

محلات بكري هذه بمصالح حسن باشا ومصطفى باشا، واستطاعت أن تحصل على ثروة تقدر بالملايين وسأروي واقعة واحدة تستطيع أن تفسر الكيفية السريعة التي تمكن بها أولئك اليهود من جمع تلك الثروات: لقد قدم باي قسنطينة (8) كالعادة إلى مدينة الجزائر. ولما أراد أن يقدم هدية ثمينة إلى زوجة الداي توجه إلى يهودي يدعى نفتالي أبو جناح ، شريك بكري ، لشراء حلبة نفيسة ، فاحضر له سرامطاً مرصعاً بالماس تقدر قيمته بسنين ألف بياستر (300,000 ف) فاشتراه وبما أنه لم يكن يملك المبلغ نقداً ، فقد تعهد بأن يدفع بدلاً من تلك القيمة كيلات من القمح يقدر ثمن الواحدة بأربعة فرنكات ، وتزن أربعين كلغ . وبعد الحصاد ، أرسل « البكريون » مراكب تشحن كمية من القمح قدرها خمسة وسبعون ألف كيلة نقاوها إلى فرنسا وكان ذلك أثناء الحصار الإنكليزي ، فباعوها بخمسين فرنكاً للكيلة الواحدة التي لم تكلفهم سوى أربعة فرنكات ؛ وهكذا أفادوا من تلك الشحنات ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف فرنك ويقال إن الحلبة صنعت في باريس ولا يبلغ سعرها إلا ثلاثين ألف فرنك وبما أن أحد شركائهم لم يستفد من هذه الصفقة في حين أنه هو الذي أرسل الحلبة من باريس فإنه قدم إلى الجزائر يطالب بحصته ولكنه لم ينل شيئاً . ولقد حصلت على هذه التفاصيل من ذلك الشريك نفسه . وهذه الأموال هي المصدر ، وأحد الأسباب الرئيسية للحرب التمهيدية بين فرنسا والجزائر ولسقوط حكومة الأتراك في هذا الجزء من أفريقيا. هذه هي ، إذن ، الكيفية التي جمع بها وبأمثالها أولئك اليهود ثروتهم على

(8) المقصود هنا هو الوزاجي الذي كان باباً على التيطري ثم عزل سنة 1792 بعد حكم دام عشرين سنة . وفي سنة 1794 تدخل أبو جناح وبكري لدى الداي فعيته على رأس بايلك قسنطينة . والداي في ذلك الحين هو بابا حسن .

حساب جميع سكان الإيالة . وقد كانوا يحفظون بجميع منافع ذلك الاحتكار ، في حين ان تلك التجارة كانت تمتع علينا ولا نستطيع التمتع بما ينتج عنها من منافع ، لأننا لا نستطيع الشراء بنفس الأسعار التي يشترون بها هم .

وفي تلك الفترة سمعت أحد البولكباشيين يقول - وقد كان قائداً للحامية التركية في عنابة - إن كمية القمح التي صدرت إلى أوروبا في تلك السنة كانت تقدر بست وثمانين شحنة . وبما أنه كان يتقاضى رسماً عن كل باخرة تشحن قمحاً ، فإن تصريحه جدير بالتصديق ، ولا أشك في صحته . وقد كان ذلك الرسم يقدر بمربع ذهبي أو بثمانين فرنكاً . وفي نفس تلك السنة وقع تصدير مائتين وأربعين ألف صاع قمحاً من ميناء وهران ، ولم تزد كلفة الصاع الواحد عن ست فرنكات بالنسبة لأولئك اليهود الذين كان البايات يحبرين على إرضائهم نظراً لأنهم كانوا يحفظون برعاية الباشا . وعلى هذا الأساس ، فإن عدداً قليلاً من السنوات كان كافياً للقضاء على جميع ثروات بلدنا الجليل

وفي سنة 1800 أصيبت الجزائر بمجاعة كبرى ، ووقعت الحاجة إلى الأقوات ، فأمر الداي لتموين البلاد ، بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح . وقد بيع ذلك القمح بثمانية وعشرين فرنكاً للصاع الواحد وعلى الرغم من ذلك كان لا بد من تنصيب الجنود عند باب كل مخزن .

ونستطيع ، أيضاً ، إن نقول بأن اليهود ، الآن ، قد وجدوا نفس الحظوة لدى الفرنسيين . إنهم قد حصلوا على امتيازات هذا النوع من الاحتكار ولكن القوائد ستكون أقل بكثير ، وذلك بسبب الوضع الذي توجد فيه الإيالة .

الفصل الثالث عشر

عَنْ دَاخِلِ الْإِيَالَةِ ، وَبَعْضِ الْمُلَاحَظَاتِ حَوْلَ حُسَيْنِ بَاشَا آخِرِ دَيَاتِ الْجَزَائِرِ

بعد أن قدمت ما أمكنني من تفاصيل حول تأسيس الحكومة التركية في الجزائر والقواعد التي تقوم عليها ، وكذلك التجاوزات والأمسباب التي أدت إلى انحطاطها ، آخذ القلم ، الآن ، لأفسر عظمتها في داخل الإيالة .

كان أول ما يهتم به البايات ، عندما ينصبون ، هو العمل على تحقيق أمن الطرقات حتى يستطيع الضعيف أن ينتقل من مكان لآخر دون أن يحتاج لحماية القوات المسلحة . وكانت كل قبيلة مجبرة على مساندة ذلك الإجراء لكي يستتب الأمن بينها وبين جاراتها .

وإذا وقع قتل ، فإن اعيان المنطقة التي وجدت فيها الجثة يصبحون مسؤولين عن القاتل ، ويتحتم عليهم أن يبحثوا عنه ، وإن لم يفعلوا يكونوا مجبرين على دفع ضريبة قدرها ألف سلطاني (10 آلاف فرنك) يوزع هذا

المبلغ على ورثة الشخص المقتول ، وإذا لم يكن له ورثة نقل إلى صندوق بيت المال .

وبفضل استتباب الأمن هذا اكتسب البابات عظمة هائلة وغزوا تونس مرات عديدة، مع أن تونس أقدم من الجزائر ومن الصعب الاستيلاء عليها . وتونس لا يمكن أن تؤخذ إلا بالنفاهم مع قادتها أنفسهم ، ويكون ذلك عندما يوعدون بتخليصهم من الظالم المسلط عليهم ، وباستبدال ملكهم بملك آخر من اختيارهم . بهذه الطريقة ، استطاع الجزائريون أن يفتحوا تونس . وقد كانوا دائماً يفون بما يقدمونه للتونسيين من وعود . ولقد قدم الفرنسيون أيضاً وعوداً عندما فتحوا الجزائر لكنهم لم يعملوا أبداً على إنجاز الالتزامات التي تعهدوا بها والتي كانت موضوع بياناتهم تلك البيانات التي وزعت في كامل أنحاء الإيالة . ولقد رأيت عدداً منها عند القبائل عندما قمت برحليتي إلى قسنطينة ، ولقد شهدت بهذا الصدد ، أكثر من مناقشة . إن هؤلاء السكان يقولون بأن الفرنسيين قد انتهكوا حقوق الشرف عندما أدخلوا بالالتزاماتهم ، وإن المسيحيين كلهم لا يختلفون عنهم ، ولا يمكن الاعتماد على وعودهم .

وآخر غزوة شنها الجزائريون على تونس وقعت سنة 1754 (1) . كانوا يريدون أن ينصبوا على رأس الإيالة أحد أبناء أخوة بايها (2) ، كان في مدينة الجزائر ويدعى علي باي . ولقد حوصرت مدينة تونس ثم وقع الهجوم عليها

(1) وقع ذلك عندما كان حسين كلباني بابا علي قسنطينة . ويقول الحاج أحمد المبارك : « إن هذا الباي كان بطلاً شجاعاً . بنى الجامع الأعظم بسوق الغزل بحومة رؤوس الدوامس في قسنطينة » .

(2) باي تونس في ذلك الحين هو حسين بن علي عم علي باي .

وقد ارتكبت - في تلك الأثناء - جرائم تشعثر منها الإنسانية وتدينها .

وعندما وقع تقتيل قبيلة العوفية ، فإن السيد الدوق دوروفيكو قد ارتكب جرائم مماثلة للتي ذكرناها : لقد ذبحت النساء والأطفال ، وقطعت الأذان للاستيلاء على الأقراط المعلقة بها ، ولم يكن الهدف من كل تلك الجرائم إلا الجشع والنهب . ومثل تلك الأعمال الوحشية تسيل دموعاً من الدم .

وهكذا ، إذن ، تم تنصيب علي باي كباشا لتونس . وأبرمت معه معاهدة غزية له ، من جملة شروطها ألا يسلم حصن الكاف الذي هو عبارة عن ممر ضيق منع يقع في الحدود الفاصلة بين المملكتين . ومن الشروط ، أيضاً أن العلم الوطني عندما يرفع ، لا ينبغي أن يكون إلا في وسط الصاري . وعندما يصل أحد مراكب الدولة الجزائرية إلى ميناء تونس ، فإن قائد ذلك المركب هو الذي يتولى قيادة الميناء طوال المدة التي يقبض فيها ، أما وكيل الجزائر أو المكلف بشؤونها ووكيل باي قسنطينة فإنهما يحترمان كما يحترم سفراء البلاطات الأوروبية .

وزيادة على ذلك ، فقد تعهدت إيالة تونس بأن ترسل كضريبة سنوية حمولة سفينة من الزيت وعدداً كبيراً آخر من الهدايا التي تصنعها أو تستوردها (3) .

وعاد ذلك الجيش المنتصر إلى الجزائر محملاً بكنوز ثمينة . ومنذ ذلك الحين ، صارت تونس تعتبر تابعة للجزائر ، وقد احترق التونسيون

(3) يقول الحاج أحمد المبارك في « تاريخ حاضرة قسنطينة » ، ص 20 ، ودخل علي باشا إلى تونس ، ونزلت محلة الجزائر وحسين كلباني بالجزائرية وهو موضع قرب تونس حتى استراحوا وأخذوا من علي باشا ما شرطوه عليه ورجعوا إلى بلدهم .

غيفاً من سلوك الجيوش الجزائرية تماماً كما يفعل الجزائريون اليوم من سلوك الجيوش الفرنسية

لم يكن باي تونس إلا شبه ملك ، وكان باشا الجزائر هو الذي يحكم البلاد والشعب حسب رغبته وكما يحلو له . ولذلك فإن وكيل الجزائر أو القائم بأعمالها ، ووكيل قسنطينة التي هي أقرب محطة لإيالة تونس « وقايدان » القراصنة ، كانوا يقومون بتجاوزات دون أن يعاقبوا عليها أبداً . وإن كل إنسان يريد التخلي عن سمعته ليجمع المال ويلعب الأدوار ، ما عليه إلا أن يقدم الهدايا لأهم الشخصيات في بلاط الجزائر ليعين وكبلاً في تونس وبأبسط الأسباب ، كان « قايدان » القراصنة يدخل إلى الميناء ويبيع فيه فساداً ولشدة ما كانت تتكرر هذه الإهانات المتعددة ، اغتاز التونسيون ، واشتعلت نيران الفتنة بين الشعبين وعلى الرغم من أن الأشراف الذين يشكلون الأغلبية في الجزائر كانوا دائماً يشكرون مثل ذلك السلوك ، فإنهم لم يستطيعوا إصلاح ما وقع من ضرر .

أعتقد أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة لجميع الفرنسيين الحقيقيين عندما يطلعون على السلوك الاستبدادي المتبع في الجزائر إزاء جميع سكانها . إنهم سياسيون لتعاستنا ، ولقد رأيت منهم من كانوا يبيكون عندما يحاطون علماً بما نقاسيه من آلام ويحتجون أمام الملاء ضد تلك الأعمال التي لم يكن في إستراتيجيتهم أن يمنعوها .

ولقد استمر هذا الوضع مدة طويلة في تونس ، لأن ميداً هذه التجاوزات يرجع إلى سنة 1791 وهي الفترة التي كان منصب الباي فيها لا يعطى إلا بالمحسوبية كما سبق أن ذكرنا . وبما أن هؤلاء البايات كانوا يعلمون أن حكمهم

لا يطول ، فإنهم كانوا يهتمون فقط بمضاعفة ثروتهم في أقرب وقت ممكن ، وذلك على حساب الشعب ، وهو أسلوب جائر يؤدي إلى إزلال الشعب إلى آخر دركة من دركات البؤس ، أو إلى حملة على إشعال الثورات .

عندما توفي علي ، باي تونس الذي نصبه الجزائريون سنة 1754 ، خلفه ابنه حمودة ، وعلى الرغم من أن هذا الباي الجديد كان شاباً ، فقد برهن على أنه يحسن التدبير عندما اتبع بالتدقيق سياسة والده . ولقد ازدهرت تونس في عهده .

وبعد سنوات من توليه الحكم ، وعندما لاحظ القوضي المستولية على حكومة الجزائر والفساد المنتشر في بلاطها ، رأى حمودة من واجبه أن يتحلل من المعاهدات المخزية التي ظلت تثقل كاهل بلاده منذ سنوات عديدة ، وذلك للتخلص من سيطرة الجزائريين .

وفي سنة 1801 كنت غالداً من القسطنطينية صحبة خالي ، فأرسلنا بتونس وأقمنا فيها أسبوعاً . وقد قام باي تونس المسمى يوسف خوجة وهو رجل فاضل بدعوتنا إلى بيته . وأثناء الحديث اشعكى بشدة من التجاوزات التي يقوم بها في تونس وكيل الجزائر ووكيل قسنطينة والرجال المحيطون بهما (4) ولاحظ لنا بأنه يخشى أن تؤدي تلك التجاوزات ونهاون حكومة الجزائر وقلة مراعاتها لتونس إلى ثورة تشتعل حتماً بسبب الخلاف الذي كان قائماً بين الحكومتين .

وعلى الرغم من أن خالي كان في خدمة الدولة ، فإنه وجد ملاحظاته عادلة

(4) يقول الحاج مبارك في هذا الصدد : « فكانوا (الجزائريون) ينظفون على رعية تونس ويظلمونهم في طريقهم ... وكان أهل غزن قسنطينة أهل خافطة وفاظطة لكون غالبيتهم من أهل البادية فلا يراعون حق السلطة بل تحملهم غلظتهم على العنف ومجازرة الحد » .

وأكد له بأن تلك التصرفات تتنافى مع شعور الجزائريين الذين يحبون الأمن والعدالة. وبعد ذلك قدمنا إلى حمودة باشا باي تونس الذي استقبلنا بكل رعاية وحفاوة .

وبما أن العادة الجارية في الشرق تقضي بأن الأجنبي الذي يأتي إلى البلاط يقدم كدليل على الاحترام ، بعض الهدايا ، وبعض الأشياء من بلاده مقابل هدية يقدمها له . وتكون دائماً أئمن بكثير مما جاء به ، فإن حمودة باشا كان يعتقد أننا سنقوم نحوه بتلك الأياقة ، ولذلك أعد لنا هدايا نفيسة كان المقصود منها ، أيضاً ، أنها ستجعلنا ندافع ، بطريقة غير مباشرة ، عن شكاياته لدى حكومة الجزائر . ولكننا لم نقدم له شيئاً لأنه لم يكن من اللائق بنا أن نقبل مثل تلك الهدايا ، وواصلنا بقنا إلى الجزائر .

وبعد ذلك بمدة قصيرة أحجم باي تونس عن إرسال شحنة الزيت التي تعود بعثها إلى الجزائر . وقد فعل ذلك ليعلم عن بداية اللامبالاة ، والإرادة السيئة .

وبمجرد ما ورد النبا إلى الجزائر اغتاض الداي أحمد باشا خيلاً شديداً لذلك السلوك الذي كان نوعاً من القطيعة وخروجاً عن الطاعة .

والجدير بالذكر أن باي قسنطينة (5) في تلك الفترة كان شاباً بدون تجربة وأن الأتراك لم يكونوا متفهمين أتم الاتفاق فيما بينهم .

(5) هو حسين بن صالح باي المشهور ، ويقول الحاج أحمد المبارك إنه « كان ولداً صغير السن ، حضرياً لا يقدر على الركوب والفرو ، ولا له معرفة بالحروب وسياسة الملك » . (نفس المصدر ، ص 15) .

ولذلك أراد حمودة باشا أن يفتنم تلك الفرصة ، فأرسل جيشاً هاماً إلى قسنطينة حاصرها مدة سبعة عشر يوماً . وهوجمت المدينة ، بالمدفعية والقتال ، ولكن سكانها أبدوا مقاومة مستميتة إلى أن جاءهم النجدة من مدينة الجزائر لأنهم كانوا يعرفون حق المعرفة كيف كان تصرفهم في السابق مع تونس ومناكدين من أن هؤلاء الأجنبي لن يعاملوهم بالحنى لو انتصروا عليهم . وبالفعل لم يلبث الآغا أن اقترب على رأس أحد الجيوش وهزم الجيش التونسي ، ثم رجع إلى الجزائر ومعه خمسمائة أسير من التونسيين . وكان أحمد باشا عبداً لهواه وقاسياً ، فأمر بختق ذلك الآغا الذي عاد منتصراً واستولى على ثرواته . وعين بعدها ابن أخيه ليخلف من أقدم على التضحية به ، ثم نظم جيشاً آخر ضد تونس وأرسل مبلغاً هاماً من المال إلى قسنطينة لسد حاجيات الحرب . عند ذلك قام الأتراك المكونون لحامية قسنطينة بثورة ، وقتلوا باي تلك المقاطعة وكذلك الآغا الجديد الذي هو ابن أخ الباشا . ولما رجعوا إلى الجزائر أشعلوا ثورة أخرى فقتل أحمد باشا وجيء بعلي باشا في مكانه (6) .

ولم يلبث هذا الباشا الجديد أن سير جيوشاً برية وبحرية ضد تونس ، ولكنه كان دائماً يفشل في خططه ، وكانت محاولاته في ذلك الميدان بدون جدوى . ولكي يكون المشروع صالحاً وقابلًا للتنفيذ يجب أن يسير كما ينبغي وأن يكون أساسه العدل والإنصاف

ولقد كان الجزائريون ، أثناء غزوتهم الأخيرة لتونس ، قد ارتكبوا ، كما ذكرنا ، أعمالاً تصفية وإجرامية كثيرة بحيث أنها لم تتمح من

(6) انظر الفصل السابق .

أذهان التونسيين الذين - بدلاً من أن يسلموا - أعلنوا أنهم يفضلون الموت عن آخرهم .

ومؤخراً ، لقد أصدر التونسيون نفس الجواب عندما أرادت سردينيا إن تغزو بلادهم . وأذكر في هذا الصدد رسالة كتبت في تونس ونشرت في جريدة «لاتريبين» يوم 21 ماي 1833 وكانت كالآتي :

«إن جميع الأفريقيين ، الذين يسكنون نفس القارة ، من بدو وقبائل قد شاهدوا ما جرى أخيراً ، في الجزائر ، ورأوا ما قام به الولاة الفرنسيون من تجاوزات ، ولذلك ، وبدلاً من أن ينخدعوا بالكلام المصول ، فإنهم يفضلون الحرب إلى أن يموتوا عن آخرهم .» وهكذا ، أيضاً ، عقد التونسيون العزم على أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الجزائريين .

ومن أكبر التجاوزات التي وقعت في عهد حكومة الأتراك بالجزائر هو إعطاء منصب الباي لأشخاص بلا مروءة ولا كفاءة .

وهكذا عين المسمى مصطفى باباً على وهران ، وكان حظياً للخزناجي ومن صناعته . وللحصول على ذلك المنصب كان قد وعد بتقديم مبالغ ضخمة من المال . ولم يكن لذلك الرجل أية علاقة بالمشائخ كما أنه لم يكن يعرف أنحاء تلك المقاطعة . وميزته الوحيدة تتمثل في نهب الشعب ، وإرسال أسلابه لمجيره . وعلى أثر هذه الأوضاع السيئة غضب الشعب وثار ، وكان على رأس الثورة المسمى : درغاوي ، وقد استولى الثوار على معسكر بعد حصار قصير ، ثم ساروا ضد وهران وحاصروها .

وعندما رأى مصطفى باي استحالة صد ذلك الجمهور من الناس ومحاربه ،

سدم أبواب المدينة وركز قواته وراء الحيطان ، ثم أخبر الجزائر بالحادث عن طريق البحر . وضبطت الحكومة أمراً لاسترجاع السلطة وإقرارها ، فأخذت الثورة ، لا بالقوة وإنما بالاعتدال . وعينت باباً آخر قوي النفوذ في أوساط الشعب وله علاقات ودية وروابط قرابة مع مختلف المشائخ . وبالإضافة إلى ذلك ، كان ابناً لابن قاره محمد الذي انتزع وهران من الإسبانيين .

ولكن الطرق بين الجزائر ووهران كانت مقطوعة ، فاضطر الباي الجديد إلى المجيء لوهران عن طريق البحر . وبمجرد ما وصل فتح أبواب المدينة وخرج إلى الدرغاوي بنفسه على رأس الجيش ، ولما انضم إليه أنصاره هزم المتمردون ووقع تشبثهم .

كان هذا الباي الذي خلص وهران من المتمردين ذا كفاءة ومروءة . وقد ساعد وجوده في تلك المقاطعة على تحقيق الأمن العمومي . وعلى الرغم من ذلك فإنه عزل بعد سنوات قليلة ، وقتل ليخلفه نفس مصطفى الذي كان باباً قبله ، والذي لم يكن له من فضل إلا رعاية الخزناجي له كما سبق أن ذكرنا ذلك .

وبعد ذلك بمدة قصيرة عين مصطفى خزناجياً ، وخلفه في تلك المقاطعة ديلي باي شقيق قاره محمد باي .

وتنقص هذه الأعمال قد تعرض لها بابايات قسنطينة . ومن جملة ما نتج عنها ظهور أحد المغامرين على رأس حزب من المتمردين . يسمى ذلك المغامر :

ابن الأحرش (7) ، وقد أقام مقر قيادته في نواحي بجاية ليتمكن من التحصن في الجبال المجاورة لتلك المنطقة .

كان باي قسنطينة ، في ذلك الحين ، هو عثمان بن قاره محمد . ولما أراد هذا الباي أن يطبق أحد مبادئ السياسة القاتل بأن الجسم لا ينتصر عليه إلا عضو من أعضائه أو جزء من أجزائه ، فإنه عمل على الاتفاق مع قادة القبائل ، فوعدهم بهبات كبيرة لو أنهم وافقوا على التخلي عن رئيس المشوشين وخانوا قضيتهم . ولكنه فشل في محاولاته وذهبت مجهوداته أدراج الرياح .

لم يكن عثمان باي من صنيعه الخزناسي ، ولذلك وسوس هذا الأخير للداي بأن سبب الثورة هو ذلك الباي الذي لم يحمدها لأنه كان متفقاً مع المتشردين . وقد نتج عن هذا التدخل أن أرسل الداي للباي برقيات شديدة اللهجة ووليدة الغضب ، يسأله فيها أن يعترف بعجزه أو أن يبعث له برأس الفتنة .

ولم يكن باي قسنطينة قد تعود على سماع مثل هذه اللهجة ، ولذلك فهم بأن روحاً شريرة قد تدخلت في الموضوع ؛ وإن تلك الروح هي خصمه الخزناسي . وعلى أثر ذلك الأمر الملح والمهدد ، خرج الباي من قسنطينة كالبائس على رأس كل ما استطاع أن يجمعه من جيوش ، وهاجم بعنف تلك

(7) هو الشريف بن الأحرش : رجل مغربي كان يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس ، دخل وسط القبائل ووعد الناس بأخذ قسنطينة . وسبب هيبته إلى الجزائر أنه كان يقود ركب الحجيج عندما وقعت الحملة الفرنسية ضد مصر ، فتوقف بالقرب من الاسكندرية وشارك في القتال ضد جيوش بونابرت . وقد اشتهر ، في جميع المعارك التي خاضها ، بالشجاعة والإقدام والمقدرة على تسيير المحاربين . وبعد النصر تحالف مع الإنكليز فأعادوه ومن معه إلى مدينة عنابة ، ثم ذهب إلى قسنطينة ومنها التحق بالجبال واستقر بمدينة جبجل حيث بدأ يجمع الأنصار .

الجموع المكونة من القبائل . ولكنه عندما وصل إلى محر جبلي ضيق جداً ، تعرضت له القبائل وصدته بنجاح ؛ وقد كانت الطلقة الأولى موجهة إليه فأصابته . ثم هزم جيشه هزيمة نكراء بعد أن لاذ بالفرار . وسقط المعسكر ، ففتقاس المنتصرون ما كان فيه من غنائم . وقد أسر ، في تلك الظروف ، كثير من الأتراك ، مضى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من الفرار أو من أن يطلق سراحهم .

وعندما تولى الحكم الحاج علي باشا (8) ، كانت مقاطعة قسنطينة في بؤس شديد ، وكانت الزراعة تكاد تكون معدومة . وهذا الوضع هو عكس ما كان موجوداً في غربي البلاد . ففي تلك الأثناء ، أراد ذلك الباي أن يغزو تونس ؛ وعين لرئاسة الجيش دالي ، باي وهران ، لا لأنه كان يعتمد على قوته ، ولأن جيشه كان منظماً كما ينبغي وعلى أحسن ما يرام فحسب ، ولكن لأن ذلك الباي كان رجلاً يعترف للجميع بكفائته .

ولكن ، بما أن دالي باي كان يعرف جيداً مصدر الحقد الموجود بين الشعين ، وإن التونسيين يفضلون الموت عن آخرهم بدلاً من الاستسلام للجزائريين ؛ وبما أنه كان يخشى ، كذلك ، أن تحدث الاضطرابات في مقاطعة وهران بعد أن يغادرها ، فإنه رفض - لكل هذه الأسباب - قبول القيادة التي عرضت عليه .

ولم يكن الحاج علي باشا ليتفهم مثل هذه الأسباب ، وعلى العكس ، فقد ألح بشدة على أن يسير الباي ضد تونس واعداً إياه بأنه سيترك له كنوز تلك الإيالة ، وبأنه سيحظى بشرف النصر . وليشير نعرته كتب إليه الداي قائلاً :

(8) انظر الفصل السابق .

« إنك كرغلي ، وباي تونس أيضاً كرغلي ، فأنت ، إذن ، لا تريد أن تلتحق الضرر بأخيك . إنك تفضل عصياني على أن تحاربه . »

ولما رأى ذلك الباي استحالة السير ضد تونس ، وتأكد من أن الباي سيعاقب عصيانه ، عقد العزم على إعلان الثورة ، وليحصل على السلم شوش ومنع جميع الطرق التي تصله بالجزائر .

ولكي ينتقم ، سیر الحاج علي باشا جيشاً ، ضد وهران ، تحت قيادة عمر آغا (9) . وقد تحققت رغبة ذلك الطاغية بكل نجاح ، واضطر الباي المسكين إلى الاستسلام للجيش فحكم عليه بالإعدام . كما أن زوجته وأطفاله قد تعرضوا للمعاملة سيئة ، ثم حملت جميع ثرواته إلى الجزائر وعين باي آخر في مكانه .

لقد تكررت مثل تلك التعيينات إلى أن تولى حسن باي الذي سلم وهران للفرنسيين . وكان حسن باي هذا صهراً لباي وهران القديم : دالي باي . وقد ساهمت هذه القرابة مساهمة كبيرة في ازدهار تلك المقاطعة . واستطاع حسن ، على وجه الخصوص ، أن يطبع إدارته بالاعتدال طوال الأربعة عشر عاماً التي دامها حكمه .

كان ذلك الباي يحكم بعطف أبوي ، فلا يفرض على الشعب إلا ضرائب قليلة ولا يستعمل العنف ضده أبداً . ولأجل ذلك ازدهرت المقاطعة لإزدهاراً كبيراً وكان السكان يعترفون له بالجميل .

(9) انظر الفصل السابق .

وعلى الرغم من أننا ذكرنا بأن الأنراك كانوا قد قرروا ألا يرفعوا واحداً من الكراغلة إلى رتبة باي ، فإن الضرورة ، وحسب الحرية والاعتدال الذي يميز حسين داي قد جعله يعين الحاج أحمد على قسنطينة ، وهو ما يزال ، إلى يومنا هذا يشغل ذلك المنصب .

وقبل أن يكون باياً ، كانت مقاطعته فقيرة ، والأراضي مهجلة إلى درجة أن السكان لم يكونوا قادرين على تسديد الضرائب القليلة التي لا تدفع ، مع ذلك ، إلا كل ثلاث سنوات .

ولأنني أذكر ، عندما قدم باي قسنطينة بنفسه إلى الجزائر ، أن الباشا كان - لكي يغني فقر تلك المقاطعة - قد أرسل له سرّاً ومسبقاً مبلغاً من المال ليتمكن ، عند وصوله ، من أن يحضر كما جرت العادة وبكيفية مشرفة .

وهكذا ، إذن ، فإن الحاج أحمد باي قد عين في قسنطينة لأجل كفاءته واستحقاقه ، والدليل على ذلك أنه عرف كيف يبقى حتى بعد سقوط الحكومة التركية ، كما أنه عرف كيف يكون لنفسه ثروات طائلة بفضل ارتباطاته مع مختلف القبائل . وسأعطي ، حول ذلك ، تفاصيل أكثر دقة عندما أتكلم ، فيما بعد ، عن الرحلتين اللتين قمت بهما إلى قسنطينة .

لقد بدأت تجاوزات الأنراك والقوضى الناتجة عن عزل البايات سنة 1791 ، واستمرت إلى غاية 1818 وهي السنة التي وصل فيها حسين باشا إلى الحكم .

وحسين باشا هو آخر داي تركي في الجزائر . وينتمي هذا الرجل الفاضل إلى أسرة كريمة ، كما يتمتع بثقافة واسعة . وقد خدم الإيالة أكثر من ثلاثين سنة .

وبما أنني أعرف طبعه ، فلأنني أستطيع القول بأنه من ذلك الأصل التركي العريق ، أي أنه شريف النفس كريماً . ولا أعتقد أن هناك من يستطيع إتهامه بالطمع . فقد حرص دائماً على عدم إراقة الدم البشري ، ووفائه فيما يخص القيام بالالتزامات معروف في كامل أنحاء أوروبا . ولما أنه لا يوجد بلاط واحد اشتكى من أن حسين باشا قد خرق المعاهدات التي أبرمها سواء مع الفوي أو مع الضعيف ، فلأنني متيقن من أنه ، بهذا الصدد ، سينصف كما ينبغي .

الكتاب الثاني

أما عن تلك الحرب المشؤومة التي أجبرته على ترك الحكم ، فإننا سنرى فيما بعد وبالتفصيل أن الحظ إنما خانته بسبب أخطاءه وكلاته والميليشيا . كما أن حاشيته كانت تشمل على كثير من الأشخاص ممن ليس لهم مبادئ ولا تجربة ولا شجاعة . ولقد كان ، أثناء ولايته ، ينوي أن يعيد الأمن والانضباط إلى نصابيهما ، لأنه ، عندما تولى ، كان قد وجد الحكومة تتخبط في فوضى يصعب وصفها . وكانت هناك تجاوزات قديمة ، وجدت منذ سنوات عديدة . وللتمكن من القضاء على الشر ، ولتطهير حكومة الولاية ، كان لا بد أن يتدخل الحظ ، وأن تدوم ولايته مدة أطول . وإذا كان هناك ما يلام عليه ، فيما يخص حكومته ، فهو أنه لم يسترجع الديوان القديم ليتمكن من المداولة حول أهم القضايا ، والإفادة من النصائح التي يمكن أن تصدر عن تجربة القدماء ومعرفتهم لتكون نبراساً يهتدى به . ويجب ، كذلك ، أن يستند إليه خطأ كونه لم يستعمل جميع الوسائل الممكنة لمنع الحرب التي وقعت مع فرنسا .

- انتهى الكتاب الأول -

الفصل الأول

الحرب وأسبابها

إن الأصل أو الأسباب الأولى لهذه الحرب المشؤومة التي سببت بؤس جميع الجزائريين سيجعل الأجيال المقبلة تدين الفرنسيين لأنهم سمحوا بوقوع جميع الأهوال التي أصبحت الجزائر مسرحاً لها ، لكي لا نقول : التي سلطوها عليها . لقد كنا نعتقد أن الأفكار التعصبية الضيقة قد نسبت في القرن التاسع عشر ، وإن عصر تحرر الشعوب قد حان ، وإنه أصبح من المحتوم اعتبار جميع سكان المعمورة كأسرة واحدة .

نقول إذن ، إن أحد الأسباب الأولى لهذه الحرب هو المطالبة التي تقدم بها بكري (I) للحكومة الفرنسية فيما يخص ديون يرجع تاريخها إلى الثورة ،

(I) هو لقب لأسرة يهودية قدم رئيسها الأول - ابن زقوط - من ليفورنه إلى مدينة الجزائر سنة 1770 . وكان لزقوط هذا أربعة أبناء أسوا في مستهل العقد الثامن من نفس القرن شركة تجارية لم تلبث أن اتسع نشاطها وصارت تتعامل مع الخارج . وأهم ما قامت به تزويد فرنسا بالحبوب والانتعاج في مؤسسة أخرى يهودية كان يقودها حفيد ابن زقوط السيد لفتالي بوجناح . أما الأخوة بكري فهم : يوسف ومردوشي ويعقوب وسليمان .

قبل عهد الامبراطورية ، ترتبت عن تزويدات في مادة الحبوب كنا قد نكلعنا عنها .

ولقد حددت الحكومة الفرنسية ، بقرار ، ثمن هذه التزويدات بسبعة ملايين من الفرنكات (2) . ولكن التسديد طال كثيراً وبقي سنوات متعددة . وكان الاعتراف باسم بكري وشريكه ميكائيل بوجناح (3) . وبما أن بكري كان مديناً لخزينة الجزائر بمبالغ هامة تمثل قيمة كميات من الصوف اشتراها من الدولة ، فإنه كان يعتمد على التصفية لدفع هذا الدين وغيره من الديون التي ترتبت عليه في فرنسا . وتقدم عدد كبير من دائني بكري إلى الخزينة معترضين على الدفع وقد تعقدت التصفية نتيجة لهذه الاعتراضات .

ولما رأى هؤلاء اليهود أن تسوية القضية ما تزال بعيدة ، شرعوا في

(2) كان هذا المبلغ في بداية الأمر 24 مليوناً من الفرنكات كما ورد في محضر اللجنة التي كونها الملك لويس فليب لهذا الغرض . ثم وقع اتصال بالمعنيين وجرت مفاوضات نزل المبلغ بمقتضاها إلى سبعة ملايين أبرم في شأنها اتفاق ، أمضاه الملك نفسه يوم 28 أكتوبر 1819 . وينص ذلك الاتفاق على أن الدين بدفع مشاهرة في ظرف عام ابتداء من فاتح مارس 1820 .

(3) هو حفيد ابن زقوط كما رأينا ، قنمت أسرته من ليفورونه إلى مدينة الجزائر في نهاية الربع الأول من القرن الثامن عشر . وقد بدأ نجمه يلمع في عالم التجارة سنة 1782 . وفي مستهل العقد التاسع ، استطاع بلعائه ومكره أن يكسب ثقة الداي حسن ويصبح مستشاراً له ذا نفوذ لا مثيل له ، حتى أن المصادر القريبة كانت تسميه ملك الجزائر . ونتيجة للتصفيات التي كان يقوم بها ضد الأهالي تطوع أحد جنود الميليشيا وقتله رمياً بالرصاص صباح يوم 28 جوان سنة 1805 ، في عهد الداي مصطفى باشا الذي سيلقى نفس المصير بعد ذلك بقليل .

مفاوضات مهلكة . فوقعوا سندات بمائة ألف فرنك وتنازلوا عنها بعشرين ألف لأن المهم عند هؤلاء اليهود هو أن يحصلوا على الدراهم . وفي هذه الأثناء تقرب بكري من قنصل فرنسا السيد دوغال ووعدته بمبلغ هام إن هو عمل على إسراع التصفية في باريس . ويزعم البعض أنه أعطى الدراهم نقداً إلى القنصل المذكور ، ويقول آخرون بأن القنصل لم يحصل إلا على الوعود . وفيما يخصني ، فإنني لا أعرف شيئاً إيجابياً عن هذا الموضوع ، وعليه فإنني أكتفي ، هنا برديده ما سمعته من الناس . ولكنني أعرف أن كثيراً من المناورات وقعت بشأن هذه القضية حتى أن حسين باشا قرر أن يرسل بنفسه إلى الحكومة الفرنسية للإسراع بالتصفية دون أن يعلم بأن أعمال غير لائقة قد تمت في هذا الموضوع وأن السبب الوحيد الذي جعله يقبل التدخل في الأمر هو أن بكري كان جزائرياً ، ومديناً لخزينة الإيالة : فكان الباشا يأمل ، بعمله هذا ، أن يسترجع أموال الدولة .

يقال ، أيضاً ، أن نفس السيد دوغال قد ساهم ، لفائدته الخاصة ولكن باسم جماعة من أصدقائه ، في بعض تلك المفاوضات التي أهلكت بكري ، وأنه استغل احتياج هذا اليهودي وشريكه . ويقال كذلك ، أنه كان ينوي أن يستولي مع أصدقائه على مجموع ذلك المبلغ الهام الذي كانت الحكومة الفرنسية مدينة به لبكري . وبالفعل ، فلن أحداً لم يستفد من الدين غير السيد دوغال وأصدقائه .

ولتسهيل التصفية في باريس ، ولكي تدفع الحكومة الفرنسية ذلك المبلغ احتراماً للداي فإن السيد دوغال قد وعد بأنه سيحضر للعاقل المذكور المبلغ المترتب على بكري لفائدة الخزينة (الجزائرية) . وعلى الرغم من أن الداي

سلم لدوفال البرقية التي طلبها منه ، فإن شيئاً لم ينف من وعود القنصل وواصل الداي بدون جدوى لإرسال برقيات أخرى إلى الحكومة الفرنسية مستعملاً لذلك طرقاتاً مختلفة وبالطبع ، عال صبر الداي لعدم تلقيه اجوبة من الحكومة الفرنسية جاهلاً أن هذه الأخيرة لم تطع على أي واحد من مطالبه المختلفة .

لقد جرت العادة أن تقوم قناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الجزائر بزيارة لإكرام إلى الداي بمناسبة اليوم الأول من البيرم (4) ، وكان القنصل الإنكليزي والقنصل الفرنسي يتنافسان الصدارة في هذه المناسبات . ولذلك ، ولتجنب كل مناقشة قرر الداي أنه يستقبل الواحد عشية الاحتفال والآخر في يوم العيد نفسه . وعلى هذا الأساس جاء السيد دوفال عشية عيد البيرم ليؤدي زيارته للداي بحضور جميع أعضاء الديوان . وكان هذا القنصل لا يجيد التركية إلا كما أتكلّم أنا اللغة الفرنسية ، فلا يعرف معانيها ولا عبقريتها . وبعد الحفل ، سأل الباشا القنصل لماذا لم تجبه حكومته عن برقياته العديدة الخاصة بمطالب بكري . فكان جواب السيد دوفال في منتهى الوفاة إذ جاء كالآتي :

« إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم » .

نستطيع لصالح السيد دوفال أن نقول بأن إجابته هذه كانت بسبب جهله للغة ، لأن الفرنسي الأصيل لا يتلفظ بكلام بذيء مع إنسان عادي ، ناهيك إذا كان ذلك الإنسان رئيس إالة . ومما لا شك فيه أن الداي كان يمكن أن يعذر السيد دوفال لو وقع ذلك بمناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات ، أمام ديوانه ، قد مست كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بالمروحة ضربة واحدة . (هذه المروحة مصنوعة من سعف النخيل) . إن حسين باشا

(4) كلمة تركية تعني عيد الفطر .

أبعد من أن يكون رجلاً فظاً . وكل إنسان يعرفه لا يمكن أن يتهمه بالخشونة . ولاني لأحكم ، في ذلك ، جميع القناصل الأجانب .

وعلى ما يقال ، فإن القنصل قد أفاد من الظروف ، ولتغطية سلوكه وإسدال ستار النسيان على عباراته الوقحة ، عرض ضربة المروحة بكيفية غير مؤاتية للداي .

ولما علم الداي أن لجوزيف بكري ، أحد قادة المؤسسة اليهودية ، ديوناً في ذمة البلاط الإسباني ، وأن تلك الحكومة كانت مدينة له بمبلغ هام زيادة على الفائدة المتراكمة منذ حوالي عشرين سنة (كان بكري يزعم أن ماله من دين على الحكومة الإسبانية يبلغ خمسة ملايين من الفرنكات) ، فإنه طلب من قنصل هذه الأمة أن يكتب لحكومته ملزماً إياها بتصفية هذا الدين وبتسديده إلى خزينة الجزائر وعلى أثر مناقشة حادة جرت في هذا الموضوع بين الداي وقنصل إسبانية ، غادر هذا الأخير المدينة وركب سفينة من سفن بلاده . عندئذ ، دعاه الداي إلى الهبوط ، وجلب انتباهه إلى أنه لا يجب أن يخلق المشاكل ، وبأنه لم يكن ينوي الإساءة إليه ، وأن العبارات التي وجهها له لا تخص إلا الحكومة التي يمثلها . ولما رفض القنصل النزول إلى الأرض ، قال له الداي بأنه يعتبر تماديه في الرفض قطيعة بين الحكومتين .

وعلى الرغم من ذهاب القنصل ، فإن الداي لم يتصرف بشدة ، بل على العكس ، فإنه اتجه بود إلى البلاط الإسباني مطالباً بحقوقه ، ومقترحاً على الحكومة الإسبانية طريقة للتفاهم بينها وبين بكري .

وبما أن إسبانيا لم تكن موافقة ، وطا الحق في ذلك ، على دفع فائدة قدرها ثلاثون في المائة ، كان بكري يطالب بها ، فإن الداي اقترح عليها أن تدفع

له ملبوناً من الفرنكات مقابل أن يجعل حداً لادعاءات بكري وأن تسوى القضية تسوية نهائية . وزيادة على ذلك ، طالب الداي بمبلغ 500,000 فرنك كتعويض لمصاريف الحرب . وقد كتب هذه البرقية الأخيرة بخط يده . ولما وافقت الحكومة الإسبانية على الاقتراح المعقول ، فلن الصداقة قد عادت إلى ما كانت عليه في الحين .

وعندما تم دفع المبلغ المذكور ، وزع المليون بالتقسيط على من كانت لهم ديون في ذمة بكري ووقع ذلك بمحضر هذا الأخير ، وعلى مشهود من الخزانجي للتأكد من السندات . أما الخمسمائة ألف فرنك ، فلأنها صبت في الخزينة كتعويض لمصاريف الحرب كما سبق أن ذكرنا . وقد دفع الداي من هذا المبلغ الأخير خمسين فرنكاً لكل جندي بحيث لم يبق للخزينة إلا حوالي خمسين ألف فرنك .

لقد رفض الداي تلك النسبة المرتفعة من الفائدة لأن القوانين الأوروبية لا تعترف سوى بخمسة في المائة ، ولأن قوانيننا لا تسمح بالربح مهما كان نوعه . هذه هي الأحداث التي جرت في تلك الظروف وقد كنت عليها شاهد عيان .

لقد كان للداي كرئيس دولة وكأب للشعب وولي للأيتام تعترف به القوانين ، كل السلطة لتسوية هذه القضية . وكان لبكري شريك ، هو أخوه ، يوسف الذي هلك وترك وريثه ، ولذلك كان من المحتوم عليه أن يضع حداً لهذه المسألة .

وعندما دخل الجنرال دوبرمون إلى الجزائر ورأى بكري أنه كان يحسن

وفادته توجه إلى حسين باشا ومعه وثيقة رسمية تثبت أن بكري أودع في الخزينة مبلغ خمسمائة ألف فرنك ، وطلب منه أن يوقعها له مقابل 125,000 فرنكاً . وقد كتب هذه الوثيقة بخط يد اليهودي نفسه أما الخمسمائة ألف فرنك ، فإنه كان يريد الحصول عليها كبقية من حساب مع إسبانية . وهكذا رجا من الداي أن يوقع هذا الاعتراف الذي كان ينوي أن يقدمه للقاضي والمفتي بصادقان عليه ، وكان تأكداً على حد زعمه أنه سيحصل على المبلغ . وبعد أن تأمل الداي في هذه الوثائق رد بكري نخاباً دون أن يوقع ولا أن يضع ختماً . ومع ذلك فقد أبقي عنده تلك البيانات التي أعدت لارتشائه ، وأجاب الراشي قائلاً : إن شرني يمنعني أن أقوم بمثل هذه الأعمال . ويقال إن الداي أعطى لهذا اليهودي ، قبل أن يطرده ، صدقة يتراوح قدرها ما بين 7 و 8 آلاف فرنك ، قدمها له من أمواله الخاصة لمساعدته وإعالة أبنائه ، وذلك لأن بكري كان آنذاك ، في وضع مادي يرثى له .

يقال أن بكري طلب من الحكومة الفرنسية أن تدفع له الخمسمائة ألف فرنك . لست أدري كيف يمكن أن يبرر طلبه هذا ، وكل ما أستطيع قوله هو أن ما ذكرته الآن ، عن وعي ، وقع كله بمحضر مني .

وفيما يخص طلاقات المدفعية المشؤومة التي وجهت للسفينة «البروفانس» (5)

(5) هي السفينة البرلمانية التي كان يركبها السيد دولا بروتونبار ، والتي وصلت إلى ميناء الجزائر يوم 30 جوليت سنة 1829 للتفاوض مع سلطات الإيالة حول إمكانية التوصل إلى حل للأزمة القائمة بين الدولتين منذ أكثر من عامين . ولما قشلت المحادثات ، أبحرت السفينة ، وبدلاً من أن تأخذ طريقها مباشرة إلى فرنسا ، مالت كثيراً إلى الساحل واقتربت من الحصون الحربية حتى ظن بعض القادة الجزائريين أنها تتجسس عليهم ، فأمر بإطلاق النيران حولها لتبعد . ولو كان الغرض هو تخريبها لما تعدد ذلك ، لأن المصادر تذكر بأنها كانت قريبة جداً من المدفعية ، وأن الربع كانت في ذلك الحين غير مؤهلة للملاحة .

والتي ضاعفت من الأسباب وجعلت فرنسا تقرر الحرب وعجلت بإسنا
وخرابنا ، فإنني أستطيع التأكيد بأن حسين باشا (6) لم يكن على علم بها ولكننا
نقول باللغة العربية . إن السيد مسؤول على أخطاء عبده . فلو أن الداي كان
قد عين في وزارة البحرية رجلاً أهلاً للمنصب لما وقعت الحرب ولما انتهت
الحصانة البرلمانية (إن عزل هذا الوزير ، وإبعاد رئيس المدفوعين الذي أمر
بإطلاق النيران لم تكن لما أية نتيجة بالنسبة إلينا) وفي الحين ، توجهت بنفسي
إلى الآغا وطلبت منه أن يخبر الباشا أنني أعتقد ، حسب رأيي ، بأن ما وقع
سيعتبر خيانة ، وهو مناف لشريعتنا ولقوانين المجتمعات والحضارة .

ولفضل هذا العار الذي أصابنا كان يجب على الباشا أن يرسل ، حيناً ،
سفيراً إلى فرنسا يعرض الأحداث ، ويترف أمام الملأ بأخطائنا ، ويخبر
بعزل الوزير وإبعاد رئيس المدفوعين . وفي حالة ما إذا طلبت الحكومة الفرنسية
من السفير تفسيرات حول مبدأ الحرب يقتصر على الإجابة بقوله : إن مهنتي
خاصة وهي ترمي إلى الاعتراف بأخطائنا وتقديم توضيحات حولها ، أما عن
مسألة الحرب ، فمعتقد أننا على صواب . ومن حقكم أن توفدوا رسولاً إلى
الداي وأن تتخلوا عدلنا كمثال تقتدون به . ثم ينهي الرسول كلامه قائلاً :
إن الداي متأكد من أن الحكومة الفرنسية سترضى بالاعتذار الذي كلف
بتقديمه ، وأنه يأمل أن يقع التوصل إلى الاتفاق حول القضية الرئيسية التي زاد

(6) هو آخر الدايات ، تولى الحكم مرغماً سنة 1818 . وكان رجلاً عالماً وشجاعاً
حكيماً . في عهده أصيبت البلية بزلزال ، ووقعت حادثة المروحة والحصار سنة 1827 ،
ثم الاحتلال سنة 1830 . أكبر خطأ ارتكبه أثناء ولايته هو مساعده اللواشين في قضية يحيى
آغا الذي كان أكبر قائد عسكري عرفته الإيالة في عهد الآغاوات والدايات .

في تعقيدها السيد دوفال (7) عندما لوث شرف حكومته بأعمال الرشوة ،
وباحتجاز برقيات الداي .

ولو تم الأمر على هذا النحو ، لكان من الممكن ، بعد هذه التوضيحات ،
أن تعود المياه إلى مجاريها بين الجزائر وفرنسا ، وأن يُتجنب كثير من الشرور .

(7) هو آخر قنصل فرنسي في الجزائر قبل الاحتلال . كان في نفس الوقت تاجراً ،
تورط في كثير من الفضايح مع محلات بكري وبوجناح ، ولقد كانت مواقفه الشخصية من
الأسباب التي زادت الوضع تعقيداً عندما وقعت الأزمة الأخيرة بين الجزائر وفرنسا .

الفصل الثاني

قصة وصول الجيش إلى سيدي فحج

لقد كتب حسين باشا إلى القبائل والعرب يخبرهم بالتوايا العدوانية التي يضرها لهم الفرنسيون ، ويأمرهم بأن يستعدوا ويكونوا رهن الإشارة . فأجابوه بأنهم مستعدون وبأنهم لا ينتظرون سوى أوامر الباشا ليسارعوا إلى نصرته. كما أن حسين باشا كتب إلى باي وهران (1) وأوصاه بتحسين مدينته وباليقظة وأمر باي قسنطينة (2) بتحسين ميناء عنابة (3) : وبما أن هذا الأخير لم يأت إلى الجزائر منذ ثلاث سنوات ، فإنه أمره بالمجيء وفقاً لما جرت عليه العادة ، ودون أن يزعم القبائل .

-
- (1) هو حسن باي الذي دفعته ثروته وشيخوخته إلى الاستسلام دون مقاومة . ولقد حكم مدة 7 أشهر باسم الفرنسيين وفي نهاية الأمر اضطر إلى الفرار إلى الاسكندرية ومنها إلى مكة حيث قضى أيامه الباقية .
- (2) هو الحاج أحمد باي الذي تكلمنا عنه في الكتاب الأول .
- (3) كانت عنابة ميناء تجارياً تحت تصرف الفرنسيين إلى أن وقع الحصار سنة 1827 .

وأمر الباشا ، كذلك بإحصاء العمال في مدينة الجزائر ، وبأن يرسل إلى الحصون للمساهمة في مناورات المدفعية ، جميع القادرين ، وبأن يعين قائد على رأس كل فيلق .

لقد كان الآغا إبراهيم صهراً للباشا ، لكنه لم يكن قائداً ممتازاً في يوم من الأيام ، ولم يكن يعرف الشيء الكثير من التكتيك العسكري ، وكان سابقه يحيى آغا (4) قد شغل هذا المنصب مدة اثني عشرة سنة في عهد حسين باشا . فشهد كثيراً من المعارك التي جرت بين العرب والقبائل ، وكان مدة ما بقيت ، لا يعرف الركود على الإطلاق . لقد كان شديد الطموح ، صائباً في منطقته ويعرف كيف يجب نفسه خاصة إلى العرب والقبائل ، ولو أنه ظل في هذا المنصب مدة أطول لاستفادت الجزائر منه أشياء كثيرة على ما اعتقد . ولكن الحسد والغيرة اللذين أثارهما في نفس الخزانجي ، نتيجة مكائته عند الباشا وعمَل هذا الأخير بنصائحه ، قد جعل الخزانجي يتآمر ضده . وقد تمت الميعة بواسطة تقارير كاذبة وشهود زور كان وعدهم بمنصب عندما تنجح الخطة . وبهذه الطريقة عزل يحيى آغا ، ثم نفاه الباشا إلى البلدة واستبدله بصهره إبراهيم وهو رجل لا منطق له ولا كفاءة كما سبق أن ذكرنا .

وخشي المتآمرون أن تنكشف أفعالهم ، وإن يعود منافسهم إلى الحكم فحاكوا خيوطاً جديدة وأنهموه بأنه يتفاهم مع مختلف رؤساء العرب والقبائل ،

(4) أشهر قائد عسكري عرفته الجزائر في عهد الآغاوات والدابات . صاحب فضل كبير على أحمد باي إذ هو الذي شفع فيه وساعده على تدعيم سلطته في شرق الإيالة . ويعتبر قتله أكبر خطأ ارتكبه حسين داي في حياته .

وأن هؤلاء الرؤساء كانوا يزورونه ليلاً ، وأنه كان يفقد الاجتماعات في بيته لمهاجمة الجزائر وللإستيلاء على الحكومة وتعيين نفسه على رأسها ، وبالاعتماد على هذه المزاعم ، قدمت وثائق مزيفة شبه الحقيقة وتم اقتناع الباشا بأن الآغا السابق يحيى خائن ، فأمر بإعدامه .

من السهل أن ندرك ، بعد هذه التفاصيل ، بأنه لو كان يحيى ، أثناء هذه الحرب الأخيرة ، على رأس الجيوش الجزائرية لكان سير الأمور أحسن ، لأن التجربة التي حصل عليها في البر والبحر وشجاعته في جميع الحالات ، كلها كان يمكن أن تشكل ضماناً بالنسبة للجند الذي يحارب تحت إمرته .

وبما أن إبراهيم قد عين آغا خلفاً ليحيى ، بعد حادثة « البروفانس » المشؤومة ، فقد أرسل له مخطط الفرنسيين ، وأخبر بالمكان الذي كانوا ينوون النزول فيه ، كما أحيط علماً بالعدد الصحيح فيما يخص مكونات الجيش من سفن وجنود (5) : وعلى الرغم من هذه المعلومات المنجية ، فإنه لم يعد أي شيء ولم يتخذ أي نوع من التدابير ولم يعط أي أمر ، بل كان يزعم أنه عندما تطأ أقدام الفرنسيين الأرض ، سيطوقهم بالقبائل الذين لم يكونوا تحت تصرفه ، لأنه كان يجب أن يعطي الأوامر مسبقاً ، لكي يتسنى لهم أن ينتقلوا إلى الأماكن المعلومة بدون تعب ولكي يتمكنوا من صد الأعداء . وبالفعل ، فإن قدوم البعض يتطلب أسبوعاً بينما يقتضي مجيء غيرهم أكثر من ذلك . وإذا كانت

(5) يقول الباي أحمد في مذكراته : « عندما مثلت بين يدي حسين داي قال لي : لم يعد لديكم سوى ما يكفي من الوقت للخروج للفرنسيين الذين سينزلون بسيدي فرج . إنني أعرف مكان النزول بواسطة الرسائل التي تصلني من بلادهم وعن طريق منشور طبع في فرنسا وأرسله لي جواسيس من مالطة وجبل طارق (مذكرات أحمد باي الصفحة الأولى) .

جماعة تستعمل الخيل ، فإن هناك من يأتي راجلاً . أما الخيالة العرب الذين يستحقون الشهرة التي حصلوا عليها ، فإنهم يقيمون بعيداً ، في أطراف الإيالة ، كما أن هؤلاء الأبطال أيضاً ، لم يتصلوا بأي أمر . وعلى هذا الأساس فإن الجيش الذي كان يحيط بهذا الآغا لم يكن مكوناً إلا من سكان متيجة الذين لا يعرفون سوى بيع الحليب . لقد سمعت من يقول لهذا الأبله أن له تحت تصرفه خمسة آلاف سارق سيعملون ليلاً على مفاجأة الفرنسيين في جميع الأنحاء ويجعلونهم يتحاربون فيما بينهم . أما العدد الضئيل من القبائل الذين كانوا يأتونه ، فإنهم لم يحصلوا ، بالنسبة لهم ولجبلهم ، لا على مؤن ولا على ذخيرة ، وبما أنهم لم يكونوا يستطيعون حتى شراء ذلك على نفقتهم الخاصة فإنهم كانوا يودون من حيث أتوا ويتركونه وحده .

وفي سيدي فرج لم تحضر المدفعية ، ولم تحضر الخنادق ولم يكن هناك سوى اثني عشر مدفعاً كان الآغا السابق قد نصبها في بداية إعلان الحرب .

وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون مع جيشه لم يكن تحت تصرف الآغا سوى 300 فارس ، ولم يكن مع باي قسنطينة إلا عدد قليل جداً من الأجناد (6) ، لأنه لم يكن مستعداً لخوض المعركة . وكان باي التيطري (7) في المدينة

(6) يقول الباي أحمد: إنني جئت إلى العاصمة كالعادة أحمل الدنوش ، ولذلك لم أصطحب معي سوى حوالي 400 فارس . ومن جملة القادة الذين كانوا معي : ولد مفران وابن الحملاري آغا ، وشيخ ريغا وقائد الزمالة والعربي قائد ابن عاشور وشيخ بو شان .

(7) يذكر الباي أحمد أن باي التيطري كان موجوداً في الجزائر قبل النزول ، وأنه حضر مجلس الحرب الذي ترأسه الآغا إبراهيم ، وشارك في جميع المعارك وخاصة معركة سيدي فرج وسطاوي .

ولم يصل منها إلا بعد بضعة أيام ولقد سمعت أن نزول المارشال دوبرمون كان صدفة وأنه كان معرضاً لأخطار جسام لأنه أنزل الرجال قبل المؤن والمدفعية . وظلت الأمور على هذه الحال ثلاثة أيام بسبب الرياح المعاكسة التي كانت تبعث سفن النقل . وما من شك أن الجيش الفرنسي كان يمكن أن يهزم لو وقع نوع من التحضير لصعد هذا النزول . هذا بالإضافة إلى أن جيش وهران كان غير بعيد عن سيدي فرج تحت قيادة خليفة باي تلك المقاطعة ، كما أن باي التيطري كان قد أعلم الباشا بأنه يوجد تحت تصرفه 20 ألف فارس نصفهم من حملة الرماح (لأجل ذلك سمي هذا الباي : بو مزراق ،* والمزراق هو الرمح) . وباي التيطري هذا رجل وقع وذو شجاعة يغبط عليها لكنه عاجز عن قيادة جيش . وعندما وصل لم يكن معه أكثر من ألف فارس بدلاً من العشرين ألف التي كان قد أخبر عنها . كل هؤلاء الفرسان تمركزوا في سطاوي (8) ، كما جاء إلى هذا المكان الآغا مع فرقته المشهورة المكونة من أهل متيجة والتي تكلمت عنها آنفاً ، وحضر ، كذلك جنود من القبائل لكنهم سرعان ما انسحبوا إلى الدار البيضاء (9) لعدم توفر المؤن والذخائر الحربية

(8) سطاوي أو أوسه ولي (إنتركية) يقع على مسافة سير ساعة من سيدي فرج وقد وقعت فيه المعركة على مرحلتين ، جاء في أحد المخطوطات : فلما كان ليوم السبت الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة المذكورة الموافق 9 يولية قاموا (الجيوش الجزائرية) جميعاً على القرائسية وهزموهم وبددوا شملهم وأخذوا رؤوس من قتلاهم (كذا) منهم وبعثوا بها إلى مدينة الجزائر لتكون علامة دالة على النصر وإعلاناً بالفقر . . . وبعد مدة يسيرة من الأيام انهزم المسلمون وصاروا يقاتلون وهم مذبرون (انظر أحمد الجزائري : كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر) .

(9) ضاحية من ضواحي مدينة الجزائر تقع في شرقها على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من سيدي فرج .

وفي صباح كل يوم كان هؤلاء الأجناد يعودون إلى مراكزهم .

لقد لاحظ باي قسنطينة على الآغا بأن تنظيم الجيش هذا لا يسمح بأي أمل في النجاح . وفي حالة ما إذا سار الجيش الفرنسي نحو مدينة الجزائر ، فإن انسحابنا سيكون ذليلاً لها . وحسب رأيه ، فلنأمن نكون قادرين على صدّه ولا على مقاومته . كما أشار ، كذلك ، إلى أنه ليس من السياسة في شيء أن تجمع قواتنا في نقطة واحدة ، وإن من الواجب توزيعها بحيث يحمل جزء منها إلى غربي سيدي فرج ، ومعنى ذلك أن الفرنسيين إذا لاحقونا ، فإنهم سيبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر ، وسيكون ذلك لصالحنا ، إذ نستطيع أن نبدأهم بالم هجوم . وإذا قصد الفرنسيون الجزائر دون أن يهاجمونا ، فلنأمن عندها سنكون أقوى وأقدر على الدفاع عن أنفسنا والانتصار عليهم . واقترح ، أيضاً ، أن يتولى كل قائد الاعتناء بجزء من الجيش . وكان مقر القيادة الذي وقع عايه اختيارنا هو الدار البيضاء التي تفصلها عن سطاولي مسيرة أربع ساعات . وعن كل هذه الملاحظات كانت لإجابة الآغا كالآتي :

« إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي ، إنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب » . ورأى باي قسنطينة في هذه الإجابة البليدة إهانة له ، لذلك التزم الصمت ولم يسمح لنفسه بإبداء أية ملاحظة أخرى (١٥) .

كنت بنفس عثية الاستيلاء على سطاولي ، عند الآغا للتعرف على الأوضاع فتعشيت معه ، ومع باي قسنطينة وباي التيطري ، وخليفة باي

(١٥) حول هذه القضية انظر مذكرات الباي أحمد ، فإنها تشتمل على كثير من التفاصيل .

وهران ، وخوذة الخليل : في تلك الليلة اقرب مني الآغا وأسر لي الخبر الهام الذي مفاده أن فلاناً وفلاناً (مع ذكر أسماء الأشخاص) قد ذهبوا إلى مركز الفرنسيين كأنصار لقضيتهم ، يقدمون لهم تقارير كاذبة حول وضع البلاد ويطلبون منهم أن يرسلوا عن طريق البحر جزءاً من جيوشهم إلى بعض الأماكن واعدين بإيادهم بأنهم سينضمون إليهم ويقودونهم إلى حصن الامبراطور لمخادعة الجزائريين . وأضاف الآغا قائلاً : أعتقد بأن المخطط سينفذ غداً وعندما يحرمون الجيش الفرنسي إلى طريق قاحل وصعب يقوم العرب بالم هجوم من جهة ، وأتولى الهجوم من الجهة الأخرى . وفي انتظار ذلك ، وزعت على كل جندي عشرة خرتوشات .

لم أدري ماذا أقول عندما رأيت هذا الآغا يهذي بهذه الكيفية . ومع ذلك سأله ماذا يصنع الأجناد عندما يطلقون الخرتوشات العشرة ، فأجابني بأن تلك الكمية كافية لقتل نصف الجيش الفرنسي وبعد ذلك لن يكون في حاجة إلى توزيع البارود . وعندما لاحظت له بأنه كان يجب أن يحفر الخنادق لحماية الجيش والدفاع عنه أجاب بنفس الثقة : نحن تشكل الخنادق الحقيقية ومن المؤسف ألا نعرف كيف نحمي أنفسنا .

لكن ، قلت له ، لتكن هذه الخنادق على الأقل لتغطية المدفعية . إنها أمام مدفعية العدو ومن واجبكم حمايتها . على أثر هذه الملاحظة الأخيرة أعطى أمراً في الحين ، بنشر إعلان في الجيش يطلب فيه من كل عربي غير مسلح أن يأتي للآغا قصد تزويده . ونتيجة لهذا الأمر ، اجتمع عنده عدد كبير من الأجناد ، وبدلاً من الأسلحة أعطاهم الفؤوس لحفر الخنادق . وبالفعل لقد تم خلال تلك الليلة ، حفر خندق لم يستعمل في الواقع لأي شيء .

لقد سلم حسين باشا لهذا الآغا مبالغ كبيرة من الدراهم لتوزع على المحاربين لكي يسرعوا في الأعمال وتشجيعاً للجنود . غير أن هذا الآغا لم يعط شيئاً لمن وجه الداي إليهم تلك المبالغ .

و دائماً لتشجيع المعركة وإثارة طمع القبائل ، وعد حسين باشا بأنه يعطي مكافأة قدرها خمسمائة فرنك لكل من يحمل رأس أحد الأعداء . وكلف الآغا بحساب هذا المبلغ ، وجمع الإيصالات من أصحابها بعد تقديم الأدلة المقنعة . وبدلاً من أن ينفذ إرادة سيده ويدفع المكافأة الموعودة . فإنه كان يرد الجنود طالباً منهم أن يعودوا بعد المعركة لتقاضي ما لهم . ولا أدري ماذا كان مصير المبالغ الهائلة التي كانت في حوزة الآغا .

وفي صباح الغد توجه الآغا وحاشيته والمرافقون إلى المكان المسمى : سيدي فرج ، وبقي المركز شاغراً ، ليس فيه على أكثر تقدير ، إلا حوالي أربعين شخصاً لحماية الأمتعة وكانوا بدون أسلحة ولا يملكون أية وسيلة دفاعية . عندئذ إقتنعت بنفسه أن قيادة الجيش أسندت لرجل لا يعرف الفن العسكري ، واعتبرت الإيالة قد ضاعت ثم رجعت حزينة إلى الجزائر . فهل من التكتيك الدفاعي أن يترك معسكره خالياً ؟ ألم يكن عليه أن يبق في حوالي ثلث جيوشه للاحتفاظ بجنود غير متعبين يستطيع أن يدعم بهم جيوشه المنتصرة أو يسهل بهم عملية الانسحاب ؟ إن هذا التكتيك يخلق في الميدانين ، المعنوي والمادي ، نوعاً من الثقة ويلهم الشجاعة ، وإذا لم يكن كذلك وانسحب الجيش نحو خيمة فوجدها خاوية ، فإنه لا يستطيع إلا أن يهرب وكله خيبة وبأس .

ولأعطي فكرة دقيقة عن قصر نظره وعجزه ، أذكر حادثة وقعت لي خلال المدة التي قضيتها عنده .

لقد كنت ، ذات ليلة ، في وسط معسكره ، واحتجت إلى بعض الأشياء وبدلاً من إرسال أحد الخدم توجهت بنفسه إلى خيمته . فقطعت المعسكر ودخلت إليه ثم أخذت ما جئت من أجله دون أن يشعر بي أحد لأن الجيش كله كان في نوم عميق ، ولم ألاق في طريقي أي حارس يسهر على حماية المعسكر من هجوم الأعداء .

نرى من خلال كل ما تقدم فرقاً كبيراً بينه وبين سابقه يحبس آغا من حيث الوسائل العسكرية والإدارية التي كانت لكل منهما .

لقد تعودت كلما رجع يحبس آغا من الحرب أن أذهب للقائه في متيجة حيث أقضي معه يوماً كاملاً . وأتذكر ، آنذاك على الرغم من أن الوقت كان سلباً ، فإن جيشه كان أحسن تجهيزاً وأكثر تنظيمياً ، كما أنه كان أكثر عدداً من الجيش الذي نظمته لإبراهيم آغا لمحاربة الفرنسيين . لقد لُحِمَ من العادة أن يلرب مدفعيته يوماً ، وأن يستعد للدفاع كما لو كان العدو سيهاجمه . لقد كانت مراكز معسكره في نقطة دائمة : فهناك مركز يكلف بحراسة المعسكر عامة وهناك آخر خاص بالسهر على دخول الخيل وخروجها ، وأخيراً هناك ثالث يحيط بخيمته ، ويتكون من ثمانية رجال في الخارج واثنين في الداخل وواحد عند الباب ، وفي كل نصف ساعة كان حارس باب الخيمة يطلب من حارس الخارج أن يجيبه بالإشارة المتفق عليها ، ثم يتوجه حارس الخارج بنفس الطريقة إلى حارس الخيل ثم إلى حارس المدفعية ، فحارس المدفعية العام وهلم جرا ، بحيث أن المعسكر كان محروساً كأحسن ما يكون .

وعندما فقدت الإيالة يحبس آغا تنبأ كل عاقل بانهيار الجزائر ، ولم يوافق أحد على الحادث وحتى لو كان مذنباً ، فإنه ما كان ينبغي أن يستبدل إبراهيم

آغا . إنها غلطة فادحة لا تغتفر ، قد تكون هي الوحيدة التي يمكن أن يلام عليها حسين باشا خلال السنوات الثلاث عشرة التي دامها عهده . ولقد كان لهذه الغلطة تأثير ما الكبير خاصة وأنها وقعت في الوقت الذي كنا فيه في حرب مع فرنسا . وإن الذي ارتكبها أمير برهن على كثير من الاعتدال والعدل بحيث أننا لم نكن ننتظر منه مثل هذا العمل .

وهكذا ، إذن ، كان إبراهيم آغا يريد محاربة الفرنسيين بدون جيش منظم ولا ذخيرة حربية ولا مؤن ، ولا شعير للخيول وبدون أن تكون له المقدرة الضرورية للقيام بالحرب .

وعندما وقعت هزيمة سطاوي ، غادر هذا الآغا المعسكر وكله يأس كما لو أنه فقد رأسه لقد ترك كل شيء : الخيم ، فرق الموسيقى ، الاعلام وجيشه بأكمله . ولو أن بورمون سير جيوشه في ذلك اليوم ، إلى حصن الامبراطور لما لاقى أية صعوبة .

وبعد ذلك بيومين دعاني حسين باشا لمعرفة حقيقة الأمور فأجبت قائلاً : إن الحرب حظ مخطر ، ولا يحق للقائد أن ييأس ، لأن يأسه يؤدي إلى الهزيمة النكراء ، والقضية الظالمة يمكن أن تصبح عادلة ، إذا توفرت لها المقاومة والصمود .

عندئذ تكلمت له بكل صراحة عن سلوك صهره إبراهيم آغا المخزي ، وهو ما لم يجرأ أحد على فعله قبلي ، فكلفتني بالذهاب إليه وتشجيعه . وإلزامه بجمع جيشه وبعث التفكير في الماضي ، وعندما وصلت إليه ، لم أجد إلاّ بعض الجنود المشتتين هنا وهناك ، وبعد بحث طويل تمكنت من العثور عليه في دار

رفيقية كان يختفي فيها مع ثلاثة أو أربعة من خدمه . وبمجرد ما وجهت له الكلام علمت أنني لا أناطب رجلاً وإنما طفلاً لما كان يديه من ضعف وقنوط وبأس . ولذلك ضاعت كل محاولة مني لتحسيسه ورأيتني مجبراً على الرجوع إلى الداي الذي قال لي عندما أعلمته بسيرة صهره وبالجهد التي بذلتها للعثور عليه : « إنكم ذهبتُم يخلوكم الأمل ، ورجعتم دون أن تنجح مساعيكم » . عندئذ أجبتُه بأن الشعب ليس إلاّ قطعياً ، ولا بد له من راع ، وإن شعبكم بدون راع والعدو يتقدم .

كان الجيش بدون قائد ، والقبائل يجهلون في أي مكان يختفي . وعليه ، لم يبق إلاّ تسليم المدينة للفرنسيين . لم يكن الباشا يعرف أن الآغا رعديد وكان يظن أن له مقدرة أكبر من التي أظهرها . ولذلك طلب مني أن أرجع إليه وأرغمه على العودة إلى معسكره . وفعلاً تبغني رغم أنفه ، وجمعنا ما أمكننا من الجنود الذين كانوا مجهزين ومستعدين ، وعلى الرغم من أنني كنت على يقين - مسبقاً - من أننا لن نتمكن من فك حصار المدينة والدفاع عنها ، فلأني بذلت كل ما في وسعي لأداء هذه المهمة .

وعندما تحرك بورمون في سطاوي انهزم الآغا وجيشه لتوهما ولم يعرف أحد إلى أي مكان تم الانسحاب .

وفي هذه الحالة دعا الباشا المفتي (II) (شيخ الإسلام)، فسلمه سيفاً وطلب

(II) في هذا الصدد يقول أحمد الجزائري : « وفي هذا الوقت (أي بعد هزيمة سطاوي) أمر حضرة الباشا بإحضاري لديه ليخبرني بما حصل لعساكر المسلمين من الهزيمة ، فأخبرت في تسلية خاطره ... فنهض حتى قام أمام المهزومين وأخذ يحثهم على القتال ، ويحلوهم

منه أن يجمع الشعب للدفاع عن البلاد . ولكن من سوء الحظ ، كان الأوان قد فات ، وعند الغروب كان الجيش الفرنسي قد اقترب من حصن الامبراطور .
إن شيخ الإسلام رجل عادل ، فاضل ولكنه بعيد عن أن يكون محارباً ، وفي مثل هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً .
إن أعضاء الدواوين والفقهاء لا يهتمون إلاّ بالعلوم والفوائن ، وهم أحسن لإعطاء النصائح من أن يقوموا بالأعمال ، وبما أنني كنت على اتصال بهذه الشخصية فإنه دعائي ، كتابة للتوجه إليه ، وكان جوابي : أنه لم يبق أي أمل بالنسبة لهذه القضية . إن هلاكنا محقق ولا أريد أن أشهد مثل هذه الكارثة المفضجة .

لم يكن المشاة منظمين ، فما بالك بالمدفعية ، ولا ندرى كيف يمكن أن نأمل في تحقيق النجاح ؟ ولقد كان ذلك ممكناً لو تم تعيين رجل محارب لقيادة الجيش ووضعت تحت تصرفه عشرة آلاف من القبائل مع الأمر بإعطاء كل واحد 10 بوجوات (18 فرنكاً) يومياً لتشجيعهم . عندئذ يوجه هؤلاء القبائل إلى مختلف النقاط لسد الطرق الرابطة بين سطواوي ومقر قيادة بورمون . وكان من الواجب أيضاً أن يوضع تحت تصرفهم كل أنواع الذخائر التي يمكن أن يحتاجوا إليها . لقد كان النصر مرهوناً فقط ، بمثل هذه التدابير . ولكن الأميين الذين كانوا يحيطون بالمفتي لاحظوا بأن حمدان عميل للفرنسيين : سافر إلى بلدهم وأعجب بعاداتهم ، وعليه يجب الاحتراس منه . وأخيراً قيل بأنه لو

من عاقبة الفرار حتى ردهم إلى الحرب ، فساروا إلى أن وصلوا إلى الموضع المسمى العين الزرقاء ، وكانت الفرنسيين هناك ، فوقعت العين على العين والتحم القتال بين الفريقين ، فلم تمض لحظات من الزمن حتى انهزمت الفرانسوية وولوا مدبرين ، وتمادوا على هزيمتهم حتى وصلوا إلى الموضع المسمى سيدي فرج وأقاموا به (انظر نفس المصدر) .

نبيين ، بينما نحن نكون أشد قوة ونشاطاً لحماية أنفسنا وهزمهم وتضليلهم .
ثم اقترح أحمد باي - أيضاً - أن يأخذ كل قائد حصّة كتيبته من الميرة ويلتزم بتدوينها . وخاطب الآغا بقوله : إن مكان اجتماع القواد الذي اخترناه أن يكون بالخراس بعيد عن محيما باسطواوي ، وأن المسافة بين المكانين تستغرق أربع ساعات مشياً .

وبعد كل هذه الملاحظات كان جواب الآغا ما يلي : « إنك لا تعرف الخيل الحربية للأوروبيين ، فهي مخالفة - تماماً - لخيل العرب » . فتأثر الباي بهذا الجواب الغبي ، وقرر أن لا يبدي أية ملاحظة أخرى في المستقبل ، وفي الليلة التي استولى الفرنسيون على اسطواوي ، كنت موجوداً لدى الآغا ، بقصد الإطلاع على أوضاع الأمور . وقد تعشنا جميعاً مع باي قسنطينة وباي تبطري وملازم باي وهران وخوجة الخيل . وفي نفس هذه الليلة اقترب مني مني الآغا وسارني بخبر هام جديد . وهو أن فلانا وفلاتا (وقد سمي لي هذين الشخصين) قد تقدما إلى معسكر الفرنسيين ، منظاهرين بالانقياد إلى صفو فهم والعمل بجانبهم ، وأنها أتيا ليقدموا إليهم تقاريراً عن حالة البلاد . ثم بحثناهم على ارسال قسم من جنودهم - عن طريق البحر - إلى المكان الفلاني ... والمكان الفلاني ... وسيجدونها في انتظارهم - عند نزولهم من المراكب - بالأماكن المحددة ، ليسيروا بهم إلى « برج مولاي حسن » ، وبوهمانهم بأن هذه الخطة سيخضعون بها يقطعة الجزائريين . ثم تابع الآغا مسارته بقوله : أعتقد أن هذه الخطة مستنفذة غداً ، وعندما يحل الجيش الفرنسي بسيره إلى طريق وعمر صعب ، ينقض عليه العرب من ناحية وأنا (بجيتي) من ناحية أخرى . ومن أجل ذلك فاني قد زودت كل جندي من الجيش بعشر فشكات . وعندما رأيت هذا الآغا بهذا الشكل لم أجده ما أقول له ، بيد أنني سألته : ماذا يصنع هؤلاء الجنود بعدما يستنفذ كل منهم تلك الفشكات العشر ؟! فأجابني : إن هذه الكمية لكافية لقتل نصف الجيش الفرنسي ، ولست بحاجة إلى توزيع البارود على الجنود . ثم نهته أنه كان من الواجب

عليه أن يأمر بحفر خنادق لحماية جيشه . فأجابني - بنفس الجرأة - : إننا - نحن - الخنادق الحقيقيون ، وسنكون نساء إذا عجزنا عن حماية جيشنا . فقلت له : ولكن هذه الخنادق ستحمي على الأقل عمل المدافع المواجهة للمدافع العدو . وبناء على هذه الملاحظة الأخيرة أمر - حالا - أن يدافع في صفوف الجيش أن الآغا يدعو جميع العرب الذين ليس لديهم سلاح أن يحضروا عنده ، ليوزع عليهم السلاح . وبعد هذا الاعلان اجتمع لديه عدد كبير من الجنود ، وبدل أن يوزع عليهم السلاح ، أعطى كل واحد فأسا . وأمره أن يشرع في حفر الخندق . وقد أتموا حفر هذا الخندق في تلك الليلة ، ولكنه قد فات أوانه ، وأصبح عديم الجدوى . وكان حسين باشا قد وضع في يد هذا الآغا مبلغا ضخما من المال . ليوزعه على المحاربين بقصد الحث على القتال ، وتشجيع الجنود ؛ بيد أن هذا الآغا لم يدفع شيئا إلى هؤلاء الذين قد خصتهم الداي بهذا المبلغ . ودائما من أجل الحث على القتال وتبجيل الجشاعة في نفوس القبائل ، قد وعد حسين باشا أيا من يأتي منهم برأس أحد الأعداء ، سيكافئه بمبلغ قدره خمسمائة فرنك . وقد كلف الآغا بأن يقوم بإحصاء المبالغ التي يدفعها إلى المتصدين بعدما يتسلم منهم أوصالا من لدى الداي ، غير أن الآغا لم يطبق لإرادة رئيسه ، ولم يدفع حالا هذه المكافأة الموعود بها لمستحقيها ، بل أخذ يسوّف الجنود بقوله لهم : ستقدسون بعد انتهاء المعركة لأخذ نصيبكم . وأجهل تماما مصير كمية الأموال الضخمة التي كانت موجودة بيد الآغا .

وفي صبيحة اليوم التالي (من استيلاء الفرنسيين على اسطوالي) توجه الآغا بأتباعه وأشياعه إلى مكان « سيلدي فرج » ، وتركوا المعسكر شاغرا ، ما عدا أربعين شخصا - على الأكثر - ، بقوا هناك يحرسون الأمتعة بدون سلاح وبدون أية وسيلة تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم . ومن ذلك الحين اقتنعت وتأكدت بأن تسيير الجيش قد أسند إلى رجل ليس له أية معرفة بالنظام العسكري ، فعندئذ عدت إلى مدينة الجزائر حزينا ، متيقنا بأن الإيالة قد ضاعت (من أيدي أهلها) .

وهل من الخيل الحربية أن يهمل (هذا الآغا) معسكره؟ أليس من راجبه أن يترك هناك زهاء الثلث من جيشه ، ويقتي فصائل مرتاحين ليتمكن بهم من تعزيز جيشه المنتصر ، أو على الأقل يدعم بهم جيشه عند تفهقره ؟! وأقولها - بالقلب والقلب - : إن هذه الخيلة الحربية لتمنح الثقة وتوحي بالشجاعة. وفي حالة انعكاس القضية ، أي : إذا تفهقر الجيش عائدا إلى معسكره ووجد هناك جميع الخيام فارغة ، فلم تبق له أية وسيلة ، سوى الفرار واليأس . ومن أجل إعطاء فكرة مضبوطة عن غفلة هذا الآغا وعدم كفاءته ، فاني سأقص حادثة قد وقع لي في غضون الأيام التي قضيتها بجوانبه : ففي إحدى الليالي قد وجدتني في سرّة معسكره ، فاحتجت إلى شيء في خيمته ، وبذلك أن أرسل الخادم في طلب ذلك الشيء ذهبت أنا بنفسني ، فاختارت المعسكر ثم دخلت الخيمة وأخذت الشيء الذي أتيت من أجله ، دون أن ينتبه إلي أي شخص ، وكان الجيش كله في سبات عميق ، ولم أصادف في طريقي حارسا واحدا يراقب هجوم العدو .

وبناء على ما تقدم نلاحظ أن بين هذا الآغا وبين سابقه : يحي بونا شاسعا ، من حيث كفاءة كل منهما ، سواء في الميدان العسكري أو التنظيم الإداري . وكان من عاداتي أن أذهب إلى لقاء يحي آغا بمتيجة ، عند عودته من الحرب ، وهناك أقضي معه يوما . واني أتذكر حينذاك - رغم وقت السلم - أن جيشه قد كان مجهزا أفضل تجهيز ، ومنظما تنظيما أحسن من جيش إبراهيم آغا المهيم لقتال الفرنسيين . وكان من عادات يحي آغا أن يقوم كل يوم في جيشه بغارات وهمية ، وتحركات تدريبية لجنوده ، فيضعهم في حالة الدفاع ، ويحعلهم يفترضون أن العدو يوشك أن يباغتهم بالمجوم . وكانت مراكز الحراسة لمعسكره دائما بقطة حذرة . فأحد هذه المراكز مكلف بحراسة المعسكر كله ، وآخر خاص بحراسة الخيل ، من حيث دخولها وخروجها ، وآخر

وهل من الخيل الحربية أن يهمل (هذا الآغا) معسكره ؟ أليس من راجه أن يترك هناك زهاء الثلث من جيشه ، ويبقى فصال مرتاحين لينتمكن بهم من تعزيز جيشه المنتصر ، أو على الأقل يدعم بهم جيشه عند تفهقره ؟

وأقول - بالقلب والفأل - : إن هذه الخيلة الحربية لتمنح الثقة ونوحي الشجاعة وفي حالة انعكاس القضية ، أي : إذا تفهقر الجيش عائداً إلى معسكره ووجد هناك جميع الخيام فارغة ، فلم يبق له أية وسيلة ، سوى الفرار واليأس . ومن أجل إعطاء فكرة مضبوطة عن غفلة هذا الآغا وعدم كفايته ، فإني سأقص حدثاً قد وقع لي في غضون الأيام التي قضيتها بجانبه : ففي إحدى الليالي قد وجدتني في سرّة معسكره . فاحتجت إلى شيء في خيمته ، وبدا لي أن أرسل الخادم في طلب ذلك الشيء ذهبت أنا بنفسي ، فاخترقت المعسكر ثم دخلت الخيمة وأخذت الشيء الذي أتيت من أجله . دون أن ينتبه إليّ أي شخص ، وكان الجيش كله في سبات عميق . ولم أصادف في طريقي حارساً واحداً يراقب هجوم العدو .

وبناء على ما تقدم نلاحظ أن بين هذا الآغا وبين سابقه : يحي بونا شاسعاً ، من حيث كفاءة كل منهما ، سواء في الميدان العسكري أو التنظيم الإداري .

وكان من عادتي أن أذهب إلى لقاء يحي آغا بمنتجعة ، عند عودته من الحرب ، وهناك أقضي معه يوماً . وإني أتذكر حينذاك - رغم وقت السلم - أن جيشه قد كان مجهزاً أفضل تجهيز ، ومنظماً تنظيمياً أحسن من جيش إبراهيم آغا المهدي لقتال الفرنسيين . وكان من عادات يحي آغا أن يقوم كل يوم في جيشه بغارات وهمية ، وتحركات تدريبية لجنوده ، فيضعهم في حالة الدفاع ، ويجعلهم يفترضون أن العدو يوشك أن يباغتهم بالمجوم . وكانت مراكز الحراسة لمعسكره دائماً يقظة حذرة . فأحد هذه المراكز مكلف بحراسة المعسكر كله ، وآخر خاص بحراسة الخيل ، من حيث دخولها وخروجها . وآخر

(١) أمير : هو حسين داي .

فيما مضى . فذهبت إليه . فلم أجده . بل وجدت جنوده مشتتين يميناً وشمالاً . ولكن - بعد البحث الطويل - استطعت أن أعثر عليه في أحد منازل الريف . مخفياً مع أربعة أو خمسة أفراد من خدمه . وعندما كلمته تبين لي أنني لم أكلم رجلاً . وإنما أكلم صبياً . كثيراً ما أظهر القشل والتعوط . فمن العيب - إذن - أن أبذل ما في وسعي من أجل إلهامه إلى الشهامة ، وحده على العزم . ورأيت من الأفضل أن أعود أدراجي إلى الداي . وعندما أطلع هذا الأخير على سلوك صهره وتصرفه قال لي : « لقد ذهبت متعشياً بالأهل ، وعدت دون أن تحقق أقل نجاح لمساعدتك » . فمتندد أجبت : « إن الرعية بمثابة القطيع ، والقطيع لا يذله من راع وها هي رعيتهك يدور راع . وها هو العدو يتقدم » . فقد أصبح الجيش بنون قائد ، وأمسى القبائل يجهلون المكان الذي يختفي فيه هذا القائد . فلم يبق - إذن - سوى تسليم المدينة إلى الفرنسيين . والباشا لم يكن يعرف أن الجيش من شيم هذا الآغا . بل كان يعتقد فيه أكثر مما يستحقه . ولهذا أمرني أن أعود إليه - مرة ثانية - وأبذل وسعي حتى يعود إلى معسكره . فعدت إلى الآغا الذي امتثل أمرني على مضض ، وجعلنا ما استطعنا جمعه من الجنود القليلين الذين كانوا حاضرين مجهزين . ورغم أني كنت متأكداً - مسبقاً - بأننا لا نستطيع فك الحصار ولا حماية المدينة . ومع ذلك فإني بذلت جميع في ما وسعي من أجل أداء هذه المهمة . وبعد تحرك جيش « بورمون » بأسطواني أصبح الآغا وجنوده تقريباً مشتتين ، ولم يعلم أي شخص أين انسحبوا . وفي هذا الوقت دعا الباشا المفتي : شيخ الاسلام ، وأعطاه سيفاً بمأمرة أن يجمع الرعية من أجل الدفاع عن حوزة الوطن . ولكن في الأسف ! فقد فات الأوان . وأصبح الجيش الفرنسي على مقربة من « برج مولاي محسن » وقت الغروب من هذا اليوم . إن شيخ الاسلام رجل عادل وذو جدارة واستحقاق . ولكنه بعيد عن أن يكون رجل حرب . فيصعب عليه أن يقود جيشاً في وقت حرج . كما لا يستطيع أن يردّ العدو .

إن رجال العلم وأعضاء القضاء لا يهتمون سوى بالعلوم والقوانين ، فهم في ميدان الاستشارة والنصائح أفضل منهم في ميدان العمل الحربي . وبما أنني كنت مرتبطاً بهذه الشخصية (شيخ الاسلام) استدعاني بواسطة بطاقة كمي أحضر لديه . فكان جوابي له : « لم يبق أمل في هذه القضية ، فحسرتنا لا مفر منها ، وأنا لا أريد أن أكون شاهداً عياناً لكارثة مفزعة » . فالعساكر المشاة لم يكونوا منظمين . والمدفعيون أقل منهم تنظيماً . إذن فكيف يؤمل في بعض النجاح ؟ بل بالعكس .

فكان من الواجب أن يعين لقيادة الجيش رجل ذو خبرة وحكمة . وتوضع تحت تصرفه عشرة آلاف من رجال القبائل ، فيدفع لكل جندي منهم عشرة « بودجوات » (ثمانية عشر فرنكاً) في اليوم : بقصد تشجيعهم وحثهم على القتال . ثم تتوجه تلك القبائل إلى مختلف الأماكن (الاستراتيجية) ليقطعوا الطريق الرابطة بين اسطوالي وبين معسكر القائد « بورمون » . وكان من الواجب - أيضاً - أن يوضع تحت تصرف الجيش الجزائري جميع أنواع الأسلحة الممكن احتياجهم إليها . فيغير أمثالي هذه الخطة لا يمكن أن يتحقق النجاح . وكان الأشخاص الجهلاء الموجودون في حوزة هذا المفتي : قد لاحظوا : « أن حمدان أصبح رجل الفرنسيين ، لأنه سافر إلى بلادهم وأعجب بنظامهم . وعلى هذا الأساس يجب الاحتراس منه » . ثم ختموا كلامهم بقولهم : « إذا قطعت الطرق على الفرنسيين المغناضين ، فإنهم سيعملون على إرهابنا ويحملون علينا حملة رجل واحد ، انتقاماً لأنفسهم من أجل العراقل التي وضعناها في سبيلهم » . وفي الغد أدرك الباشا أن تخميني في ابراهيم آغا قد تحقق . وتبين له أن هذا الآغا لم يكن سوى رجل ساقط لا قيمة له . ثم عزل ابراهيم آغا وسمى باي تيطري آغا في منصبه . ولكن لا فائدة في استبدال هذا بذلك ، فلو أن يحيى آغا نفسه الذي ذكرته أعلاه قد عاد في هذه الظروف وأسند إليه أمر الجيش ، ما استطاع أن يغير شيئاً في الأوضاع ، لأن الحالة قد تأزمت والأفكار أصبحت مضطربة ، فلم يبق اتساع في الوقت لابتعاد الوسائل التي يمكن بها

الدفاع عن الجزائر . ثم إن الآغا الجديد قد دخل منزله بهدوء واطمئنان ليجمع غنائمه . وقد بلغني أن نبوغ هذا المحارب (الآغا الجديد) كان محصوراً في اختياره للبيادق الطويلة ، ليستعملها - هو نفسه - في إطلاق الرصاص على الفرنسيين !! وفي هذه الحالة ظن حسين باشا أن من الواجب إرسال الجزائري إلى « برج مولاي حسن » . وكل ما كان يطمح إليه هذا الرجل هو أن يستطاع نسج دسيسة تمكنه من كسب جميع الإنكشارية وجعلهم تحت أمره . ثم الإطاحة بحسين باشا ليستولي على الحكم . وعلى هذا الأساس قد وضع مشروعاً يهدف إلى إبرام صلح مع الفرنسيين بالشر وطالتي يريدون اشترائها ، كما أنه سيوقف نشيطاً بجانبهم : عندما يتحرك جيشهم صوب « برج مولاي حسن » . وحينئذ رأى (الجزائري) هجوم الفرنسيين عليه : أضاع شجاعته : واستولى عليه الرعب إلى غاية أنه ذهب ونسي أن يغلق أبواب البرج . أما أتباعه فقد أصبحوا أكثر منه ذعراً ، فراحوا يفتشون عن جميع الوسائل التي تمكنهم من الفرار بأنفسهم . ثم لما رأى الجزائري أنه بقي - تقريباً - وحيداً في وسط هذا الخطر المهدد ، هرع في الحين إلى ذرّ مادة البارود في خط يربط مكان وجوده بمستودع البارود ، ثم أضرم النار في المادة فتسربت إلى المستودع ، فانفجر ونسف البرج . وكان من حسن الحظ أن ينفجر المستودع الصغير ، دون الكبير الموجود أسفله . إذ لو انفجر هذا المستودع لكانت المدينة تقاسي أكثر مما قاسته ، بسبب احتوائه على أكبر كمية من البارود . وقبل هذه الحادثة كانت لحسين باشا فكرة سامية في هذا الجزائري ، إذ كان كثيراً ما يستشير ويأخذ برأيه .

وعندما دخل « بورمون » « برج مولاي حسن » جمع حسين باشا جميع أمناء البلاد ووجهائها : ورجال التشريع الخ ... وشرح لهم الحالة الخطيرة التي توجد فيها مدينة الجزائر . ثم طلب منهم أن يبدوا نصائحهم : من أجل إيجاد وسيلة مفيدة لمعالجة الضرر . فقال لهم : « أصدقائي ! لا جناح عليكم أن تعبروا - بصراحة - عن آرائكم : ففي مثل هذه الظروف قد

قد أصبح التشاور وتداول الآراء شيئاً واجباً، بالنسبة إلى النظر في الوسائل الأكثر تأثيراً ونجوعاً. ولست سوى واحد منكم. فماذا ترون؟ فهل يمكن لنا أن نقاوم الفرنسيين مدة طويلة، أو نسلم لإيهم المدينة بعد إبرام معهم معاهدة تعرف بـ «معاهدة التسليم»؟ فهذه الاسئلة قد أوقعت أعيان المجلس في حيرة؛ لأنهم يجهلون ما يمكنه هذا الباشا، أهو صريح معهم فيما فاه به؟ أم تكلم بذلك من أجل سبر أغوار آرائهم؟ وكذلك كانوا يخشون أن الباشا لا يريد بهذه الاسئلة سوى معرفة مدى تأثير النشرات التي أطلقها «بورمون» في صفوف الرعية بالجزائر (وسأحدث - فيما بعد - عن جميع هذه النشرات) وكانوا يعتقدون أن من الواجب إخفاء آرائهم في مثل هذه الظروف. وأنهم يخشون بعض تأثيرات الداي وإغاضته؛ إذا هم أبدوا رغبتهم في السلم. ولذلك كان الجواب العام كما يلي: «إننا نقاتل حتى آخر شخص منا؛ بيد أنه إذا كان سمرقكم بفضل وسيلة أخرى، فلكم الكلمة العليا والأمر المطاع فيما ترونه ملائماً. ونحن نحت أمركم وعند إرادتكم».

ثم افترق المجلس بنية متابعة القتال. ومع ذلك، فيجب الاعتراف بأن انتشار النشرات باسم الدولة الفرنسية، التي عرفت بالشهامة والعدالة، قد ساهم كثيراً في استعمال الرعية، وجعل الأشخاص البصراء المعتدلين يفكرون في تفضيل الوسائل السلمية. وبعدها أمعنوا في التفكير قالوا فيما بينهم: «إننا دون أن نعرض حاكم البلاد للخطر، يجب علينا - في نفس الوقت - أن لا نجتمع إلى أقصى التشديد المؤدي بالمدينة وسكانها إلى الخطر الكبير».

وبعد هذا التعقل يسهل علينا أن ندرك أن أعيان البلاد لم يكونوا يخشون أنهم سيصبحون رهن الظلم والسلب والتقتيل. وأو خشوا ذلك لقاتلوا الفرنسيين بكل ما يملكون من قوة وسالة؛ بل لو كانوا يفكرون أنهم سيرون الفرنسيين يعاملوننا مثل معاملتهم إيانا الآن لضحوا بالكل في سبيل الكل، لأن منافع الحرب - كما أننا المؤرخون - رهينة الاستبسال ووضع حياة النفوس في أكف الأخطار. فالحياة السعيدة - على هذه البسيطة - محفوفة بالمصائب

العظيمة، ومن أراد شراءها فعليه أن يدفع ثمنها من دمه الخاص. ولذلك يقول القدامى: «من لا يغامر لا ينال شيئاً». وهكذا - إذن - أصبحت جميع قوانا - التي كان في إمكاننا أن نبدلها - مشلولة. بسبب موجة هذه النشرات الكاذبة، التي لا دخل لها في الحيل الحربية، إذا كان المقصود منها إعطاء كلمة الشرف والتعبير عن النية الحسنة. وكانت هذه النشرات تضم مواعيد حقيقية قطعية: نستطيع أن نجهر بأن الفرنسيين لم يوفوا بها. وذلك يعتبر ارتكاباً لخطيئة سياسية.

وفي نفس الليلة اجتمع عدد من أعيان الجزائر بـ «برج باب البحرية». وكان هؤلاء الأعيان يتألفون من تجار وأصحاب رؤوس أموال. فاتفق لهم أن يحسروا مدينة الجزائر شيء محتم لا مفر منه، وأن الفرنسيين متى دخلوا بالقوة واستولوا على المدينة عنوة، فإنهم لا يكفون عن السلب والنهب. وقتل جميع السكان. بما فيهم النساء والصبيان، دون مقاومة. فمن الأحسن أن نأخذ باقتراحات الداي السلمية التي ترمي إلى إبرام معاهدة تسليم البلاد بشروط نعقدتها مع قائد الجيش الفرنسي. وفي اعتقادنا أن دولة (مثل فرنسا) ذات سيادة واحترام، لا تسمح لها مكانتها بمخالفة هذه الشروط أو خرق تلك المعاهدة؛ بل سوف نصبح تحت جناحها نتمتع بالحرية وننعم بالعدالة والإنصاف.

ليحكمنا زيد أو عمر! أي منهما على السواء. فالمهم أن تكون شؤوننا مدبرة على أحسن ما يرام، وحسبما تقتضيه أسس الحكومة الفرنسية؛ ولكن هل يبقى ديننا محترماً؟ إن الدين أمر معنوي يتعلق بالعقل والقلب، فلا نتجادل فيه. ثم إن الفرنسيين بشر مثلنا، والأخوة البشرية قد جمعنا معهم. وإذا كانت المدنية قد أسست على حقوق الإنسان. إذن فلا شيء يخيفنا من حكومة متملنة.

وهكذا كانت انعكاسات أفكار هذا المجلس. التي انتهت بقرار يقضي بعدم مقاومة منهم للجيش الفرنسي.

نعم ، كان من واجبتنا أن نفضل حكومة الأتراك ، لأننا قد جمعنا وإياهم دين ورحد ، ولكن الظروف قد أجبرتنا أن نستبدل بها الحكومة الفرنسية ، التي وعدتنا باحترام ديننا وعوائدنا وأرزاقنا . وإذا لم نفعل ذلك أصبحت حياتنا في خطر ، ودمائنا ودياننا وأرزاقنا مسلوقة ، ونساؤنا وأطفالنا مقتولين . وكثرة هذه الاعتبارات قد جعلتنا نفضل إبرام معاهدة السلم ، وقد تم ذلك بالفعل . ثم أرسل هذا المجلس - في الحين - وفدا إلى القصة لإطلاع الداي على هذا المشروع ، فكان جوابه لهم : انه سينظر في القضية ، وغدا سيجيبهم عن رغبتهم التي تقدموا بها إليه .

وفي الغد أرسل - بالفعل - « المكتابي » مرفوقاً بالقتل الانجليزي ، كرسول صلح وسبدي (أحمد) أبي ضربة وولدي الحاج حسن . وهذان الأخيران أرسلهما كترجمين ، لأنهما يحسان اللغة الفرنسية . (وكان إرسال هؤلاء الأشخاص الثلاث) من أجل أن يتقدموا إلى القائد العام ليدخل في المفاوضات مع الداي .

وكان هذا المكتابي شريكا مع الخزناجي في التهمة التي تحدثنا عنها أعلاه . ولذلك أراد أن يخدع الداي ، ويستبد هو بالمفاوضة مع القائد العام ، بنية رفع الخزناجي إلى منصب الداي ، وبهذه المناسبة تجاسر على هذا القائد وعرض عليه أن يأتيه برأس حسين داي ، ثم يوقع - هو - مع فرنسا معاهدة ، حسبما تقتضيه رغباتها . فأجابه القائد « بورمون » بقوله : « ما أتيت من أجل تشجيع الاغتيالات ، وإنما أتيت من أجل خوض الحرب نعم سأوافق على اقتراح حسين باشا الذي طلب إبرام معاهدة السلم وسأرحب بمشاعره الانسانية ، التي دفعت به أن يستعمل هذه الوسيلة ، لكي يحقن كثيرا من الدماء » .

وهكذا تمت محادثة المعاهدة بنجاح ، واتفق الطرفان على تحريرها بالنمط التالي :
أولا : إن جميع حصون مدينة الجزائر بما فيها حصن القصبة ، وكذلك ميناء هذه المدينة ستسلم إلى الجيش (الفرنسي) صباح هذا اليوم في الساعة العاشرة (بتوقيت فرنسا) .

للاتصال بقائد الجنرالات والتفاوض معه .

كان هذا المقطاعي على علم بؤامرة الخزناجي التي أشرنا إليها أعلاه ، ولذلك أراد بكل مكر أن يتفاهم مع قائد الجنرالات لرفع الخزناجي إلى مرتبة داي واقترح على قائد الحملة أنه يحمل إليه مقابل ذلك رأس حسين داي ثم يبرم مع فرنسا معاهدة تكون حسب رغبتها ولكن الجنرال بورمون أجابه قائلا : « إنني لم آت لتشجيع القتالين وإنما لأحارب . وإنني لا أَرْضَى باقتراح حسين باشا الرامي إلى تحديد شروط الاستسلام . إنني متهيج لهذه العواطف الإنسانية ، لأنه بعمله هذا يمنع سفك كثير من الدماء » . وهكذا اذن وقع النقاش حول الاستسلام ، وتم الاتفاق عليه من الطرفين كما يلي :

الفاقية بين قائد جنرالات الجيش الفرنسي وسمو داي الجزائر :

1 - سلم حصن القصبة وجميع الحصون الأخرى التابعة للجزائر وكذلك ميناء هذه المدينة إلى الجيوش الفرنسية ، هذا الصباح على الساعة العاشرة (حسب توقيت فرنسا) .

2 - يتعهد قائد جنرالات الجيش الفرنسي بأنه يترك لسمو داي الجزائر حريته وكذلك جميع ثرواته الشخصية .

3 - الداي حر في الانسحاب مع أسرته وثرواته الخاصة إلى المكان الذي يحدده ، وسيكون هو وكامل أفراد أسرته تحت حماية قائد جنرالات الجيش الفرنسي ، وذلك طيلة المدة التي يبقاها في الجزائر ، وستقوم فرقة من الحرس بالسهر على أمنه وأمن أسرته .

4 - يضمن قائد الجنرالات نفس المزايا ونفس الحماية لجميع جنود الميليشيا .

5 - تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة ، كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات ولا على دينهم وأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم ، ونساؤهم سيحترمن .

إن قائد الجيوش الات يتعهد بشرفه على تنفيذ كل ذلك . وأن تبادل هذه الاتفاقية سيتم قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح ، وبعد ذلك مباشرة تدخل الجيوش الفرنسية إلى القصبة ثم إلى جميع حصون المدينة والبحرية .

في المعسكر المخيم أمام الجزائر ، يوم 5 جوليت سنة ثلاثين وثمانمائة وألف.

إمضاء : كونت دوبورمون

خاتم حسين باشا ، داي الجزائر

وعندما علم العرب والقبائل بدخول الجيش الفرنسي إلى الجزائر ، ظنوا أنه فعل ذلك عنوة لا عن طريق المفاوضات ، واعتقدوا ، كذلك ، أن المدينة هبت ، ولذلك قاموا بدورهم ينهبون ويخربون ديارنا في البادية حتى لا يستفيد منها الفرنسيون على حسابهم . وهكذا ، أخذوا كل ما يمكن حمله : المواشي ، الخيل ، البغال ، الخ . . . وأشعلوا النيران في المخازن ، وكسروا جرار الزيت والزبد ، ثم اصطحبوا معهم كل ما قدروا على نقله حتى لا يتركوا شيئاً للفرنسيين . وبدورهم ، قام هؤلاء الأخيرون باقتلاع سياجات الحديد ، وتهديم الحمايات وحملوا إلى الأسواق ما تبقى من أشياء فباعوها أمام أعيننا ، وبذلك يكون الفرنسيون قد اتبعوا طريقة البرابرة ، بل لمنهم كانوا أكثر فساداً ، لأنهم هدموا ما كان مبنياً وخربوا ما كان موجوداً .

لقد كان العرب والقبائل يعلمون أن نتيجة كلها كانت ملكاً لسكان الجزائر ولذلك نهبوا وخربوا كل ما كان في متناولهم . وسأعود ، فيما بعد إلى الكلام عن هذا الحادث المؤلم .

الفصل الثالث

عن تفاصيل دخول المارشال بؤرمون إلى الجزائر

لقد قام كثير من الضباط الفرنسيين بوصف الظروف التي غادر فيها
الذي وحاشيته القصة ، ولذا أوردوا ذلك في مؤلفاتهم ، فإنهم كفوني مشقة
وصف تلك الاحتفالات ، وسوف لن أهتم إلا بالخاصيات التي وقعت ، والتي
أملت .

عندما غادر القصة ، لم يمس حسين باشا أي شيء مما هو تابع للخزينة
لعامة ولم يسمح لأحد بأن يفعل ذلك . لقد كان يرى نفسه مسؤولاً حسب
شروط الاستسلام عن كل ما يمكن امتلاكه . وبذلك لم يؤخذ أي شيء من
كنوز الجزائر ، واستطاعت فرنسا أن تتسلمها كاملة .

كان يوجد من القصة صندوق مستقل يشتمل على حوالي 20,000
فرنك لإداء النفقات اليومية النافهة ، وكان صاحب هذا الصندوق يقيم حساباً
جائزاً كما سنرى ذلك فيما بعد . أن هذا المبلغ قد ضاع ، على حد ما يقال ،
ولا تدري من الذي أخذه . أما المحفوظات حيث كانت الدفاتر والسجلات
مودعة فإنها ظلت محترمة . وكان هناك مكان توجد فيه ورقات طائرة عليها

معلومات معدة لتسجيل في الدفاتر اليومية وفي دفتر المقتاضي كما بينا ذلك أعلاه . ولقد أخذت هذه الأوراق وشتتت . ومن الممكن أن الفرنسيين الذين أخذوها كانوا يظنون بأنها تشتمل على معلومات ذات قيمة ، بينما لم تكن لها ، في الحقيقة أية أهمية . وهكذا ، ضاعت الأوراق على الأرض ، ولقد مشيت بنفسي على بعضها في حي القصبية . لقد كانت هناك ، في ذلك الحين ، فوضى وعلم نظام لا مثيل لهما .

كان قنصل السويد يملك ويسكن داراً للاستجمام . وكان ذلك المسكن محلي ومجهزاً بأفخر الأثاث وأواني الفضة وغيرها من الأشياء الثمينة . وعندما وصل الجنرال بورمون إلى أبي زريعة (I) طلب منه أن يخفي الدار ليقتح جيطانها على حد قوله ، ويتمكن من مهاجمة حصن الأبراطور . وبعد أن تشاور مع زملائه في هذا الشأن خضع القنصل لرغبة الجنرال ، ولكنه حمله مسؤولية الحسائر التي قد تحدث من جراء هذا العمل العسكري . وقبل أن يخرج من داره ، أخذ كل حذره ، فجمع في بيت مستقل جميع الأشياء الثمينة ثم سد الأبواب . وعلى الرغم من هذه الاحتياطات ، فقد أخذ كل شيء ، وقطعت الأشجار ، ووقع تخريب لا مثيل له في جناحه . وظن القنصل المذكور أن من حقه أن يتقدم بطلب للمرشال بورمون قصد الحصول على قيمة الحسائر التي لحقت به ولما لم يتصل بأي جواب ، اشتكى لحكومته التي أمرته بأن يتوجه إلى الحكومة الفرنسية ، ولا أدري أين أصبحت القضية ، وكل ما أستطيع قوله هو أن هذا القنصل كان رجلاً فاضلاً ونزيهاً ، ويبدو أن ثروته كلها كانت مخزونة في جنان المسكن .

(I) هو الحي الذي ما زال يعرف بهذا الاسم ، ويقع في غربي مدينة الجزائر .

إن الجنرال بورمون لم يجب لا دعوات الخواص ولا طلبات من كانت لهم ديون في ذمة الدولة . ومع ذلك فإن الحق العام المعمول به في جميع البلدان بنعم على كل حكومة أو من يخلفها أن تدفع ديونها كما أنه يسمح لها بمطالبة المدينين بما لها عليهم . إن حكومة العودة (2) قد دفعت ديون الإمبراطورية ، كما أن الإمبراطورية وحكومة جولييت (3) قد دفعت كل منهما ديون الحكومات السابقة . إن الدولة هي الأمة ، فهي لا تتغير لأنها راسخة في الأرض ، ولذلك فإن ديونها مقدسة .

لقد طلبت بنفسي من بورمون أن يسدد لي قيمة كمية من الورق كان الداي قد أخذها مني لصناعة الخرتوش عندما كان الجيش الفرنسي في سطاولي . وتقدر هذه القيمة بحوالي عشرة آلاف فرنك . ولكن المارشال بورمون لم يتفضل حتى بإجابتي . وكررت هذا الطلب لدى السيد كلوزيل (4) فسلك مسلك

(2) تطلق العودة على الفترة التي تلي الإمبراطورية الأولى ، والمقصود بها هي عودة أسرة البوربون إلى الحكم . وهناك عودة أولى وعودة ثانية تفصل بينهما حوادث المائة يوم الشهيرة .

(3) هي ثورة ثلاثين جولييت 1830 التي قامت بها جماعة المتحررين ، والتي قضت على أسرة البوربون وجاءت إلى الحكم بالدوق دورليان الذي سبى صبيح ، بعد ذلك ، لويس فيليب .

(4) ولد كلوزيل سنة 1772 ، وتوفي بعد ذلك بسبعين سنة . ساهم في إعداد وإنجاح ثورة جولييت التي منحه قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر ابتداء من شهر أوت 1830 . ثم خشي لويس فيليب فاستدعاه في شهر فيفري سنة 1831 . وبعد اندلاع الثورة بعام واحد حصل على رتبة مارشال فرنسا . وعاد لقيادة الجيش في الجزائر يوم 8 جولييت 1835 ، فارتكب أبشع الجرائم . وعندما استبدل بدامرمان ، يوم 12 فيفري 1837 ، التحق بمجلس النواب الفرنسي حيث أراد أن يبرر سلوكه ، وثبتت نزاهته وعدم صحة الاتهامات الموجهة إليه .

سابقه وأخيراً دعمت طلبي بوصلي من الترجمان ، وشهادة جماعة أعضاء البلاط مثل وكيل الحرج والساحي ، ومع ذلك فلأنني لم أحصل على المبلغ الذي يمثل قبعة تلك المادة . ولقد سمعت أن فوجرو ، المالي المسند ، المتدكر على حقوق الغير ، قد أشار على الحاكم بأن لا يدفع أي دين من ديون الدولة لأنه لو فتح هذا الباب ستتكاثر الطلبات التي يجب إرضائها .

إن للسادة المسيرين مبادئ واسعة ، وتمتطط إلى درجة أنهم يغيرونها كيفما شاؤوا . ولترجع إلى أحداثنا دون مقارنة ولا تعليق لأن مؤلفنا سيطول لو فعلنا ذلك . إننا نقدمه محذوفاً في هذا الإطار ، إلى عقول القراء وقوة تمييزهم دون أن ندخل ، بأنفسنا ، في تفاصيل الملاحظات التي يمكن القيام بها فيما يخص كثيراً من الموضوعات .

عندها وجد الجنرال بورمون نفسه في الفصبة وسط كنوز هامة كما لا يخفى على أحد ، فإن جماعة من الحاضرين قد تكون ، على ما يقال ، أوردت نواذر مختلفة تتعلق بتلك المناسبة ، وفماذا أن رئيس الجيش هذا لم ينبج من بعض الأطماع وكذلك كثير من ضباطه المقربين . غير أن هذه ليست إلا إشاعات يؤمن بها الجميع ، ولكن لا يريد أحد أن يشهد بها .

لقد جرت العادة أن يعطي صائدو المرجان ، سنوياً ، للدولة خمسة أرباط من النوع الرفيع . وكان ذلك المرجان يجمع ثم يباع فيشكل جزءاً من موارد الإيالة . وبعد دخول الفرنسيين بجاني أحد اليهود ، وطلب مني أن أبعث ، باسمي ، إلى ليفورنة (5) عدداً من صناديق المرجان . ولما كنت أجهل الطريقة

(5) ميناء تجاري هام في إيطاليا الجنوبية . كانت الجزائر تقيم معه علاقات متينة عن طريق محلات بكري وبوجناح خاصة .

التي كسبه بها ، اشترطت عليه - قبل أن ألي رغبته - بياناً يثبت بأن المرجان الموسوق ملك له حتى أكون في مأمن مما قد يقع . ولقد أجدت فعلاً إذ اتخذت هذه الاحتياطات لأن السيد فوجرو ، عندما اكتشف إرسال هذا المرجان ، طلب مني بعض التوضيحات ، فقدمت له بيان اليهودي ، وبعد ذلك لم أسمع شيئاً عن هذه القضية ، اللهم إلا أن الظواهر تدل على أنها سويت بالتراضي بين اليهودي والمالي الفرنسي .

لقد تعود خالي ، أمين الشركة ، على غرار سابقه أن يأخذ من الخزينة كميات موزونة من الفضة لتصنع منها النقود ، وكانت تلك الفضة في صندوق بدار العملة تحت تصرف يهودي كان هو أمين صندوقه ، يقدم له حسابات كل ما يدخل وما يخرج من هذه المادة . وكان ذلك الأمين مكلفاً ، أيضاً ، بصندوق آخر فيه مادة الذهب المعدة لصنع النقود . ومفتاح هذا الصندوق الأخير يوجد عند نفس الأمين الذي كان يدفع إلى الخزينة قطع النقود مقابل بعض المواد الأخرى وهكذا دواليك . ولقد كانت حسابات أمين السكة جاهزة على الدوام .

وكان باستطاعة أمين السكة ، كذلك أن يشري الأشياء الذهبية القديمة من مختلف الأشخاص والهيئات فيودعها في الخزينة التي تأخذ القيمة بعين الاعتبار .

وفي العهد الأخير لحكومة الأتراك ، كان لهذا الأمين في صندوقه حوالي

(6) تقابل هذه الوظيفة في وقتنا الحاضر وظيفة مدير البنك المركزي .

ستين رطلاً من الذهب اشتراها بنفسه ليودعها في الخزينة ويأخذ مقابلها مالا ، وكان في الصندوق ، أيضاً ، عشرة أرطال من ذهب الخزينة .

وأثناء قبلة المدينة ، وبما أنه كان من الممكن أن تهدم القنابل دار العملة ، فإنه نقل ذلك الصندوق إلى مكان أمين ووضع تحت سلم متين في نفس المحل . وفي صندوق الفضة ، كان هناك حوالي عشرة قناطير من تلك المادة تم صنعها وأصبحت جائزة لتلك نفوداً . وكان مفتاح الصندوق عند أمينها كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أعلاه ، ولكن عندما غادر الداي القصبه ، تخلى أمين السكة ، كذلك ، عن منصبه .

وعندما دخل الجنرال بورمون ، استدعى نخالي بواسطة السيد بكري الذي كان إذاك بمثابة خادم لذلك القائد . وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام دعانا السيد دوبرمون - نخالي وأنا - للمثول بين يديه فتوجهنا إلى القصبه ، ولكن بدلاً من أن يستقبلنا الجنرال ، أحالنا على السيد دوني بكيفية غير لائقة . لقد علمت فيما بعد أننا إنما استدعينا بنصيحة من بعض المناورين الذين كانوا يحيطون بالجنرال .

ولما طلب السيد دوني من نخالي أن يخبره بما بقي عنده من أموال الخزينة ، أجابه قائلاً : « عندي عشرة أرطال من الذهب وحوالي خمسة قناطير من الفضة » . من الممكن أن السيد دوني قد وجد ذلك مطابقاً لكتابات الدفاتر . أما عن الستين رطلاً من الذهب التي اشتريتها ، فلنأني لي ، لأنني لم أحصل على مقابلها ، وهي موجودة في دار العملة ، الخ . . . » وتوقف الحديث عندما حضر السيد دوفال والسيد دوبينيوز (7) الذي كان معه على ما اعتقد.

(7) كان في السابق رئيس شرطة نابليون ، وقد عاد إلى نشاطه بعد ثورة جويلية 1830 .

سلم السيد دوني إلى نخالي مفتاح دار العملة وأذن له أن يذهب إليها صحبة أحد الضباط ليأخذ ماله ويترك ما هو للخزينة . وعندما وصلنا إلى الدار وجدنا الأبواب مكسرة وصندوق الفضة محطماً بينما لم نجد شيئاً تحت السلم ، ومعنى ذلك أن صندوق الذهب قد ضاع . عندئذ رجعنا إلى السيد دوني وأعلمناه بما جرى فأجاب : « إذن ذلك من عمل الجنود ، ولكنني الآن ، مشغول جداً ، تشدني أمور جسيمة ، وسأولى التحقيق في ذلك فيما بعد ، فاذهب » .

في نهاية هذا المجلد سأتكلم عن كل ماله علاقة بنخالي وعن طلبه الخاص بلهيه الذي يقدر بستين رطلاً ، والذي نبيه الأجناد . وحتى الآن ، فإنه لم يحصل على أي شيء بهذا الصدد . أما عن الفضة المصنوعة والجائزة لأن تسك ، فلنأني كانت بين أيدي الجنود ، وقد اشتراها الصرافون بأسعار بخسة .

وعندما غادر الداي القصبه ليسكن داره الخاصة ، وقعت أعمال نهب متنوعة لن أتكلّم إلا بما سمعته عنها ، لأنني لم أشاهد أي عمل منها .

لقد كان المارشال بورمون يقول للسكان وبوهمهم بأن الجيش الفرنسي لن يبقى في الجزائر أكثر من سنة أشهر ، وكان يقول أن تلك هي نية الحكومة ، وعندما يشرع في الجلاء ، فإنني أترك البلاد بين أيدي أعيانها وتحت تصرفهم ، وكان يقول كذلك إن الجزائر كانت من ممتلكات الباب العالي .

وبعد هذا البيان الذي كان يبدو إيجابياً ، فإن كثيراً من السكان الذين كانوا يطمحون في الوصول إلى الحكم وفي أن يكونوا من جملة أولئك الذين سيديرون الحكومة الجزائرية عما قريب ، قد أحاطوا بالمارشال وكونوا حاشية ملازمة له ، وناوروا ليعيدوا عن ذلك القائد كل من كانت له كفاءة ومقدرة ،

وكل من كان يمكن أن تكون نصائحه مفيدة لصالح سكان المدينة والإيالة .

إن الهدف من هذه النشرة هو الكشف عن التجاوزات التي وقعت في الجزائر ، والأخبار بأن انقسام سكان هذه المدينة ، قد أضر كثيراً بمصالح الجميع ، وأن جميع الأهواء المؤدية إلى التكفك ، مثل الغيرة والطمع والحقد قد انتشرت ، وكانت سبباً في نفى بعض الأعيان وإخلاء المدينة ، إن الشر هو المسيطر ، والويل للمغلوبين ولقد كان الخلاف سائداً بين السكان وكل الأشخاص الذين استهوتهم تلك الغاية قد تقربوا من المارشال بورمون وأظهروا له إخلاصاً لا حدود له لمواصلة مشاريعهم الجنونية آملين أنهم سيخلفون الفرنسيين فيما بعد .

ولكن ، لقد مضت أكثر من ثلاث سنوات وهؤلاء ما يزالون يحكمون ، وما نشاهد من سيرة هؤلاء السادة يحسم تماماً تلك المساوئ المشتركة عند الناس أي حب الذات والأنانية ، والضعف والعمى والكبرياء ليس هذا هو الوقت الذي تثار فيه الأحقاد بمثل هذه الدنايا والتفاصيل الشخصية ، ولذلك ، فلنني أفضل تعميم الأحداث لأقترب ، بذلك ، أكثر فأكثر من أسلوب المؤرخ الحقيقي ، لعل الأجيال المقبلة تستفيد من بعض ما أرويه هنا .

الفصل الرابع

عن الاحتلال العسكري

إن أعيان مدينة الجزائر وأعضاء الخاشية (I) الذين لا يسكنون القصبة قد وضعوا مساكنهم تحت تصرف ضباط الجيش السامين ليسكنوها . فكانت لكل واحد حصته ، وبهذا الصدد أقول أن الجزائر لو واردو ، الذي كان يسكن دار الأغا إبراهيم ، كان رجلاً شريفاً حقاً ذا أخلاق كريمة في مستوى أمة عظيمة . لقد ملكوه بهذه الدار وما حوته ، ونقول بسرعة إنها لم تصب بأي ضرر ، ولم يضع منها شيء . فهو لم يكتف بعدم الإضرار بها ، ولكنه منع الخاشية وغيرها من أن تفسد فيها وتعبت . وتستحق عنايته هذه كل تقدير ، لأنه طلب ، قبل مغادرة المسكن ، من السيد سان جوهن القنصل الإنكليزي ووكيل إبراهيم أن يدون كل ما وضع تحت تصرفه .

(I) أعضاء الديوان والموظفون السامون .

وإذا كانت مثل هذه الأفعال تستحق الذكر ، فهناك أفعال أخرى ،
ولكن معاكسة يجب أن يشهر بها .

لأنني أعرف حق المعرفة أنه كان يوجد في مسكن باي قسنطينة ، بالجزائر
ملابس وأشياء أخرى تقدر قيمتها بأكثر من مائون فرنك . تتمثل هذه الأشياء
في حياك وبرانس وأوان فضية ، الخ . . . ويبدو أن الضابط السامي الذي
أعطى له هذا المسكن ، كان يعتقد بأن له الحق في التمتع بكل ما اشتملت
عليه . فيقال أنه باع كل شيء بمبلغ 2,200 فرنك لأنه لم يكن يعرف القيمة
الحقيقية لتلك الأشياء وقد استفاد من هذا النهب أحد اليهود المحيطين به ،
اسمه ابن درّان ، الذي اشترى منه كمية هائلة من الملابس تطلب نقلها
سبعة أيام .

هناك ديار أخرى كان لها نفس المصير ، ووجد اليهود في ذلك تجارة
رابحة . ولقد استطاع كثير منهم أن يحملوا ، بواسطة التخويف بعض السكان
الأثرياء على بيع أثاثهم وأمتعتهم قبل أن يأتي الفرنسيون للاستيلاء عليها .
وكدليل على ما أقول أذكر الحادث التالي : لقد حمل اليهودي بكري وكيل
الخرج على أن يبيع له أثاثه الثمين وأنواعاً مختلفة من أمتعة الزينة ، تقدر قيمتها
بحوالي خمسين ألف فرنك بمبلغ أربعة آلاف فرنك . ولم يدفع له ذلك نقداً ،
ولنما وقع له سنداً لأجل معلوم . ثم نفى وكيل الخرج هذا ، وبقيت القيمة
عند بكري ، وبما أن هذا الأخير أصبح الآن غير قادر على الدفع ، فإنه لا
يملك إرغامه على تأدية ما عليه . وهناك ألف قضية أخرى تشبه هذه ، وهي
حقيقة على الرغم من أنها تبدو مستبعدة ، وإنني لا أكاد أصدق أعيني ،
بالرغم من أن الأمور كانت تقع بمحضري .

ومن جملة المؤلفات التي نشرت حول أحداث الجزائر ، لا شك أن
بعضها قد تكلم عن كل هذه الخاصيات . وإذا أهمل ذكرها ، فإنه ينبغي
أن نفترض بأن المصلحة الشخصية هي السبب في ذلك .

الفصل الخامس

عن البايات منذ أن وقع الغزو الفرنسي

بعد أن تم التوقيع على معاهدة الاستسلام ، توجه خليفة باي وهران مع كل من كان معه إلى مقاطعته وبما أنه أسرع في سيره ، فإنه كان أول من نقل خبر كارثة الجزائر إلى سكان تلك المقاطعة . لقد كانت الطرق ما تزال هادئة ولو لم يكن كذلك لعرقل الأعراب مسيرته . وفي نواحي وهران التقى بالباي وأخبره بالحادث .

كان هذا الباي طاعناً في السن ، ولم يكن له أطفال . وبما أنه لم يكن يأمل الاحتفاظ بمنصبه بعد سقوط الجزائر ، فإنه رجع إلى وهران ينتظر نتائج تلك الظروف المبرجة .

وعندما علم العرب بأن الفرنسيين دخلوا إلى الجزائر ، رفضوا أن يواصلوا الاعتراف بسلطة الباي وشقوا عصا الطاعة . وزيادة على ذلك نهبوا المزارع التابعة لباي وهران ، واستولوا على كل ماشيته كالدواب والحيل الخ . . .

لأنهم كانوا يعتقدون أن الفرنسيين يريدون غزو كامل الإيالة، وعليه قاموا بنهب كل ما كانوا يلاقونه للاستفادة منه بدلاً من تركه لهم. وحتى لو أراد حسن، باي وهران، أن يتفاهم معهم مثل ما فعل باي التيطري، لما استطاع ذلك لأنه لم يكن محبوباً.

كان حسن شيخاً قد ملّ الحكم، ولذلك لم يكن يطمح إلا في حياة هادئة. وكان يأمل أن الفرنسيين سيحترمون راحته إذا ما أظهر أنه لا يضمّر لهم العداوة.

وعلى العكس، فلن باي التيطري الذي كان يدفعه الطموح قد جمع سائر الأتراك الذين أرادوا أن يتبعوه، واقترب من الجزائر رغبة في الاتصال بالفرنسيين، واستطاع بفضل نفوذ صديقه بكري أن يحصل على مرتبة آغا بتعيين من المارشال بورمون.

ولكن هذه الأوضاع متعكر، فيما بعد، بسبب إحدى المناورات، فيعزل بدون ما سبب ويستبدل في منصبه كأغا العرب بحمدان بن أمين السكة (2)، وعندما حان الوقت الذي فقد فيه بورمون كل سلطة بالجزائر قدم باي التيطري هيات كثيرة للتمكن من الرجوع إلى المدينة، ومواصلة تسييره للبايالك كما كان في السابق وسأقص كل هذه المغامرات فيما بعد.

أما باي قسنطينة، فإنه رجع إلى مقاطعته متبعاً الساحل حيث وجد كثيراً

(2) لقد كان بعض المؤرخين، مثل بلايفر، لا يفرقون بين حمدان عوجة وحمدان بن أمين السكة فقد كان هذا الأخير عسكرياً، وعينه بورمون آغا العرب، ثم عندما أحس كلوزيل بميله الوطنية عزله يوم 7 جانفي 1831. وفي العام التالي نفاه روفيكو إلى بلويس حيث تزوج بفرنسية، وتوفي سنة 1834.

من المدافع والذخيرة الحربية. وقد تمركز مدة ثلاثة أيام في نواحي الدار البيضاء ليجمع الخيل والبغال التي كانت للدولة، وكذلك كل ما استطاع أن يعثر عليه في مزارع الدولة وضيعها. فجمع حوله ثلاثة آلاف تركي وعدداً كبيراً من أسر مدينة الجزائر التي تركت المدينة لأن بعضها لم يعد مطمئناً لها بينما هرب البعض الآخر خوفاً من الظلم.

لقد أخذ باي قسنطينة، إذن، كل هذا العدد الكبير من الناس تحت حمايته. وكان يوجد ضمن هذا العدد حوالي خمسمائة امرأة، ولم تؤخذ المؤن لمجابهة أتعاب الطريق لأنه لم تكن هناك استعدادات لهذه الرحلة. غير أن باي قسنطينة، قد برهن، في هذه الظروف الطارئة، على كثير من الإنسانية والبطولة، وأن أعماله لكفيلة بأن تمجد، إذ تولى بنفسه إشباع جميع الحاجات الضرورية لهذه الهجرة، وتم اتخاذ كل ما يمكن من الإجراءات. ثم سار بقالته نحو قسنطينة، ووعد الأتراك بنصف أجورهم. وقد وصل الجميع إلى أبواب تلك المدينة دون أن يحسهم البرابر بأذى. عندئذ وسوس الشيطان لذلك العدد العنيد من الأتراك وأوحى لهم ذلك المشروع العظييع الرامي إلى عزل القائد الذي أوصلهم إلى هناك.

إن الحاج أحمد باي قسنطينة، لم يعد لهم إلاّ بنصف الأجر، ولكي يحصلوا على الأجر كله فكروا في عزله من منصبه واستبداله بأبن شاكر باي (2). وقد كان شاكر هذا باياً على قسنطينة. ولكن الابن كان شريراً وسكيراً.

(2) هو ابن محمد شاكر باي الذي خلف محمد نعمان باي سنة 1813، وقتل شقياً في شهر جانفي 1818. وقد ظل هذا الولد يتناور للحصول على منصب والده ولكنه لم يفلح.

غير أنه وعد ، وقبلت الشروط ثم وقع الاتفاق . وبالفعل ، ففي اليوم المحدد لدخولهم إلى قسنطينة ترك الجنود أبواب المدينة وابتعدوا بحوالي ميلين : هناك كان رئيسهم الحديد في انتظارهم .

وبعد ذلك بقليل أخبروا الحاج أحمد بنواياهم ، وصرخوا له بأنه ينبغي أن يعتبر نفسه معزولاً . ولم يضيع هذا الباي لحظة واحدة في إخبار سكان قسنطينة بتلك الإجراءات الغادرة ، وقال لهم أنه لا يريد أن يكون سبباً في نشوب حرب أهلية ، وإذا كانت لهم نفس نوايا المتوردين ، فإنه يرجوهم أن يخرجوا من المدينة كامل أفراد أسرته ، وإنه بعد ذلك سينسحب إلى الصحراء عند أهله (3) ، إنه كان يفضل أن يتصرف كذلك بدلاً من أن يسفك دماء مواطنيه .

بعد أن وصلت هذه المعلومات إلى أعيان المدينة والفقهاء ، اجتمعوا للتشاور حول الحزب الذي يجب أن يختاروه . وقد تقرر ما يلي : إن الحاج أحمد باي قد عين من طرف حسين باشا ، وكان هذا الأخير وكيلًا للسلطان . ولذلك لا نعرف إلا بسلطة السلطان . وأن السلطان ما يزال موجوداً وإذا كان مثله في الجزائر لم يعد موجوداً سياسياً ، فإن ما قام به هذا الأخير قد تم بموافقة الباب العالي وعليه يجب أن يكون الحاج أحمد هو رئيسنا ، وهو صالح لنا فعلاً . ولا نستطيع تغيير هذه الأمور دون أن تكون هناك تعليمات جديدة من الباب العالي . ونظراً إلى المسافة الفاصلة بين البلدين ، وفي حالة وفاته فإنه يمكننا أن نختار ، دائماً بموافقة السلطان ، من يصلح بنا لحماية الأمن والسهر

(3) أهله هم أخواله في بيت ابن قاته شيخ العرب .

على هدوء البلاد وفي جميع الحالات ، فإن ابن شاطر مغامر ، ولا يمكن أن يكون تعيينه سريعاً . وهكذا ، إذن ، فإننا لن نواصل اعترافنا بسلطان الحاج أحمد باي فقط ، وإنما ينبغي أيضاً أن نعرف به كباشا لنتمكن من تهدئة القبائل والعرب ، إنه سيخلف باشا السلطان ، وبعد ذلك نطلب رأي السلطان فيوافق أو لا يوافق على هذا الإجراء .

وفي الحين أرسل هذا القرار إلى الحاج أحمد ، وأخبر بأن جميع السكان مستعدون لحمايته ضد أعدائه لأنهم يعتبرونه كباشا ، وعندئذ توجه لمحاربة المتوردين وهزمهم . وليرهن هؤلاء الأخيرون على خضوعهم ، أرسلوا له رأس قائدهم . وزيادة على ذلك اشترط الحاج أحمد أن يسلم إليه المحركون الرئيسيون لهذه الثورة وعددهم عشرون ، فينفيهم إلى تونس . غير أن عدداً منهم قد هرب وتفرق في أوساط القبائل والعرب . وبعد ذلك دخل الحاج أحمد منتصراً إلى قسنطينة .

وبعد هذا الحادث ، أرسل باي قسنطينة قرار أعيان هذه المقاطعة إلى باقي سكان الإيالة ودعاهم إلى طاعته ففعلوا . ثم طلب من سكان عنابة أن يرسلوا له كمية من اللخائر الحربية ، وولى عليهم المسمى الحاج عمار الذي كان وكيلًا له في تونس . ولكن الحاج عمار هذا كان يحظى بسمعة سيئة في عنابة ، وكان يعتبر حاكماً عاجزاً ، وبما أنه كان قد شغل هذا المنصب في نفس المنطقة ، فإن السكان أصبحوا يقدرونه حق قدره .

وعلى هذا الأساس شق سكان عنابة عصا الطاعة ، فلم يمثلوا لأوامر الحاج أحمد باي ورفضوا أن يرسلوا له ما طلبه من ذخيرة ، ولما أحس الباي

وعليه فقد آن الأوان لتسلحوا ضد الفرنسيين ، ولتتحدوا قصد طردهم .
وهكذا ، إذن ، اتحدوا فيما بينهم ، وامنوا الطرقات . لقد توقعوا أن يقوم
الفرنسيون بنهب الجزائريين ، ولذلك سارعوا إلى الاستيلاء على ممتلكات
سكان مدينة الجزائر في متيجة ، لأنهم لم يتركوا ماشية ولا خبواً .

الفصل السادس

عن إدارة المارشال بوزمون

عندما نزل المارشال بوزمون بأرض الجزائر ، نشر ، باسم الأمة الفرنسية ،
بياناً ذكر فيه بأنه سيقضي على نظام الظلم السائد في الجزائر . وتنص معاهدة
الاستسلام على أن الأتراك يعتبرون من سكان المدينة . ولكن ، بعد استسلام
المدينة بفترة وجيزة ، قام بوزمون بنفيهم واختطافهم . ففصلوا عن نسائهم
وأطفالهم دون أن يقترفوا أي ذنب . وكانوا يقادون إلى السفن قبل ساعة
الإبحار بأيام عديدة . وأشيع أمام الرأي العام بأنه ثبت أنهم ينوون التآمر ضد
الفرنسيين ، وهي جريمة مزعومة لا أساس لها من الصحة .

لم يكن من حق رجل كالسيد دوبرمون ، المكلف بمهام سامية والممثل
لأمة متحضرة ، أن ينظر في المسألة ليتأكد من صحة أو عدم صحة الاتهام ؟
وهل يمكن أن يكون لذلك أساس ؟ .. أن قلة عددهم وكذلك ضعفهم لا
يسمحان لهم بتدبير أية مؤامرة . وقد كان عليه قبل أن يتصرف بهذه الكيفية ،

أن يستخبر هل أن الوشاية كانت لفائدة الصالح العام ، أم هل هي لمجرد الانتقام . هناك مثل عندنا يقول : « إذا كان النمام مجنوناً ، يجب أن يكون المستمع عاقلاً » .

كيف يمكن أن تكون لهم نوايا عدوانية ، وهم بدون سلاح ولا عتاد حربي ولا مدفعية ، وعددهم قليل ؟ لقد كان الأتراك في السلطة ، وكانت لهم كتوز وجيش ، وكان البايات معهم ، وكانت لهم القصبه والحصون ، ومع ذلك فلأنهم لم يحاربوا الفرنسيين . وبدون كل هذه الموارد ، هل يستطيعون التآمر ضدهم ؟ كيف إذن ، يمكن لقائد جيش أن يهتم بتقارير كاذبة ، بعيدة كل البعد عن الحقيقة ولا تدل إلا على النوايا السيئة التي يفسرها أعداء الأمن العمومي .

وفيما يلي أذكر حادثاً يدعم أقوالي : لقد تجمعوا الناس ذات يوم بالقرب من القصبه وكانوا جميعاً من المسلمين الذين يريدون تقديم شكوى ضد إغارات كان اليهود قد وجهوها إليهم ، وفي الأخير أوفدوا من بينهم اثنين إلى الجنرال بورمون ليعرضاً له موضوع الشكوى باسم الجميع . ولكن المبعوثين ، بدلاً من أن يقوموا بالمهمة التي كلفوا بأدائها ، انقادا لدعايات الماكرين وتقدما إلى الجنرال قائلين له : بأن الجماهير تشتكي من الأتراك . صدق المارشال تقرير هذين الشخصين ، وبذلك يكون قد اتخذ تدابير على أساس تصريح بسيط . إنني أسمع لذبتك المتناورين واغفر ذنبهما ونواياهما الخبيثة ولكنني لا أستطيع أبداً أن أسمح لرجل مثل السيد دوبرمون الذي يشغل منصباً سامياً أن ينخدع لبعض الطامعين ويحكم في الأمور عن غير معرفة وبدون تفكير . ولو أنه حقق في القضية لعرف السبب الحقيقي الذي قاد للتجمع ، ولما

كانت النتيجة هي طرد الأتراك من وطنهم ، وجعلهم يأسون ويفصلون عن نساكهم وأطفالهم . لقد رأيت بنفسى بعض الفرنسيين يولون ظهورهم للمشهد ، ويلرفون الدموع من الألم .

لقد استطاع كثير من الناس أن يلحظوا مثلي كنه هذه المكيدة ، فرأوا كيف أن شكوى كان من المفروض أن توجه ضد اليهود ، قد حولت ضد الأتراك . إن الإدارة إذاً ، لا تقوم بواجبها . أنها لا تهتم إلا بالذهب والقضه ، وأضل رجال السلطة سعيهم وراء الثروات .

ومن سوء الحظ بالنسبة إلينا ، فإن ما أقوله هنا حقيقة لا تخفى على أحد ، وهي السبب في كل الشرور التي أصابتنا . إن هذه الأساليب قد أجبرت الأغنياء على مغادرة البلاد على الرغم من أنهم هم المورد الوحيد بالنسبة للطبقات الفقيرة ولذلك حدث سخط عام في أوساط الشعب وبدأ الاحتراز من الفرنسيين الذين لا يوفون بعهدهم . وافترى على القاضي الحنفي بدوره فتفاء السيد دوبرمون متهماً بإياه بأنه جمع أعيان المدينة في أحد المساجد لتدبير مؤامرة ضد الفرنسيين ، وأصبحت إدارة دوبرمون عهد خوف ورعب تتهم فيها النوايا الحسنة بالإجرام ، ويسير العدل وفقاً للأهواء والنميمة . ومع ذلك ، فإن السيد دوبرمون تراجعاً فكان باستطاعته أن يستشير السكان قبل أن يتصرف بتلك الطريقة الظالمة . إنه لم يحترم وثيقة الاستسلام التي وقع عليها بنفسه ، لأنه نقض أهم موادها بعد التوقيع بثمانية أيام فقط . هل ينبغي أن ننتظر من الحكومة الفرنسية أنها تتصرف بمثل هذا الجور نحو أمة يزعم أنها كانت ، قبل الاحتلال ، خاضعة لحكم تعسفي ظالم .

وفيما يلي حادث آخر يكاد يشبه الذي انتهت الآن من روايته ولكنه

وقع في عهد حسين باشا . إنني سأقل حرقاً ما جرى أمامي في تلك الأثناء . لقد اشتكى بعضهم ، ذات يوم ، للداي بأن القاضي لا يحكم بالعدل ، وقيل له أنه أصدر حكماً منافياً للقانون ، لم يسبق لغيره من الفقهاء ورجال العدالة أن أوردوه . وبدلاً من أن يعاقب المتهم دون الاستماع إليه ، فإن حسين باشا ، قد طلب من القاضي - في أدب - أن يحضر إلى بيته حيث كان قد جمع سائر رجال القانون ، ثم دعاه إلى تقديم الأسباب التي دفعته إلى إصدار حكم ظالم ، وأمر المفتي والفقهاء أن يتناقشوا معه في الموضوع وأن يطلبوا منه ذكر المادة التي جعلته يتخذ مثل ذلك القرار . ولما تكلأ القاضي في أجوبته ، وثبتت الشكوى التي قدمت ضده ، عزله الداى في حينه ونفاه إلى وهران دون أن يرسل معه رجال الدرك .

هذه مقارنة بين إدارة الإيالة والإدارة الفرنسية ، ومع ذلك ، فإن السيد دوبرمون يزعم أنه جاءنا ليقضي على التعسف ، ويطبق القانون وفقاً للعدالة والانصاف . فلو أن هذه الأخطاء ارتكبها شخص آخر غير السيد دوبرمون لكان يمكن غفرانها . ولذلك صار كل واحد منا يقول : أين هم ، إذاً أولئك الفرنسيون المشهورون ، تلامذة نابليون العظيم ، أين هم أولئك الجنرالات المتصرفون ، والمواطنون والقضاة النزهاء ؟ ماذا فعلوا بعلمهم ، ومقدراتهم وذكائهم ؟

لقد احتجزت أسلحة الملبشيا وسكان المدينة . وجال في أذهاننا أن تلك الأسلحة ستوضع في مستودعات كوسيلة ضمان وأمن . ولكننا كنا نعتقد ، كذلك ، أن الفرنسيين سيصرفون مثل الروس عندما غزوا الإمبراطورية العثمانية ، لقد قام هؤلاء الروس بجمع الأسلحة ثم جعلوا لكل قطعة بطاقة تحمل اسم صاحبها وأودعوا الكل في مسجد على أن تعاد لأصحابها في الوقت المناسب .

وأقول في إمكاننا أن نعتقد بأن من واجب الفرنسيين أن يصنعوا مع الجزائريين ، مثلما صنع الروس مع الأتراك على الأقل .

وزيادة على ذلك ، أن هناك أشخاصاً بين سكان الإيالة يعتبرون السلاح كأثاث منزلي يزينون به حجرات منازلهم ، وتكون قيمته حسب ثروة صاحبه . فهناك من يملك أسلحة محلاة بالفضة والذهب وبالجواهر الثمينة . فهذه الأسلحة تحتوي على ثروة ، وقد سلمت إلى الفرنسيين عن طريق الشرف وحسن النية اللذين يستوجبان صيانتها . ومن الواجب أن تكون لديهم بمثابة أمانة مقلدة ، لا يجوز التعدي على حرمتها . فبأي قانون استطاعوا أن يتولوا على هذه الأسلحة ، لتصبح ملكاً لهم ؟ أباسم الشراء ، أم باسم الإيجار ، أم باسم الهبة ؟ إنهم أصبحوا أسياداً في البلاد . وقد فعلوا ما بدا لهم في هذه الظروف أن يفعلوه ، مع أنه يستحيل أن يوجد قانون فرنسي يسمح بالسلب ، والاعتصاب . فبالعكس ، فإن قانون الانسان يعارض ذلك تماماً وأنا - كذلك - كنت أملك أسلحة ثمينة ، مثلما كان يملكها أبناي . وكانت هذه الأسلحة محلاة بالذهب ، والفضة ، والمرجان ، والأحجار الكريمة . وكانت قيمتها تقلر بعشرين ألفاً من الفرنكات . ومن أجل امتثال الأوامر جعلتها في صندوقين ، ثم وضعتها لدى القائد « لوفيردو » (Loverdo) الذي تسلمها مني في منزله . وبعد مدة قصيرة طلب مني هذا القائد أن أرفع أمانتي من عنده ، فنقلتها إلى منزل صديقي قنصل « نابولي » (Napoli) . ثم إن هذا الأخير قد دخله بعض الخوف من ذلك ،

فظننت من واجبي أن استودعها بين أيدي القائد ه ... (١) الذي كان يسكن
بمترلي المخصص للترجمة والاستجمام . فوضع هذا القائد الصندوقين في إحدى
الغرف ، واحتفظ بفتاحيهما في شقته وفي يوم خروجه من المنزل لم أجد
هناك سوى الظرفين أعني : وجدت الصندوقين فارغين فعندئذ سألته : ماذا
حدث للأسلحتي وأين هي ؟ فأجابني : « إن ولدك أخذ جزءا منها وأنا
أخذت الجزء الآخر . وها هو - كما أظن - الثمن المقدّر لقيمة الجزء الذي
احتفظت به لنفسني » . ولعلني أتذكر أنه أعطاني ستة وثلاثين ديناراً من فئة
« نابليون » . ثم تبين لي - فيما بعد - أن ولدي لم يأخذ أي شيء من تلك
الأسلحة ، لأنه لا يمكن أن يسرق ما هو ملك له . إذن فالقائد وأتباعه هم
الذين اختلسوا أسلحتي .

(١) هو القائد « هيريل » .

الفصل السابع

عن أحداث الترسانة والاحتلال العسكري

عندما أيقن مصطفى ، وزير البحرية ، بأن الكارثة آتية لا ريب فيها ،
فتح صندوق النققات البومبة ، ووزع ما فيه من مبالغ على العمال ، ثم أحرق
السجلات ، عندئذ أبحرت كثير من الأسر على متن قوارب الترسانة قاصدة
بلاد القبائل وبجاية . وجاءت السفن التجارية المرافقة للحملة إلى المرسى ،
فنهبت الميناء ، وأخذت السلاسل والحبال والصوف التي كانت في الخنادق ،
والمراسي ، والقنب ومجموعة أخرى من العتاد والذخائر ، وتقدر كل
هذه الأشياء التي أخذتها تلك السفن ليلاً ، بواسطة قواربها ، نعم تقدر بمبالغ
هائلة ، ونحن نجعل إذا كان ذلك قد تم بالاتفاق مع السلطة الفرنسية . ولكنني
أعتقد أن كل واحد كان يأخذ لنفسه ، لقد كان هناك ما يكفي الجميع ،
وكان اللصوص متفقين فيما بينهم فلا يوشى بعضهم ببعض . كانت تلك
هي الثمرات الأولى للاحتلال وللحضارة الفرنسية !

كان نصف الجيش الفرنسي متمركزاً في أجنحة سكان المدينة (أو في ديارهم المعدة للاستجمام) . ولن نقر إلا حقيقة ، إذا ذكرنا هنا بأن مالكي تلك المساكن لم يحصلوا أبداً على أي تعويض ، ولم يكن لهم حق التمتع بملكياتهم وأن الأبواب كانت تكسر لتحرق ، وسجاجات الحديد تقاع لتباع . وكان الجنود يحفرون الأرضيات بحثاً عن الكنوز الموهومة . وأخيراً ، فإن الأجنحة والمساكن قد خربت إلى درجة أنها لم تعد صالحة لشيء . وكل ما أرويه هنا بعيد عن المبالغة والمغالاة ، ولكن ، لكي تكون للمرء فكرة واضحة يجب أن يرى بنفسه ما وقع من تخريب .

كانت هذه أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الملاك إلى النزاع عن ممتلكاتهم بالشروط التي تقدم لهم وبأسعار بخسة . وهكذا لم يعد في استطاعة أي واحد أن يفخر بكونه يمتلك عقارات في الجزائر . وبهذه الطريقة كانت الأملاك الوطنية تكتسب في فرنسا أثناء الثورة ، ولكي تنسى هذه الاغتنصابات ، يجب أن نتذكر قروناً ، أو ينبغي أن تدفع تعويضات تقدر بالملايين لكي يرتاح ضمير المالكين . أنه عهد الثورة والقوضى ، ذلك الذي يخرب فيه كل ما يمكن تخريبه .

إن بعض الأوروبيين من المالكين الجدد قد اختلقوا النزاع لينحللوا من العقود التي أمضوها ، وذلك بعد أن اقتلعوا الأشجار ، وخربوا الأجنحة وجمعوا الأموال من كل شيء ثم أصبحوا عاجزين عن دفع المبالغ السنوية المتفق عليها ، وكانت المحكمة مكتظة بالمرافعين لأن معظم تلك العقود كان قد تم بالتراضي عن طريق الدلائل . ومن ثمة فإن بعضهم قد خرب كل شيء ثم أظهر سوء نيته ، بينما كان الآخرون يبيعون من جديد وكانت تلك العمليات المتتالية تخلق كثيراً من النزاعات ، لأن البيع الأول لم يكن شرعياً ولا خالياً من الإشكال

لقد كان هناك غموض بالنسبة للسكان وللمحاكم على السواء . وأصبح من المحتوم ، في هذه الحالة ، على المالكين الحقيقيين ، أن يرضوا بالفاهم بدلاً من أن يخسروا كل شيء .

بهذه الطريقة وقعت كثير من عمليات البيع والشراء ، وتوصل الفرنسيون أو سيتوصلون إلى امتلاك جميع الملكيات في البلاد . إنني لا أعلم أن هناك ملكية واحدة قد اشترت بكيفية عادية وشرعية .

ولست هذه العقود كلها الا كرامات دائمة وقانوننا لا يعترف بصحتها ، لأن عقد الكراء عندنا لا يمكن أن يكون إلا لسنة . ويزعم بعض الفقهاء أنه يمكن أن تمتد العقود على ثلاث سنوات . ولكنه يبقى ، دائماً ، للمالك حق تمديد الكراء أو إلغائه بعد السنة الأولى . إنني سأنتظر في فصل خاص بكيفية واضحة ومفصلة إلى كل ما له علاقة بقوانيننا .

إن الأسباب التي منعت الفرنسيين من أن يشتروا بالطرق الشرعية على غرار ما يتم عندنا وفي فرنسا ، يمكن تفسيرها كما يلي :

- 1 - لأنهم غير متأكدين من مواصلة الاستعمار .
- 2 - لأن معظم الأوروبيين الذين ذهبوا إلى الجزائر مغامرون بدون أموال ، يريدون اكتساب الثروات على حساب الجميع .

وعلى هذا الأساس ، فإن الجنرال كلوزيل قد أخطأ عندما زعم ، في أحد كتبه ، أن بيع العمارات في البلدان الإسلامية لا يتم بنفس الطريقة المعمول بها في فرنسا وإنما مقابل ريع دائم . إننا نود أن يكون اليهود ، مستشاروه المفضلون ، هم الذين أضلوه ، وإلا فإنه قد يتهم بأنه أضل الأمة الفرنسية ، وأولئك الذين توجهوا إلى الجزائر للحصول على ملكيات بطريقة في مثل تلك السهولة .

الفصل الثامن

عَنِ الْإِحْطَالِ الْعَسْكَرِيِّ وَسُلُوكِ أَهْرِ ضَبَاطِ الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ

لقد أسكن عدد كبير من الجنرالات والكولونلات وغيرهم خارج المدينة . فكانوا يتسابقون لاختيار أجمل الحدائق ، والمساكن الأكثر ملاءمة ، ينتصبون فيها سادة لا ينازعهم منازع . وكانوا يقطعون الأشجار أو يقطعونها حسب رغبتهم ، ولم يعد المالكون قادرين على الدخول إلى ممتلكاتهم ؛ ولم ينفع فرنك واحد لإصلاح أبسط الأمور ، وإنما كانت المصاريف تخصص لاقتلاع الأشجار أو للتخريب .

وفيما يخصني ، فإن الجنرال هـ قد استحوذ على جنائي ، على غير علم مني ، وطرده مني وعندما علمت بذلك أرسلت ولدي إلى المارشال بورمون ليطالب بالحماية التي تعهد بشرف الأمة ، أنه يقيمها لنا . ولما لم يتمكن ولدي من رؤية المارشال توجه إلى الجنرال تولوزان ، فأعطاه هذا العسكري الممتاز ، حيناً ، أمراً بإرحيل الجنرال هـ . . . الذي كان قد سكن داري المعتلة للاستجمام . وعندما قدم له ولدي الأمر ، غضب ثم قطعه وقال :

لقد احتلنا الجزائر ، وأصبحنا سادتها بلا منازع ، كل ما فيها ملكنا ، وليس من حق السيد تولوزان أن يبعث لي بمثل هذه الأوامر . ولما وصلتني لإجابة هذا الضابط سارعت إليه لعل أجد فيه إنساناً متحضراً ومتساماً بالاعتدال والعواطف الفرنسية النبيلة ، وقلت له إن ولدي كان مخطئاً عندما اشتكى عليه ، وأنه يجب أن يعذر شاباً صغيراً ، وإنني جد مسرور باستقبال ضيف كريم . مثلك لأنني متيقن من أنه سيحمي الدار من نهب الجنود . وفي الحين فتحت جميع الخزائن لكي لا تكسر ووضعت تحت تصرفه أغل ما فيها من أثاث وحلي وذراري وأوان خزفية ، (عدد هذه الأواني كان يزيد عن 500 قطعة) . وكذلك طقم خزفي لناول الشاي اشتريته من باريس بثلاثمائة فرنك ، وبمجموعة من أدوات الطبخ كلها من الخزف ، والخزف المزخرف وجرار مملوءة بالزيت والزبدة وغير ذلك من المؤن الكثيرة التي تعودنا أن نعددها في البادية .

ومن ثمة ، فقد وضعت تحت تصرفه داراً كاملة ، مجهزة بكل ما يحتاج إليه بما في ذلك أدوات الزينة . كما أنني تركت له بعض البغال ، وسائلاً للاعتناء بها . وبالتالي لم يكن هناك قائد أسعد منه في هذا الميدان . ومع ذلك ، فإنه تقبل كل ذلك باعتزاز ولم يوجه لي حتى عبارة شكر ، كما لو كنت قد قدمت متاعاً هو له . وفي نظري ، لقد كان من الواجب عليه أن يتصرف بطريقة أكثر تأدباً ولباقة وأن يبرهن على أنه يعرف كيف يقدر المواقف ، وأن أصله يتناسب مع مرتبته .

إن هذا الجنرال لم يمتنع عن شيء مما قدمته له ، واستعمل بسعة كل ما وجد ، وعندما شارك في حملة المدينة مع الجنرال كلوزيل ، أخذ اثنين من بغالي : نفقا ، من التعب أو الجوع ، بعد رجوعهما من الرحلة مباشرة .

لقد كان من الضروري القيام بمثل تلك المجاملة لأنني كنت محبباً على ذلك . وإذا بدا لي أن أزور جنائي ، فلنني أمتع ، أو يطلب مني أن أحضر أماً من الجنرال ليسمح لي بالدخول ، ومع ذلك . فقد كانوا يعلمون أنني أنا المالك الحقيقي .

وعندما غادر الجنرال هـ مسكني أخذ معه كل ما أعجبه ، وما كان يمكن أن يعمل حتى أواني الخزف المزخرف ، مدعياً بأن كل تلك الأشياء إنما سرقها مترجمه . وبالإضافة إلى ذلك أخذ صندوق الأسلحة اللذين سبق أن تكلمت عنهما . أن ديار المدينة التي سكنها الأجناد لم تعد صالحة للسكن .

لقد علمت من أناس مطلعين أن الشخصيات التي سكنت القصبه (مقر الداى) قد حفرت كل الأراضي آملة أن تعثر على الكنوز المخفية . كما أن بعض الأسوار قد هدمت لنفس الغرض .

ومن جهة أخرى أجبر الخواص على الرحيل عن مساكنهم لكي تحتل عسكرياً ، وقد غلب اليأس على هؤلاء السكان فهاجروا عن طريق البر أو البحر . يا لها من أساليب تلك التي استعملها رجال السلطة الذين كان يجب عليهم ، على الأقل ، أن يدفعوا أجراً للمالكين تعويضاً لحرماتهم من ممتلكاتهم .

وبعد أن تمركز ، أرسل الجنرال بوربون إلى باي وهران بطالب منه أن يستسلم لفرنسا . ووفقاً لرغبة قائد الجيوش ، استجاب هذا الباي للأوامر وأعلن ولاءه للفرنسيين ولذلك كلف بالبقاء في وهران إلى أن يمين الأوان ، وأن يحصن المدينة ، ضد سكان المناطق الداخلية ، من الإيالة ، ويحفظ الأمن إلى أن ترسل له الجيوش . وباستسلامه لفرنسا ، قطع الباي كل علاقة ودية مع القبائل وتحل عن صلاته القديمة . وللاحتفاظ بالمنصب ، كان عليه أن يتفق

من أمواله الخاصة على جيش من الأتراك . إن هذا الرجل ، قلت في السابق ، من مسلم ، لا يرغب إلا في الراحة . ولذلك استجاب لإرادة الجنرال الفرنسي ، ولم يعد ينتظر إلا تنفيذ الوعود التي ضرت له والتي تتعلق باحترامه واحترام كل ما كان يملك . وحسب العدالة ، لقد كان يجب أن يجازى هذا الباي وأن تدفع مصاريفه لأنه حكم وهران لحساب الفرنسيين منذ استلامه إلى أن غادرها ، أي مدة سبعة أشهر . وقبل أن يحتل الفرنسيون تلك المدينة وردت وفود متعددة إلى إحدى الشخصيات ، وإنني أعرف كما يعرف الجميع أن هذه الشخصية أرسلت بدورها ، مرات متعددة ، بعض البواخر إلى وهران تحمل رجالاً من حاشيتها ، وكان هؤلاء الرجال بشرطون على هذا الباي كثيراً من التضحيات التي لم يحدث أن رفضها في يوم من الأيام . سأقص في مكان آخر مغامرات هذا الباي مع الجنرال كلوزيل .

عندما علمنا بالتغير الهام الذي حدث في النظام الملكي الفرنسي ، فرحنا بالحادث أشد الفرح ، وقد انتهجتنا خاصة للظروف التي أدت إلى وقوعه . واعتقدنا بدورنا أننا سنستفيد من ثمار تلك الحرية . لقد كان أملنا وطيداً في العاهل الجديد ، لويس فليب (1) الذي كان ينبغي أن نحفظه تجربته ومآسبه من كل ضعف ، والذي كان يجمع في نفس الوقت جميع الصفات الضرورية لقيادة أمة عملت على تعيينه ليكون رئيسها وحامها ، إنه رجل يجمع بين الشجاعة

(1) ولد لويس فليب الأول في باريس يوم 6 أكتوبر 1773 ، في نفس السنة التي ولد فيها حمدان ، وتوفي يوم 26 أوت سنة 1850 . بايعة ثورة جولييت ملكاً يوم 9 أوت 1830 . ولكن ثورة 1848 ستقضي على ملكه وتعلن الجمهورية الثانية يوم 24 فيفري . أما لويس ، فإنه فر بجلده إلى انكلترا حيث قضى العامين الباقيين من حياته . اشتهر لويس فليب بالجهن والتفاق حتى مع أعز أصدقائه .

والإحساس ، ولقد شوهد في ميدان المعركة يظهر كل عطف الأبوة والروح الصالح . وكما يقول الشاعر : « لا يعرف الحب إلا من كان عاشقاً » . فالفرنسيون ، إذن ، لم يكن في استطاعتهم أن يختاروا أحسن منه . ومن جهتنا كنا نقول : ليس هذا هو العاهل الذي يسمح بأن يخضع الجزائريون لنظام تعسفي ، ليس هو الذي سيأمر بفصل الزوج عن زوجته وأطفاله ، ولا بأن تؤخذ أملاكنا وكل ما لنا من موارد .

في سنة 1820 ، كنت في باريس ، وتشرفت برؤية الدوق دورليان (2) يتأبط ذراع الدوقة زوجته وهو يحاط بكامل أفراد أسرته . كنا لانسمع عنه إلا الخير ، وكان الحفل كله مديحاً وتبركاً . لقد كان هو الطيبة نفسها ، ومثال الإحساس الرقيق ، والحلم المشخص ، لقد كان الدوق دورليان هو أفضل رجال القرن .

عندما علمت بالحادث السعيد الذي جاء بتعيينه قلت لنفسي : « إن الفرنسيين سعداء ، أنهم سيتمتعون بالحرية » . وطمأنت جميع الأصدقاء مؤكداً لهم بأن هذا الأمير كان كثير الاعتدال ، عادلاً وأهلاً لأن يحب ، وعليه يجب أن ننهي أنفسنا بحكومته . ولكن مع الأسف لقد طال صبرنا وخاب أملنا .

وأخيراً رفع العلم المثلث واستبدل المارشال بورمون بالجنرال كلوزيل . وكان أول أعماله ، لطمأنة سكان الجزائر ، هو إلغاء ما يسمى بالمحكمة الحنفية وإقرار محكمة الإسرائيليين . وكسابقه ، لم يحط نفسه إلا باليهود الذين لا يستحون ولا يترددون أمام أي شيء . إن لنفوذهم ودهانهم الماكر دوراً

(2) هو نفس لويس فليب قبل أن يتولى الملك .

كبيراً في تسيير بلدي المسكين : اغتصاب الأملاك وسفك الدماء ، والنهب والجرائم .. تلكم هي الأعمال التي تم في الجزائر ، يا له من دستور ، ويا لها من قوانين لا إنسانية تتعارض مع نظم المساواة والسلام ، يا له من ميثاق هذا الذي يسير شؤوننا !

إن النفي والاعتصاب يكونان منه المادة 57 . وينبغي أن نعتبر أنفسنا سعداء إذا لم تصف مادة أخرى تقضي بإبادة الشعب الجزائري . وإذا كان مكتوباً (لأستعمل عبارة السيد الجنرال كلوزيل) فإنه يجب أن نستلم للأمر الواقع ، ولكن من سيكون جلادنا !

إن إلغاء هذه المحكمة كما ذكرت ، خطأ لا يقتدر ، وهو مناف لترتيبات قوانيننا . وهناك مادة من معاهدة الاستسلام تنص على حصانة تلك القوانين . وعليه ، فإن إلغاء هذه المحكمة يتناقض مع مبادئ المعاهدة المبرمة بين الجزائر وفرنسا . فيمقتضى أي حق وأي قانون قام السيد كلوزيل بإلغاء هذه المحكمة ؟ أليعارض الأمة العثمانية ؟ وبما أنه لا توجد أية عداوة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية فلماذا تحتقر قوانينها ويستهان بنظمها ؟ وبهذه المناسبة أورد بعض الفقرات من قرار 22 أكتوبر سنة 1830 .

المادة الأولى : ترفع جميع دعاوى المسلمين ، في الميدانين المدني والجنائي إلى القاضي العربي ، ينظر فيها بكل حرية وبدون استئناف ، وفقاً للقوانين وللعرف السائد في البلاد . وفي حالة ما إذا كان القاضي العربي (المالك) في حاجة إلى مساعدة المفتي أو القاضي التركي (الحنفي) فإن هذا الأخير لا يكون له إلا صوت استشاري ، لأن القرار من اختصاص القاضي العربي وحده .

المادة الثانية : ترفع جميع دعاوى الإسرائيليين ، في الميدانين المدني

والجنائي ، إلى محكمة تتكون من ثلاثة ربابنة تنظر فيها بكل حرية وبدون استئناف ، وفقاً للعرف والتقاليد الإسرائيلية ، الخ . . .

وهكذا ، إذن ، نرى من خلال ما تقدم أن المحكمة الحنفية التي يسيرها قاض تركي قد ألغيت على الرغم من الاحتفاظ بالمحكمة الإسرائيلية . إن هذه التدابير الظالمة من شأنها أن تخلق كثيراً من الغموض في قوانين البلاد .

الفصل التاسع

عن مصطفى بومزراق ، وباي التيطري

عندما وصل بو مزراق مصطفى ، باي التيطري الذي سبق أن تكلمنا عنه ، إلى المدينة وضع مشروعاَ جنونياَ لإعلان نفسه باشا أو رئيساً مستقلاً للإيالة : فنظم ديوانه ، وعين من بين الأتراك خزانجياً وآغا ، وسك العملة . وبعد ذلك ، قام بأعمال تصفية ، واختلاسات وجرائم مختلفة . وأرسل آغاه لإجبار القبائل المجاورة لمدينة الجزائر على أن تدفع له دراهمها وكل ما تملك بحجة أنها كانت تحمل المؤن لتغذية الفرنسيين في المدينة ، وكتب كذلك إلى باي وهران لينجده بالأموال والذخائر الحربية والقهوة ، وقد ثبت لي أن هذا الباي أرسل له كل ما طلب وأعداً إياه بأنه سينضم إلى قضيته عندما يحين الأوان . وبعث باي التيطري نفس البيان إلى باي قسنطينة ، ولكن هذا الأخير رفض طلبه وأجابه قائلاً : « إننا متساويان ، ولا فضل لأحدنا على الآخر » . ثم حذر من أن يوجه إليه مثل هذه الطلبات في المستقبل ، وأخبره بأنه لن يستسلم له كما دعاه إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة . وأراد مصطفى أن يحدد

الكرة ، فأرسل له ، في هذه المرة الثانية ، قفطاناً ومرسوم تعيينه على رأس
البايلك .

إن هذه الواقعة المخزية لم ترد باي قسنطينة إلا غضباً حتى أنه لم يفضل
بإجابته . واغتاض باي التيطري بدوره من عدم الياقة هذا ، مما أدى إلى اشتعال
الحرب بينهما . ثم اتصل باي التيطري بإبراهيم ليكون إلى جانبه ، وكان
إبراهيم هذا باياً على قسنطينة في عهد الأتراك ، وقد عزل لعجزه وسوء تدبيره ،
وعندما كان في الحكم تزوج من بنت أحد شيوخ الصحراء اسمه فرحات (1)
ولذلك حمل إبراهيم السلاح إلى جانب باي التيطري ، ولكن هذه المحاولة
لم تنجح رغم تضافر المجهودات (2) .

وواصل مصطفى - باي التيطري - تصرفاته الجنونية التي لم يستفد منها إلا
الجنرال كلوزيل . لقد أرسل لهذا الجنرال برقية مليئة بالمتاعب والتعابير العدوانية ،
وأخيراً أعلن أمام الملا أنه يتخلل عن المهمة التي كلفه بها بورمون . لقد ترجمت
بنفسي هذه البرقية وكلفت بالرد عنها . وعلمت أن سكان المدينة اتصلوا سراً
بالجنرال كلوزيل وطلبوا إليه أن يأتيهم . وهذه المناسبة طلب الجنرال من
أعيان الجزائر أن يقدموا له قائمة بأسماء أشخاص متوسطي العمر ينتسبون إلى
أسر كريمة ، ليختار من بينهم واحداً يعينه باياً على التيطري . وكان يوجد
ضمن القائمة الطويلة التي قدمت له اسم مصطفى بن عمر الذي قيل إنه ابن أخ
حسين باشا داي الجزائر القديم ، وهذا خطأ لأنه لم يكن إلا ابن خال زوجة
حسين باشا . وهكذا تم تعيين مصطفى بن عمر باياً على التيطري .

(1) هو فرحات بن سعيد شيخ العرب الذي تكلمنا عنه .

(2) حول هذه القضية انظر الفصل الثالث من مذكرات الباي أحمد .

الفصل العاشر

تابع لإدارة الجنرال كلوزيل ، وحملاته ضد المدينة والبلدة نسخة المعاهدات

خرج القائد الأعلى من الجزائر على رأس جيش ومعه آغا العرب (حمدان
ابن أمين السكة) متوجهاً إلى المدينة . لقد كان سكان الإيالة ، إلى أن جاء
الفرنسيون ، يرون في مدينة الجزائر حصناً منيعاً ، ولذلك ظنوا أن الأمة
الفرنسية التي استولت عليها هي أمة عظيمة واعتقدوا أنه لا يوجد شعب
يستطيع مقاومة جيوشها . ومن جهة أخرى ، فإن نكسات مصطفى باي
التيطري (بو مزارق) ، ومراسلات حمدان الآغا المذكور التي كتبها في
صالح القضية الفرنسية ، كلها أفادت الفرنسيين وساعدت كثيراً على القيام
بحملة المدينة . ويقال كذلك - لكنني أستبعد - أن الجنرال كلوزيل قد وزع
الأموال سراً ، لتسهيل وصوله إلى المدينة .

وعندما دخل إلى هذه المدينة نشر بها نائماً يؤكد فيه تلك الوعود التي
ضربها المارشال بورمون . وقد كتب هذا البيان في البلدة ، وهي مدينة أو

قرية تقع في سفح الجبل ، معظم سكانها من الجلبليين الذين تحضروا لتحسين أوضاعهم .

وعندما اقترب الجيش الفرنسي فروا إلى الجبال . وغادر الفرنسيون هذه المدينة بعد أن تركوا فيها حامية صغيرة تتكون من 600 شخص فقط . وقد استعد الجلبليون بمساعدة بعض سكان البلدة لمهاجمة تلك الحامية ، ولولا أن الجنرال كلوزيل رجع بسرعة من المدينة لأبادوها عن آخرها . ولما علم الجلبليون يرجع الجيش تفرقوا ولاذوا بالفرار . وعندما قام الجنود الفرنسيون بأعمال وحشية في هذه المدينة وأحدثوا مجزرة رهيبة ، لم ينج فيها رجال ولا نساء ولا أطفال . هناك من يذكر أنه تم تقطيع بعض الرضع على صدور أمهاتهم . ووقع النهب في كل مكان ، ولم يستثن حتى الجزائريون الذين فروا إلى هذه المدينة لينجوا من ظلم الحكومة الفرنسية ، وليجدوا وسائل تمكنهم من العيش (إنني أتكلم هنا بكل نزاهة ، ولا أروي وقائع الأحداث إلا كما جرت) . وهكذا ، فإن عدداً كبيراً ممن لم يكونوا يفكرون في خيانة الفرنسيين ، ولا حتى في معاداتهم ، قد وقع تقطيعهم في هذه الظروف ! هل من العدل أن يكون الاحتداد أو الغضب في سبب مثل هذه الأعمال ؟ وبهذه المناسبة أذكر الحادثة التالية :

لقد اضطر المسمى محمد بن سفة إلى المجيء إلى البليدة ليعيش فيها ، وكانت مهنته كإسكافي لا تكفي لتوفير وسائل عيشه ، وعيش امرأته وبناته الصغيرات الأربع . وقد كان يسكن داراً صغيرة ، دخل إليها في أثناء الهجوم وأغلق الباب . إنه لم يكن يملك أي نوع من أنواع السلاح ، ولم يكن معه سوى الأدوات التي يشتغل بها . وعندما دق الجنود الباب خرج إليهم صحبة زوجته ،

ولكن سرعان ما وجهت إليه طلقات عديدة أردته قتيلاً ، كما قتلت طفلة لها من العمر عامان ، أما زوجته فقد كسرت ذراعها ، ونهبت الدار كلها . ولما بقيت الزوجة المسكينة بدون مورد بعد أن كسرت ذراعها وأصبح عليها أن تعمل ثلاث بنات ، توجهت إلى القائد الأعلى ، ولكن شفقتة لم ترد على أنه أركبها بغلة دون أن يضمدها جرحها الذي ظل يدمي طيلة الطريق .

إنه ليؤثنا كثيراً أن نذكر هذه التفاصيل ! لأن المؤرخ أيضاً ، إنسان ، وهو مجبر على أن يتوقف عن التفكير وعن الكتابة ليتحسر على بعض أفعال الناس . ومع الأسف ، فما هو العلاج لكل هذه الشرور ؟ إن شياطين السوء تظهر في كل العصور ، تجر وراءها أنواعاً من الآفات . والملوك - في كل عهد - مجبرون على مشاهدة تلك المعارك ، بدوسون الجثث بأقدامهم ويسمعون صيحات الألم ... ويرون ، أخيراً ، جسيم ويلات النهب والموت !!!

إن هذه المرأة قد أصبحت تتسول بعد هذا الحادث . وغيرها من السكان كثيرون . ولقد كنا فيما مضى ، نستطيع إعانتهم لأننا كنا نملك مؤسسات خيرية . أما الآن فإن تلك المؤسسات كلها أصبحت في أيدي السلطات الفرنسية التي توزع من حين لآخر بعض الصدقات ... فيعطى لكل فقير في كل أسبوع (سوردي) أو اثنين في بعض الأحيان .

يأتي هؤلاء البؤساء بالآلاف ، فيتنازعون ويتضاربون على تلك المعونة البسيطة . وفي أثناء التوزيع تسد الطرقات . إن مثل هذه المساعدة وهذا التوزيع القليل لا يحققان الهدف المنشود ، ولا يكفيان لسد حاجات مثل ذلك العدد من المعوزين . ولكن المدير لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . ومن جهة أخرى ، فإن نصف المبالغ المخصصة لهذا النوع من الإعانات يعطى

لشخص لن أذكر اسمه ، وبوزع الربع الأول من النصف الباقي على المدير والموظفين والمعوزين أما الربع الأخير ، فإنه ، يحفظ لأملاك الدولة ولتنمية خزائن فرنسا .

ولكي نعود إلى حوادث البلدة ، أقول ، أخيراً ، إنه كان يجدر بالجنرال ألا يترك أية حامية في المدينة بدلاً من أن يترك واحدة لا تستطيع أن تحمي نفسها من الجلبين الكثيري العدد ، وعندما يأتي المرء للحرب في هذه المقاطعة ، كان يجب عليه أن يتوقع جميع أنواع الانتقام خاصة من شعب تعصبى ساحط ، ثم إن هذا الغزو لا يشرف فرنسا لأن نتائجه تؤدي ، حتماً ، إلى إبادة جزء كبير من المخلوقات التي تكون الجنس البشري . وهل كان الفرنسيون يتصرفون بمثل هذه الطريقة لو أن الجزائريين كانوا يتدينون بنهم ؟ وعلى الرغم من أنني لا أعتقد ، شخصياً ، بأن الفرنسيين قدموا إلى الجزائر بدافع ديني ، فإن تلك هي فكرة كثير من الأشخاص الآخرين الذين يدعمون رأيهم بوقائع لا تقبل المنازعة . ما هو الغرض من مساعدات قدمت لليونانيين ومقدارها ستون مليوناً ، ساهمت فيها فرنسا وحدها بعشرين دون أن يكون لها أي مقابل ، أليس الغرض من تقديم المساعدة هو بناء مجد فرنسا ، ولكي تتمكن تلك الأمة العظيمة من احتلال مكانة في سجلات التاريخ ؟ والمساعدات التي قدمت للبلجيكيين ، وللبولنديين ، وتلك التي تقدم حالياً للبرتغاليين ، ألم تعط كلها لنفس الغرض لأن كل هذه الشعوب لا تقدم لفرنسا أي مقابل يتناسب مع مثل هذه التضحيات كلها ؟ وعندما يرى مثل هذه النوايا الحسنة كيف نصديق بأن نفس فرنسا هذه ترضى بأن يحكم الجزائريون التابعون لها بمثل تلك الطريقة الجائرة .

إن وقوع مثل هذا العدد الكبير من الأحداث الجائرة يتم علي أن أعرف بها ليسجلها التاريخ ، ولنين للأجيال القادمة كيف كانت تفهم الحضارة في القرن التاسع عشر . إننا نظلم ، في الجزائر ، وإذا أردنا أن نرفع أصواتنا ضد هذا النظام التعسفي ، فإننا ننفي . . . يستطيع الناس ، إذن ، أن يفرضوا السكوت ؟ ولماذا لا يحكمنا الفرنسيون حسب نظامهم القانوني ؟ لماذا لا يكونون معندين ، ولا يتصرفون وفقاً لقوانين العدالة إذا كانوا يريدون حكمنا بسلام ؟ وما من شك أنه كان يسرنا أكثر أن نتكلم بلغة أخرى ، فنذكر محاسنهم ونوجه لهم عبارات الشكر والتقدير ، ولكننا ، مع الأسف ، مجبرون على ذكر وقائع نتصب لهم في شكل منهم . وإننا لا نذكر هنا ولا نعيد إلا رسم المشاهد المؤلمة لكل ما يجري ، مع العلم بأننا لا نستطيع نقلها كما ينبغي .

ولأنهم ما له علاقة بحملة المدينة ، أقول : إن الجنرال كلوزيل لم يأت - صحبة آغا العرب وابن عمر باي التيطري - أية مقاومة في طريقه . لم يقم أي واحد بحمل السلاح ضد الحملة للأسباب التي ذكرناها ، وأن معظم من كان يمكن لهم أن يحاربوا الفرنسيين قد انسحبوا إلى جبالهم الوعرة حيث يستطيعون حماية أنفسهم من جميع الهجومات بالحجارة فقط .

لم يكن لمصطفى ، باي التيطري ، أنصار من بين البرابرة ، ولما تأكد من عجزه وفشل قضيته لجأ إلى أحد المرابطين . وهكذا ، إذن ، استسلمت المدينة لسلطان الفرنسيين ، وفي الحين شرعت السلطة في الاستيلاء على أملاك الأتراك وكل ما كان تابعاً للحكومة القديمة . وبهذا الصدد نقلت إلي الواقعة التالية ، ومع ذلك فإنني لا أستطيع تأكيد صحتها : قبل أن يسحب القائد الفرنسي جيوشه ترك بن عمر في المدينة بصيفته باباً ، ولكنه لم يترك له أية حامية لتدعيم سلطته . وقد سمح له بأن يجمع الضرائب على الطريقة التي كانت

تجمع بها في عهد الأتراك ، وذلك بقطع النظر عن كون البيانات تؤكد إلغاء تلك الضرائب . وإن أمر ابن عمر بجمع الضرائب وحده كاف للتدليل على أن وعود الفرنسيين ليست إلا كلاماً فارغاً ، وحيلة مخزية للوصول إلى الهدف الذي يصبون إليه . لقد كان أخذ الضرائب هو عمل الجور الذي تعبر به الإدارة التركية ، ومع ذلك لم يكن هناك نفي ولا نهب ولا تقتيل . لقد كان الأتراك مستبدين ، ولكن في درجة أقل من استبداد الفرنسيين الذين حققوا تقدماً كبيراً في هذا الميدان ! . ومن الواجب على الجنرال كلوزيل أن يعجب بجزء من هذا التأليف .

هناك من يؤكد بأن الحكومة الفرنسية قد أمرت بأن يعتنق المسلمون الديانة المسيحية . ويبدو أن « البريد الفرنسي » الصادر بتاريخ 20 جوان قد اكتشف السر ، ومع ذلك لم يصدر أي تكذيب في الجرائد الوزارية . من الممكن أن ثمة من يعتقد ، في أوروبا ، أن الجرائد لا تصل إلى البدو ، وأن هؤلاء الآخرين لا علم لهم بالسياسة الأوروبية . وهذا خطأ لأن البدو يعرفون كل ما يجري في أوروبا ، بينما لا يعرف الأوروبيون ماذا يصنع البدو في إفريقيا ، ولكنهم بضخمون الوقائع . وأن معظم البرابر الموزعين في مدن الإيالة وفي مدينة الجزائر خاصة ما زالوا يحتفظون بعلاقاتهم مع أهاليهم الذين يسكنون الأرياف . وموضوع أحاديثهم بالطبع هو أحداث اليوم . وكل ما يجري في مجال السياسة . وتتردد الأخبار من فم إلى أذن إلى أن تصل حدود الصحراء ، وكما يقول الشاعر العربي : إن الوقائع تتكلم بالنسبة لمن يريد أن يخفي سيرته .

وعندما رجع من المدينة لم ينس الجنرال أن ينسب لنفسه مجد ونتائج هذه الحملة . فعزل حمدان آغا الذي لم تعد لغوذه أية فائدة في إنجاح مثل هذه الحملات الداخلية ، وأعطيت الأوامر لكي يصحب برجلين من رجال

الدرك كلما أراد الخروج من داره (I) . ويوجد حمدان آغا ، الآن في باريس ، وقد أعطاه الجنرال كلوزيل شهادة تثبت بأنه خدم القضية الفرنسية بإخلاص ونجاح . فلماذا عزل إذن ؟ ولماذا كل ذلك التشكك العجيب في سيرته ؟ ولماذا استبدل بحاكم آخر ؟ وإن سلطات الحاكم الجديد لا تتعدى حدود النتيجة . فبالأمر من إدارة طائشة ؟ ! يستعمل أحد أبناء البلد كل سمعته ونفوذه وثروته لخدمة القضية الفرنسية . وعندما يقدم خدمات جليلة بعزل ! يعلن عن إلغاء الضرائب ثم يكلف ابن عمر باي ويؤمر بجمع تلك الضرائب في المدينة على الطريقة التي كانت تجمع بها في عهد الأتراك ، وذلك بعد أن نشر الجنرال يوسف ، بأمر من الجنرال المذكور بياناً يؤكد إلغاءها ، يأمر من تناقضات عجيبة ! ومع ذلك يبدو لي أن هذا الجنرال كان يجب أن يكون صادق الوعد لأنه يمثل ملك الفرنسيين في مملكة الجزائر .

وإذن ، فقد وجد ابن عمر نفسه في حيرة إزاء سكان المدينة ، فالذين كانوا خارج المدينة ، رفضوا أن يدفعوا ، ولم يكن يملك الوسائل لإرغامهم . إذ لم يترك له سوى مدفعين وقليل من البارود . ولقد كان من الممكن أن يذهب ابن عمر ضحية لو لم يساعده بعض المغاربة من مدينة الجزائر الذين هاجروا إلى المدينة . إنه لم يكن قادراً على الاعتماد على سكان المدينة الأخيرة التي لم تستسلم للفرنسيين إلا منذ مدة قصيرة ، ثم إن هؤلاء السكان كانوا يخشون البدو أكثر مما يخافون السلطة الفرنسية . إن هجوم هؤلاء البدو شديد ، ومن الصعب أن يقاوموا عندما يهجمون . لقد كانوا يهاجمون الجزائر من حين لآخر ، ولولا وجود الجيش الفرنسي ومدفعيته لقتل الجزائريون عن آخرهم ،

(I) أي أنه وضع تحت الإقامة الجبرية .

وسبب تلك الهجومات هو أن هؤلاء الآخرين قد تبنوا قضية الجيش الفرنسي
لقد كان من الواجب على الجنرال كلوزيل أن يترك لابن عمر قوات كافية ،
وأن يبدي استعدادات حسنة ، واعتدالا ، وأن يوفي بعهوده وبالالتزامات
التي أخذها على نفسه . بهذه الوسائل كان من الممكن ألا يظهر البدو أية
عداوة ، وأن تعيش المنطقة في هدوء وأن يستغني ابن عمر عن استعمال القوة .

عندما قام الجنرال كلوزيل بعملته ضد المدينة كانت المواصلات بين هذه
المدينة ومدينة الجزائر تكاد تكون مقطوعة . ولما رجع جاءه الأشرار وأخبروه
بأن عدداً من السكان كانوا قد أشاعوا بأن الجنرال انهزم أمام القبائل وكنت
واحداً من المتهمين بارتكاب هذا الذنب . وبهذه المناسبة كان السيد ، كادي
دوفو ، قد جمع المجلس البلدي وكنت عضواً فيه لتهنئة الجنرال بالعودة
سائلاً . وعلى أثر الزيارة أخبرنا بالتقارير التي وصلته . وقال بأنه عدلاً على
راحته وللتدليل على الثقة للحكومة الفرنسية ، يجب أن نجتمع له على الأقل 50
من أبناء الأعيان ، يبعثون إلى فرنسا كرهائن ، ولينعلموا اللغة ، الخ .
أيد شيخ البلدية هذا الطلب واقترح أن يشرع في تنفيذه ، وإلا إذا تعذر ذلك ،
أن تشرط مبالغ مالية بدلاً من الأطفال ، ثم أضاف السيد كادي دوفو بأن
رفض إرسال الأطفال إلى فرنسا سيبتدع خروجاً عن طاعة الفرنسيين ، والذي
لا يريد الامتثال لهذا الإجراء يجب عليه أن يخرج من مدينة الجزائر . ومع
ذلك ، فإنه لم يجرأ أحد على الخروج من الجزائر ، وعلى إرسال أبنائه إلى فرنسا .

1 - لأن الوالي لم يكن موثقاً به .

2 - لأن هذا الطلب جائر ، وحتى من كان يرغب في إرسال ولده
لينعلم في فرنسا ، فإنه أصبح يرفض الموافقة على هذا الطلب

التعسفي . وعليه ، فإن شيئاً لم يتم في هذا الميدان ، وضاعت القضية
في عالم النسيان .

كان المجلس البلدي يتكون من سبعة أعضاء كانوا ، قبل تعيين السيد
كادي في منصب شيخ البلدية ، يستطيعون التداول بحرية حول القضايا .
غير أن السيد كادي لم يعد يعطي أي اهتمام لآرائهم ، وصار ، بتصرفاته
كأنه يحتقر هذا المجلس . ونتيجة لذلك هاجر اثنان من أعضائه وهما : سيدي
مصطفى السانجي ومحمد ولد إبراهيم رئيس .

نظراً لذلك التغييب شرع في العمل على استبدالهما . وهكذا دعاني ،
الجنرال تولوزان ، لشغل إحدى الوظيفتين . قبلت لأنه لم يكن بإمكانني أن
أرفض . وقبل هذا العرض كنت متهماً ، نظراً لأنني كنت في خدمة الأتراك ،
بأنني أرغب في عودتهم ، وبأنني لن أرضى بأية وظيفة في ظل الحكومة
الفرنسية . ولذلك ، وعلى الرغم من أن وقتي يكاد يضيق عن مشاكل الخاصة ،
فإنني قبلت منصباً كان الجميع يرفضونه ، ومن جهة أخرى ، فلإننا لم نكن
قادرين على التعبير عن آرائنا أثناء اجتماعات المجلس . فالمداولات كانت
صامتة وشكلية فقط ، وبكلمة ، فإن مساهمتنا كانت غير مجدية .

كان أحد أعضاء هذا المجلس ، وهو المسمى بوضربة ، في نزاع معي .
فلم أكن أرغب في لقائه ، وكان كل منا يشتكي بصاحبه إلى القائد الأعلى ،
وقد انتهت هذه القضية بعزل أربعة منا واستبدالهم بآخرين .

كان هذا العزل مصدر سعادة لنا وتخلصاً من أحد الأعباء التي تثقل كواهلنا
ذلك أنه على الرغم من أن السيد شيخ البلدية لم يكن يتبع سوى هواه ، فإننا

كنا مسؤولين ، تجاه سكان الجزائر ، عن أعماله لأننا كنا نوافق عليها كما لو أنها كانت أعمالنا .

قبل أن أتخلى عن وظيفتي كان الجنرال كلوزيل قد طالب من البلدية أن تسلمه مسجد العاصمة الكائن بتاحية ميناء المسكة ليحول إلى مسرح ، وأكد بأن حكومته أذنت له بأن يقدم مثل هذا الطلب فقلنا له : إننا لا نستطيع الموافقة على هذا الإجراء ، وحتى لو أردنا أن نفعل ذلك ، فلننا لا نستطيع ، لأنه ليس من اختصاصنا ، واكتفينا ، بأن قلنا له : إذا كان المرغوب هو إقامة مسرح ، فإنه يمكن استعمال مسكن الداي القديم الذي هو واسع ، كما أنه يمكن استعمال الأراضي المحيطة به لبناء مسرح جديد إذا اتفقت الأمور ذلك . وهكذا ظل الطلب غير محاب ولم يبن المسرح .

كان من بين اليهود المقربين إلى الجنرال واحد اسمه ب ، وهو رجل لثيم لكنه يجيد التأمر ، وتوجد لديه جميع الوسائل الضرورية للتمرد إلى المجتمع يدير المكائد ويقوم بالأعمال الذميمة .

وهكذا أرسلت حظي هذا الجنرال إلى وهران ، في مهمة لدى الباي ، يستخرج منه الفوائد ويجعل منه بكرة حلوباً . ومقابل هذه الخدمات وتلك المحاباة أعطي للسيد ب (1) وسام جوقة الشرف . وعندما قدم رُسل تونس إلى الجزائر قدموا إلى السيد ك (2) هدايا رائعة ، أجهل نوعها . كانت مهمة هؤلاء الرسل إمضاء عقد خاص ببيع مقاطعتي قسنطينة ووهران .

كانت المفاوضات حول هذا الموضوع قد ابتدئت من طرف السيدين د (3) وج (4) اللذين أرسلهما الجنرال بورمون خاصة لتوزيع

(1) و(2) و(3) و(4) نعتقد أن ب هو بركري وك هو كلوزيل ود دوبينيوسك صاحب الشرطة . أما ج . . فلم نتمكن من اكتشافه ولكن يحتمل أن يكون السيد جيراردين .

البيانات التي تدعو الشعب إلى عدم الاعتداء على الجيش . وقد رأيت بنفسني أثناء سفري إلى قسنطينة ، تلك البيانات المختلفة التي يكاد يكون معناها واحداً ، فهي تدعو العرب والقبائل إلى مصادقة الفرنسيين ، وتعددهم وعداً قاطعاً بأنه لم يعد يشترط منهم تلك الضرائب التي تعودوا دفعها للأتراك ، وبأن جميع أنواع الظلم والإهانات ستوقف ، وبأنهم سيتمتعون بالعدالة والحرية ، وتضمن لهم حرية العبادة ، الخ

عندما وصل مبعوثا الفرنسيين السيدان د وج إلى تونس ، اتصلوا بالباي عن طريق قنصل فرنسا . عندها ظهر مشروع بيع المقاطعتين ، وبمقتضى هذا المشروع تسلم قسنطينة ووهران إلى باي تونس مقابل مورد سنوي قدره مليون من الفرنكات بدفعه لفرنسا عن كل مقاطعة . ويقال إنه كان يتوقع أن ينال المبعوثان الفرنسيان مكافأة هامة ، ولكن التغيير المفاجيء في الحكومة الفرنسية ، وعزل المارشال بورمون بعد ذلك ، منعا من إدخال المعاهدة في حيز التنفيذ .

ولما وجد الجنرال كلوزيل مشروع البيع هذا في وثائق سابقه ، أمر بإحيائه من جديد وتم التوقيع عليه من الأطراف المعنية . ويقال لنا بهذا الصدد ، وإن كنا لا نجزم القول ، إنه بالإضافة إلى المليون السنوي تم الاتفاق على أن يعطى مليون آخر لشخصية لا أريد ذكرها هنا ، ومائة ألف فرنك لشخصية أخرى لها مرتبة أدنى . ويقال إن هذا المبلغ الأخير قد وقع تحويله وإنه يوجد عند أحد رجال البنوك ببوليس ، وإن الصيرفي قد دفع عربوناً قدره بضعة آلاف من الفرنكات .

وحسب ما أعرفه ، فإن الحكومة التركية ، لم تكن تستخرج من كل

مقاطعة، في ميدان الضرائب ، إلا ثلاثمائة ألف فرنك على أكثر تقدير (5) .

وهكذا ، إذن ، فإن تلك البيانات التي تؤكد إلغاء الضرائب تتعارض مع معاهدات الجزائر كلوزيل التي تجعل الشاري ، باي تونس ، مجبراً على أن يستخرج من السكان أكثر من ثلاثة أضعاف الضرائب العادية التي كانت تدفع للأتراك ، كل ذلك بقطع النظر عما كان يمكن أن يطلبه ذلك الجزائر من منافع أخرى . وبهذه الكيفية ، فإن من كان يدفع عشر فرنكات يصبح مطالباً بأربعين على الأقل ، هذا ما أدركه العرب والقبائل أنفسهم . وإن هذه التصرفات ، كما نرى لا تحتاج إلى تعليق .

كل هذه الظروف قد أبقت العرب والقبائل في حالة عداوة دائمة ضد الفرنسيين ، وساهمت كثيراً في نفريهم من باي قسنطينة .

ومن حقنا أن نصرح هنا بأن فرنسا ، عندما أبرمت مثل هذه المعاهدات ، قد تصرف في الإيالة بكيفية لا يمكن أن تضاهيها كيفية من حيث الجور والتعسف (6) ، وما من شك في أن هذه الأعمال كانت مستندان من طرف الدول الأوروبية التي ستم يتحرر الشعوب وعق الرقيق (7) .

بمثل هذه « النوايا الحسنة » كيف لا نريدون أن يرغب العرب والقبائل

(5) هذا خطأ لأن الدنوش وحده كان يقدر بحوالي مليونين ونصف من الفرنكات بالنسبة للمقاطعات الثلاث . مع العلم بأن بابلوك التيلري هو أفقرها . وبالإضافة إلى الدنوش هناك أنواع مختلفة من الإتاوات والضرائب المفروضة على الواردات والصادرات الخ . . . (6) من الثابت أنه تم التوقيع على المعاهدتين الخاصتين ببيع مقاطعتي وهران وقسنطينة ، ولكنهما الفيتا من طرف الحكومة الفرنسية . انظر نسخة من كل منهما في آخر هذا الفصل . (7) يظهر أن حمدان كان يؤمن كثيراً ببنوق الإنسان .

في أن يعود إليهم السيد المارشال كلوزيل ؟ وما من شك أن ساوكة هذا هو الذي جعل الجرائد تكتب يومياً ، بأن هذه الشخصية محل عبادة في إفريقيا . ولقد كنت أود ، عندما سافرت إلى قسنطينة ، أو صاحبني بعض الشهود ليسجلوا « الشناء » الذي كان يوجه لهذا القائد الفرنسي طوال الطريق ، من الجزائر إلى قسنطينة .

كان المفتي سيدي محمد العنابي رجلاً نزيهاً وفاضلاً . ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائماً إلى الجزائر كلوزيل يأومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام ، للقوانين الفرنسية ولحقوق الإنسان . ولكن الوالي كان عنيداً ، وعليه قبض رجال الدرك على المفتي وقادوه إلى السجن ، وتعرضت أسرته لجميع الإهانات بحجة أنها كانت تدبر مؤامرة . يا نرى ، ما هي الجناية التي يمكن إسنادها للنساء والأطفال ؟

وعندما تقدمت إلى الجزائر كلوزيل أسأته عن سبب هذا الاعتقال أجابني بأنه كان يتفاهم مع القبائل لإثارتهم ضد الفرنسيين . ثم توجهت إلى المفتي فحدثته عن هذا الاتهام وسألته عن الأسباب التي يمكن أن تكون في أصل تلك الادعاءات ، فاحتج أشد الاحتجاج ضد هذه التهم ، وقال إنها كاذبة ، وما عليهم إلا أن يأتوا بالبراهين .

وبعد التمهيص فيما يمكن أن يكون السبب أو الأصل في الاتهام ، وجدت أنهم إنما استعموا تلك الحجة لإبعاد المفتي عن الجزائر حتى لا يقال أنهم تقضوا المعاهدة فجأة .

وبعد ذلك علمت من المفتي نفسه كيف وقع اعتقاله ، وأرى من

الواجب عليّ ، لفائدته ، أن أقدم لقرائي تفاصيل الحادث (8) .

لقد جاءه ترجمان الجيش وأخبره بأن الجنرال بنوي إخلاء مدينة الجزائر ، قال له : « إنه يريد أن يسلمك الحكم ، هل في استطاعتك أن تنظم جيشاً وقوة كافية ، لتهدة البلاد وللدفاع عن نفسك ؟ » .

أجاب المفتي بأنه « عندما يحين الأوان ، سأبدل كل ما في وسعي للقيام بإعادة التنظيم » .

— هل ستحصلون على الجنود من الداخل ، أم هل لكم الكفاية في مدينة الجزائر ؟

— في المدن وفي كامل أنحاء الإيالة ، وعندما يقتضي الأمر ، فإنني أستطيع الحصول على ثلاثين ألف جندي يكونون تحت تصرفي .

ويقال إن الترجمان كان قد أخفى شخصين ليكونا شاهدين على هذه المحادثة ، ولاستعمالهما ، عند الحاجة ، ضد المفتي .

هذه على ما يبدو هي الوسائل التي استعملت لتخلص من المفتي . وتلك هي المبادئ التي كان يطبقها السيد الوالي ! فعندما يريد هذا المسؤول أن يقوم بعمل تعسفي أو أن ينفي هذا ، ويبتز أملاك ذاك ، فإن جميع الوسائل « تبدو له صالحة » . والذي ينفي أو يفقد أملاكه يجب أن يعتبر نفسه سعيداً لأن هناك من يقدم للمحكمة العسكرية . وعلى هذا الأساس ، فإذا أراد الوالي أن يبتز من نفي هذا المفتي ، فما عليه إلا أن يدلنا على القانون الذي خول له القيام بإجراءات ضده !

(8) قال : لفائدته ، لأنه كان قد وعده بأنه لن يفشي السر لأحد .

عندما أخبر المفتي بالنفي توجهت من جديد للقائد الأعلى ، أتوسل إليه أن يسمح له ، على الأقل ، بتسوية شؤونه وبيع أملاكه وأثاثه وعقاراته . وبعد كثير من الصعوبات حصلت له ، تحت كفالي ، على أجل مهلة عشرون يوماً سوى خلالها حساباته . وعند انتهاء الأجل رحل إلى الاسكندرية .

إن هذا العمل الجائر قد جعل الناس كلهم يرتابون ، وخاصة السلطة التشريعية والقاضي والمفتي . فلم يعد أي واحد منهم يجرؤ على الكلام عن وثيقة الاستسلام خشية أن ينال مصير المفتي المذكور .

وأمر المكلف بإدارة أملاك مكة والمدينة بأن يدفع إلى صندوق أملاك الدولة كل ما كان يحتفظ به من أموال ، وأن يسلم في نفس الوقت جميع الدفاتر . لقد امتثل ذلك المدير إلى تلك التدابير وعلمت أن المبالغ المسلمة كان قدرها 140 ألف فرنك . غير أنه أذن لهذا الشخص أن يواصل اقتضاء مقادير الكرامات حسب العادة ، ولكنه تلقى تعليمات جديدة تغير قوانين المؤسساتين تغييراً كلياً . لقد كان الهدف من هذه القوانين هو مساعدة الطبقة الفقيرة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وتوزيع جميع الواردات عليها ، أما الآن فإنه لم يعد يوزع عليهم أسبوعياً ، إلا حوالي 800 فرنك .

١٠ هي الوسائل التي استعملت لجعل الحكومة الفرنسية توافق على هذه التدابير ؟ فبالنفي كنت أستطيع أن أرى مراسلات هذا الوالي إبان حكمه لكي أتعرف على ما الذي أيد آراءه في مثل ذلك التناقض مع نوايا الحكومة الفرنسية ، خاصة فيما يتعلق بالطبقة الفقيرة المحتاجة .

لقد كان الجنرال بارتوزين ، خلال المدة التي حكم فيها الجزائر ، بنوي إعادة أملاك مكة والمدينة لأصحابها . وكان للسيد بيشو والدوق دوروفيكو

نفس التفكير ، ولكن واحداً من هؤلاء لم يطبق تلك الإجراءات الحسنة .
ولأبرهن لقرائي على أنني لست إلاّ مردداً لآراء مواطني ، فإنني أحيلهم
على كتاب السيد يشون الصفحة 442 للاطلاع على وثيقة كان أحد قادة
العرب قد وجهها لذلك الوالي . وبدلاً من أن يصلح الأضرار ويعوضنا ، فإن
السيد جان تي دوبيسي ، قد فعل أحسن من ذلك : أنه صرح بأن جميع المساجد
والمؤسسات الخيرية والأوقاف ملك للدولة .

وهكذا ، تم الاستحواذ على جزء كبير من المساجد ، اكتري بعضها
لتجار حولها إلى محلات ، وخصص بعضها الآخر لإسكان جيوش الحملة (9) .

لقد سبقني سيدي إبراهيم بن مصطفى ، الذي غادر باريس منذ مدة
وجيزة ، إلى تقديم جميع هذه الاعتراضات إلى الحكومة الفرنسية . وأجيب
بأن تعليمات ستوجه إلى السيد جان تي دوبيسي لإصلاح الأخطاء ولتكون إدارته
مطابقة للعدالة (10) .

غير أن الرسائل التي ترد علينا من الجزائر ، تخبرنا بأن نفس النظام ما
يزال سائداً ، وأن السيد جان تي ما زال يتصرف بنفس العنف إلى درجة أنه
أجبر عدداً من مستأجري بعض العمارات التابعة لأُملاك مكة والمدينة على
إخلائها قبل انتهاء العقد .

(9) لقد وجهت إلى معالي وزير الحرب مذكرة فيها جميع اعتراضات سكان
مدينة الجزائر . كما أنني توجهت إلى الملك في نفس هذا الموضوع (انظر آخر هذا الجزء
نسخة المطالبات) .

(10) انظر في آخر هذا الجزء تحليل المذكرات والكلمات التي وجهها سيد إبراهيم بن
مصطفى باشا ، وجواب الوزير في هذا الموضوع .

وفي رسالة وزير الحربية ، بتاريخ 18 جويلت 1833 ، التي يلاحظ
فيها بأنه يجب أن أكون راضياً وردت الفقرة التالية : « لقد أمرت بأن يسمح
لكم بتقديم اعتراضاتكم . ولقد استقبلتم من طرف الشخص الذي كلفته
بشؤون الجزائر » . هذا الشخص هو السيد مارتينو . وها هو ما قاله لي عندما
مثلت بين يديه : « فكروا في كل ما تقدمونه للحكومة من كلام ، ولا تكونوا
متحيزين ولا مبالغين » .

إنني لا أعرف كيف أفسر مثل هذه الإجابة . إنني أعترف بأنني لست
فرنسياً ، ولا أعرف جميع دقائق هذه اللغة . وإنني عرضت الوقائع ، في
مذكرة المطالبات ، بكيفية صريحة ولا يعترها غموض ، ولكني لا أعتقد ،
ولا يمكن أن أتصور أن تلك طريقة مباشرة للإجابة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحاكم المرید لكل شيء .

« إن الموقعين أسفله : بارون فولان ، رئيس مقتصدي الجيش الفرنسي
في إفريقيا ومقتصد مملكة الجزائر ، المفوض من طرف الجنرال كلوزيل القائد
الأعلى لجيش أفريقيا ، وسيدي خير الدين آغا الممثل لجلالة باي تونس ،
وأحمد باي وهران ، المجتمعين للاتفاق على ضبط الشروط التي يتولى بها
أحمد باي إدارة بايملك وهران ، قد اتفقوا على ما يلي :

المادة الأولى : إن أحمد باي ، أمير البيت المالک في تونس ، الذي عين
بأياً بقرار من القائد الأعلى للجيش بتاريخ 4 فيفري الحالي ، سيتولى حيناً ولاية

البابلك المذكور بجميع ملحقاته ما عدا حصن المرسى الكبير الذي تحتفظ به الحكومة الفرنسية لنفسها .

المادة الثانية : سيبقى إزاء الاحتلال الفرنسي ، الذي يوجد مقره بالجزائر في نفس وضع التبعية التي كان عليها سابقوه من البايات إزاء إياالة الجزائر . وبديهي أن هذه المادة لا تتعلق إلا بالملكيات التي حصلت عليها فرنسا بواسطة الغزو .

المادة الثالثة : لا تؤخذ عن البضائع والسلع القادمة من فرنسا إلى موافق البابلك غير الرسوم التي تفرض على مثيلاتها عندما تدخل ميناء الجزائر . وعليه فإن تعاريف الجمارك المسنونة أو التي ستسن في الجزائر هي التي تطبق دائماً .

المادة الرابعة : يحظى الفرنسيون والأوروبيون بحماية خاصة في كامل أنحاء البابلك . ومن يأتي منهم لفلاحة الأرض تعفى متوجاته من جميع الرسوم والضرائب خلال السنتين الأولى والثانية .

المادة الخامسة : إن الباي هو الذي يتقاضى جميع موارد البابلك مهما كان نوعها وبدون أي استثناء . ويدفع الباي بدوره إلى حكومة الجزائر ، في صيغة إتاوة مبلغاً سنوياً قدره مليون من الفرنكات ، ولا يشترط منه شيء آخر مهما كان نوعه .

المادة السادسة : يدفع هذا المبلغ إلى خزانة الجزائر فصلياً بالنسوي ، وذلك ابتداء من اليوم الذي يتولى فيه الباي منصبه الجديد . وقد تم الاتفاق على أن تخفض الإتاوة في السنة الأولى إلى ثمانمائة ألف فرنك ، وإن أجل الدفعة الأولى يؤخر إلى فاتح سبتمبر القادم .

المادة السابعة : يتعهد الباي بأنه سيعمل ، بعدل واعتدال ، السلطة التي سيمارسها على هؤلاء السكان ، وبأنه يعمل على حمايتهم من اعتداءات الخارج ، وعلى بذل كل ما في وسعه للحفاظ على السلام والهدوء في الداخل .

المادة الثامنة : يستطيع جلالة باي تونس ، بصفته رئيساً للبيت المالك ، أن يعطي ولاية بابلك وهران إلى أمير آخر من بيته . ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بعد الحصول على موافقة الحكومة الفرنسية أو القائد الأعلى الذي يمثلها .

المادة التاسعة : لا يمكن للحكومة الفرنسية أن تعزل الباي إلا عندما يخل بالالتزامات الواردة في هذه الاتفاقية .

المادة العاشرة : في حالة ما إذا تبين من خلال مرور الزمن والتجربة والظروف أنه لا بد من تغيير أو تعديل هذه الوثيقة ، فإنه لا يمكن أن تتم تلك التغييرات أو التعديلات إلا بموافقة جميع الأطراف المتعاقدة .

المادة الحادية عشرة : إن جلالة باي تونس هو الضامن والمسؤول فيما يخص الالتزامات التي يتعهد بها باي وهران في هذه الاتفاقية التي تقدم له للمصادقة عليها .

المادة الثانية عشرة : لقد تم التوقيع على هذه الاتفاقية المصوغة باللغتين من طرف المفوضين ، كل حسب صفته المذكورة أعلاه ، وأرسلت في نسختين أصليتين ليصادق عليهما الطرفان المتعاقدان ، وسيتم تبادل الوثائق في أقرب وقت ممكن .

إمضاء : بارون فولان ، في أصلية العقد 5 ، وختم سبدي خير الدين آغا .

شهد على أنها نسخة طبق الأصل : الجنرال ، القائد الأعلى لجيش افريقيا : كلوزيل

إن الجنرال ، القائد الأعلى للجيش الفرنسي في افريقيا ، بمقتضى السلطات التي خولها له ملك الفرنسيين ، وبصفته قائداً أعلى ، وسيدى مصطفى المفوض المطلق لجلالة باي تونس ، ولأخيه سيدى مصطفى ، والذي ستبقى نسخة من تفويضه ملحقة بأحد هذه الأصول ، قد اتفقا على ما يلي :

المادة الأولى : بما أن القائد الأعلى قد عين بمقتضى السلطات المذكورة أعلاه باياً على قسنطينة ، سيدى مصطفى الذي اختاره جلالة باي تونس ، أخوه ، وبما أن سيدى مصطفى الباي المعين قد فوض ذلك التفويض المطلق المذكور أعلاه ، سيدى مصطفى الوزير وحافظ الأختام على أن يضمن باسم جلالة باي تونس وباسم الباي المعين ، تنفيذ الشروط التي تم الاتفاق عليها بين الطرفين المتعاقدين ، فإنه قد تم الاتفاق على صياغة تلك الشروط في هذه الاتفاقية ، على أن تكون الكتابة باللغتين ، وأن يكون التوقيع على الوثيقة من الطرفين كل حسب صفاته المذكورة في المقدمة .

هذه الشروط هي كالآتي :

I - يضمن جلالة باي تونس ، ويتمهد شخصياً بأن يدفع في تونس ، كضريبة عن مقاطعة قسنطينة ، مبلغاً قدره ثمانمائة ألف فرنك بالنسبة لسنة 1831 . وتكون الدفعة الأولى ، وهي الربع ، في خلال شهر جويليت القادم ، ثم تأتي الدفعات الأخرى في أوقات لاحقة بحيث تكون الأخيرة في نهاية ديسمبر 1831 ، ولتسوية الحساب ، فإن سيدى مصطفى حافظ الأختام ، وأحد

الأطراف المتعاقدة يقدم ، باسم باي تونس ولصالح الخزينة في الجزائر ، أربع سننات تقدر الواحدة بمائتي ألف فرنك .

2 - وبالنسبة للسنوات المقبلة ، فإن الدفع يكون بالربع أو فصلياً . ويرفع المبلغ إلى مليون من الفرنكات يقسم على أربع دفعات . هذا بقطع النظر عن الاتفاقات التي قد تحدث عندما تم تهدة مقاطعة قسنطينة .

3 - تسمح الحكومة التونسية بإرساء السفن الفرنسية ، مجاناً ، في جزيرة طبرقة كما تسمح لها بصيد المرجان وغيره .

4 - لا يدفع الفرنسيون في موانئ عنابة وستورة وبجاية وغيرها من مراسي مقاطعة قسنطينة إلا نصف الرسوم التي تفرض على الأمم الأخرى (II) .

5 - إن الباي هو الذي يتقاضى موارد مقاطعة قسنطينة مهما كان نوعها .

6 - تقدم جميع أنواع الحماية للفرنسيين والأوروبيين الذين يأتون للاستقرار في مقاطعة قسنطينة كتجار أو كضاحين .

7 - لن تنصب أية حامية فرنسية في موانئ البايك أو في مدنه ، ما لم يتم إخضاع المقاطعة كلها ، وعلى أية حال سبق الاتفاق فيما يخص اتخاذ التدابير الرامية لحفظ الأمن لصالح الطرفين .

8 - وإذا استدعى جلالة باي تونس ، باي قسنطينة ، أخاه ، فإنه سيتم تعيين أمير آخر تتوفر فيه الصفات الضرورية . وبعد موافقة القائد يعهد له بتسيير بايالك قسنطينة .

(II) من المعلوم أن تلك الرسوم كانت تقدر بنسبة 5٪ من الواردات أو الصادرات .

المادة الثانية : لقد وقع على هذا العقد المكتوب باللغتين ، القائد الأعلى
وسيدي مصطفى ، كل حسب صفاته المذكورة أعلاه وكان ذلك في نسختين
بقيت إحداهما عند القائد الأعلى والثانية عند سيدي مصطفى .

بجزائر ، يوم 18 أكتوبر سنة 1830

إمضاء : كومت كلوزيل

سيدي مصطفى

شهد على أنها نسخة مطابقة للأصل الباقي عند القائد الأعلى

أمين عام الحكومة

إمضاء : ف . كاز .

الفصل الحادي عشر

عَنِ الْأَوْقَافِ ، وَالنَّغِيرَاتِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لَهَا
تِلْكَ الْمَوْسِسَاتُ وَالْمَحَاكِمُ الَّتِي تُنْظَرُ فِي شُؤْنِهَا
أُثْنَاءَ وِلَايَةِ الْجَزَائِرِ كُلْوزِيل

لقد أنشئت ، حسب قوانيننا ، مؤسسات خيرية وأوقاف تهدف كما
ذكرنا إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم . وهناك طرق
متعددة للتصرف في هذه الأملاك . فوفقاً لمبادئ القضاء المالكي ، ان الذي
يهب ملكاً ما يتعهد بأن يسمح للمؤسسة المهدى لها أن تشرع حيناً بالتمتع بذلك
الملك . وحسب مبادئ القضاء الحنفي ، فان إرادة الواهب تصبح بدورها
قانوناً . غير أن الذي يوقف أملاكه على فقراء من غير مدينته أو قريته ، فان
إرادته لا تنفذ إلا بعد النظر فيما إذا لم يكن فقراء البلدة التي توجد فيها الأملاك
أكثر احتياجاً من غيرهم . في هاته الحالة يفضل الفقراء الأكثر احتياجاً ،
وكذلك إذا كان الواهب يرغب في أن يعطي حق استثمار أملاكه للفقراء
مدة عشر أو خمسة عشر عاماً ، وبعد انقضاء الفترة المحددة تعاد له أملاكه
كاملة ، فان ذلك لن يكون شرعياً ، ولا يستطيع الواهب أو ورثته أن يتصرفوا

فيه بعد تلك المدة، ويصبح حق الانتفاع هبة أبدية. وبمقتضى هذه القوانين المختلفة، أجمع الفقهاء على أن يطبق المذهب الحنفي على كل الهيئات المشروطة، وذلك لرفع الموارد الخاصة بالطبقة المعوزة. وعلى العكس، فلو تطبق مبادئ القضاء المالكي، فإن الأوقاف تقل بكثير عما هي عليه.

وإذا كنت قد دخلت في هذه التفاصيل الخاصة بالوقف، فلأنني متأكد من أن الأوروبيين سيقروا هذه التفسيرات بكل اهتمام حتى يتحققوا من أن شريعنا تعتمد أساساً على مبادئ حضارية وأخلاقية. وحسب هذه المبادئ نفسها، فإن جميع الممتلكات في الأرض لله، ولنا في هذه الدنيا إلا عابري سبيل، وما نمتنعنا فيها إلا وقتي. هكذا تأسست قوانيننا، وهكذا أصبحت تلك الأعمال مفيدة للسكان المعوزين، ووافق عليها أهل العصر.

إن كل من يهب ملكية ما إلى مؤسسة من هذا النوع، لا يستطيع، أن يرجع في هبته أو أن يتراجع في أعماله، ويعتبر عقد الهبة أحسن وثيقة، ولا يختلف عن أي نوع من أنواع عقود البيع بشرط أن تتم الهبة لصالح مؤسسة تتوافر فيها جميع الصفات المطلوبة لهذا الغرض. وهكذا، فإنه يحق لجميع الفقهاء أن يطالبوا بالإجراءات التي تقع لصالحهم، أي الإعانات، ولكنه لا يسمح بأن يتصرفوا في ملكية معينة.

وحسب القضاء المالكي، فإن الهبة لا تقبل إلا إذا كانت في حينها وبدون أي تقيد. فالذي لا يريد أن يهب ملكه لمسجد ما أو لمؤسسة أخرى إلا بعد وفاته، فإن هبته لا تقبل إلا بالنسبة للقضاء الحنفي، ووفقاً لقول نبينا: نوابا المرء الحسنه أبلغ من أفعاله - العوائد المتداولة تتحول إلى قانون - لا تحابوا واحد على الآخر، بل يجب أن تكون المنافع مشتركة - حاولوا أن

تقطعوا جنود الشر قبل البحث عن الخير. - (أو كما قال) مثلاً: هالة رجل يملك داراً يسكنها ثم يريد أن يقوم بعمل خيري. حسب المذهب المالكي فإنه يواصل التمتع بمسكنه طيلة حياته وبعد ذلك تنتقل الدار إلى إحدى المؤسسات الخيرية. وأما المذهب المالكي، فإنه يعتبر العمل باطلاً.

وبالإضافة إلى ذلك، تفرق قوانيننا شروطاً وشكليات ضرورية. فالمدير أو الوكيل على المؤسسات الخيرية يجب أن يكون مسلماً، يقوم بتعيينه الحاكم الذي هو أيضاً من المسلمين. وتساعد هذا الوكيل جماعة من الحياة والمؤمنين بجمع حقوق الانتفاع وتوزيعها وفقاً للتراتب القانوني. ويتقاضى هؤلاء العمال أجوراً عن متاعبهم وأشغالهم. وعلى الرغم من أن القوانين لا تنص على هذه الخاصيات، فإن العمل قد جرى بها وفقاً للمبادئ المشروحة أعلاه والقائلة: إن العوائد المتداولة تتحول إلى قانون. يجب أن تتوفر في وكيل أملاك مكة والمدينة نفس الخصال التي تشترط في من يوكل على أملاك المؤسسات الخيرية الأخرى، ويتحتم عليه أن يعمل حسب العرف والعادات الجاري بها العمل منذ تكوين تلك المؤسسات. مثلاً، فإن مساكن هذه المؤسسات كانت تكثرى بأجور معتدلة على شرط أن يقوم المستأجرون بالإصلاحات الضرورية، ولكن هذه التأجيرات لم يكن يسمح بها إلا لبعض الأشخاص الذين كانوا يحصلون على الإمتياز نتيجة أوضاعهم الاجتماعية، ويعتبرون تلك المساكن كأملالك لهم.

وحسب الإجراءات الجديدة التي سنتها السلطات الفرنسية، فإن الفقراء لا يحصلون إلا على جزء من موارد هذه المؤسسات، أما الباقي فيُدفع إلى صندوق أملاك الدولة. وتلك لم تكن هي نية المؤسسين، وبمثل ذلك الإجراءات

وقع تغيير وجهة تلك الأوقاف ، وحصل انتهاك حقوق الإنسان . ان هذه الإجراءات لظالمة ، ولا أخلاقية . إنها تلخل اليأس على سكان الابلالة ، وتجعلهم يكرهون سائر الأوروبيين بوجه عام ، ويعتبرون كل من يحمل يعمل فبعة مسيحياً ، وبالتالي عدواً لشعوب أفريقيا .

أعود إلى ملاحظاتي عن المؤسسات الخيرية فأقول : ان من كان يريد أن يهب شيئاً بعد وفاته ، يتوجه الى ما يسمى بالمحكمة الخفية ، غير أن هذه المحكمة قد ألغيت من طرف الجنرال كلوزيل . والمالكيون أنفسهم ، فانهم كانوا يحلون عقودهم على تلك المحكمة لتشجيع الواهيين ومساعدتهم ، ولمضاعفة موارد الطبقة المعوزة . هذه هي الأسباب التي أدت الى ضرورة إبقاء محكمتين وقاضيين ، وكل محكمة لا تقرر إلا بعد أن يبحث الفقهاء شروط العقد . ويكون هؤلاء الفقهاء من المدرسة التي ينتمي إليها القاضي ، وذلك لكي لا يقع غموض عند الناس .

غير أن هناك حالات يتحتم فيها على المحكمتين ، المالكية والخفية ، أن تتفقا وتقررا في اتجاه المبدأ الأساسي .

وإذا كان رب أسرة قد قدم هبة ، تنتقل ، بعد وفاته ، حسب المذهب الختفي ، الى إحدى المؤسسات الخيرية ، وكانت أسرته نفسها معوزة ، فإن الهبة تلغى وينظر إليها بحسب المبادئ المشروحة أعلاه والتي تقول : حاولوا أن تقطعوا جذور الشر قبل البحث عن الخير . . وليس من العدل في شيء أن تساعد الأجانب على حساب أفراد الأسرة المحتاجة .

وإذا كان الواهب غنياً ، ثم هلك ولم يترك وارثاً ، فإن تركته تعود

إلى بيت المال . وإذا كان قد أوصى بشيء لبعضهم ، فانهم ينظرون أولاً ، إلى الوضع الذي يكون عليه صندوق بيت المال ، وتلغى وصية الواهب إذا كان ذلك الصندوق فارغاً .

وإذا أراد أحد المسيحيين أن يهب أملاكه لكنيسة أو لفقراء من المسيحيين ، فإن القاضي يثبت العقد الذي يعتبر شرعياً ، ويكون للهبة نفس مفعول هباتنا نحن . وعلى العكس ، فإذا أوصى ذلك المسيحي بنفس الهبة لمساجدنا أو لفقراء من المسلمين ، فإن القاضي لا يستطيع أن يثبت بنفسه ذلك العقد الذي يعتبر غير شرعي والذي لا يعترف القانون بصحته مهما كانت الصفة التي يقدم بها . ويظل المالك حائزاً على أملاكه يتصرف فيها كيفما شاء . والسبب في ذلك هو أن ذلك المسيحي لم يقدم ذلك العمل الخيري إلا بحاملة أو بدوافع لها ارتباطات بالسياسة . وهكذا ، إذن ، فإن الهبة تكون صحيحة ما دامت نيته لم تتغير ، وإذا أراد إلغائها بسبب من الأسباب ، فإنه يترك شأنه دون تجديد العقد أو إعادة غيره .

تكون الهبة بتصريح أمام شهود أو بتخصيص الغاية للأشياء . مثلاً : يقيم رجل بناية لا يمكن بطبيعتها ، أن تعود عليه بأية فائدة ، كمسجد يشيده في أرضه ويسمح فيه للعموم بأن يجتمعوا لأداء الصلوات . فبدون أن يقال بأن تلك البناية مخصصة لكذا أو كذا ، وبدون أن تفصل عن الملكية الأساسية ، فإن المالك يكون قد قدم هبة صحيحة تتوفر فيها جميع الشروط حسب المبدأ القائل : (ان العمل صريح كالقول ، والعرف هو أحسن القضاة) ان شكل هذه البناية نفسه يدل في العادة ، على أنه لا يكثرى . وإذا وقع ، بدلاً من ذلك ، بناء قاعة كبيرة في دار المالك للإجتماع فيها وللقيام بالشعائر

الدينية ، مرة أو عدة مرات ، فإن المكان لن يصبح هبة : أولاً لأنه لن يعتبر كمسجد لأن شكله يختلف عن شكل المسجد ، وثانياً لأنه لن يكون مفصولاً عن الملكية .

ان التفاصيل الخاصة بشكل وطريقة تسيير تلك المؤسسات الخيرية كثيرة جداً ، تؤلف وحدها كتاباً كاملاً ، ومن الصعب جداً أن نتمكن ، في لمحة ، من تحديد ما كنا ينبغي ، وإشباع فضول قرائنا ، ومع ذلك ، فلأني سأذكر المبادئ الأولية في الجزء الخاص بالتشريع .

ان مثل هذه المؤسسات لا يمكن إلا أن تحظى بتأييد الرجال الطيبين والمشرعين في جميع البلدان وسائر الأزمان ، لأن هدفها الإنساني لا يرمي إلا لتخفيف من آلام أمثالنا ، وللمساهمة في إسعاد ذلك المجتمع الكبير الذي تربطنا به روابط لا تفصم .

وهناك سبب آخر سياسي وهو العمل على تخفيض أسباب الجنوح ، لأن اليأس كثيراً ما يؤدي إلى القيام بأعمال شريفة ويدفع إليها ذلك الذي ، لولا الضيق والحاجة ، لما جنح وارتركب ، جريئة يبدو أن وضع أسرته البائس قد جعلها شرعية في نظره . ومن ثمة فكيف أقدم الجنرال كلوزيل على تهديم قواعد تلك المؤسسات واستمع إلى نصائح السجين فوجرو ونولان فاستولى ، باسم الحكومة الفرنسية ، على ذلك الصندوق المتواضع وصده عن الهدف الذي أنشئ من أجله ، وهو هدف ، يبدو لي ، شريف وجدير بالمدح ؟

وعندما نقارن ثروة فرنسا بثروة هذا الجزء من إفريقيا ، ومواردها المتعددة وتأثيرها وعظمتها بموارد وتأثير وعظمة ولاية الجزائر ، فإن المقارنة

تخط من قيمة تلك الأمة في نظر الإفريقيين ، وفي أذهان أصدقاء الإنسانية والحضارة الذين يعملون على التوفيق بين الشعوب وتوحيدها ، وعلى تدعيم علاقاتها الاجتماعية والتجارية والسياسية .

في عهد ولاية السيد بورمون ، كان السيد دوبينيوز هو الرئيس المكلف بقسم الشرطة وكان يدرك مصالح البلاد إدراكاً تاماً ، يضاهي إدراكه لمصالح فرنسا . وأثناء إقامته القصيرة في مدينة الجزائر ، جامني ذات ليلة يريد الاجتماع لي أبحث عما يمكن استعماله من وسائل لإعانة الطبقة المحتاجة . كان أثرياء المدينة يهاجرون منها ، وكانت الصناعة قد أصبحت أثراً بعد عين ، وكان اليأس قد انتشر ، وأذكر أنني أثناء حديثنا حول هذا الموضوع ، قد قلت له : بما أن المؤسسات الخيرية ، المخصصة أساساً لمساعدة هذه الطبقة توجد تحت تصرف السلطة الفرنسية ، فإنه يجب أن يكون كل حق الانتفاع ، الناتج عن تلك المؤسسات ، لفائدة أولئك المحرومين . عندها طلب مني السيد دوبينيوز أن أقدم له قائمة بأسماء أهم الأعيان لتكوين لجنة تشرف على الأوقاف . فقلت له القائمة ، ولكن الأمر بقي عند ذلك الحد ، إذ لم يعمل بالآراء التي أبديتها ، واحتفظت السلطة بتلك المؤسسات الخيرية . ومن سوء حظ سكان مدينة الجزائر أن السيد دوبينيوز استبدل في مهامه ، لأن ذلك الرجل الموقر كان يفهم الأوضاع ويعمل ، بقدر الإمكان ، على إصلاح مفاسدها .

أعتقد أنني عثرت على السبب الذي جعل الموظفين الفرنسيين بشيرون على الحكومة الفرنسية بالاستيلاء على تلك المؤسسات : إنهم فعلوا ذلك ، أولاً للحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة ، في أسرع وقت ممكن ، ولو على حساب

الإنسانية وشرف الأمة . وثانياً ، لافتتان الأنفس ، وترغيب فرنسا في الإحتفاظ بالايالة لنفسها عندما يظهرون لها ان المدخول معتبر ، غير مبالغين بشرعية أو عدم شرعية تلك الحقوق .

إنكم تعطون الملايين لليونانيين وللبولونيين : 11 .. وتتجدون تلك الشعوب بأموال الجزائريين 11 إنكم تستغلون هذا البلد المسكين ، ومع ذلك ، فان الجزائريين ، أيضاً ، أناس 11 ... ما هي الذنوب التي اقترفوها لتسلط عليهم مثل هذه العقوبات 44 .. وبالتالي ، ما هو ، في هذه الظروف ، موقف الحكومة الفرنسية ؟ . لقد كان من الأفضل أن نحجم الحكومة عن تقديم تلك المساعدات ما دامت تتسبب في شقاء مواطنيها . وكيف يمكن أن نفترض بأنه لم يتفطن أحد لهذه الوقائع ؟ لا بكل تأكيد ، وان التاريخ سيسجل كل هذه الأعمال الشريرة 11 أينما نعتقد بأن الناس لا يصلحون ؟ ، إن أخطاء القرن السادس عشر ، وزلات المستبدين تتكرر في أيامنا هذه . لماذا ؟ . لأن الناس احتفظوا بأهوائهم الذميمة التي ورثوها عن آبائهم ، وعلى الرغم من أن الإمبراطوريات أصبحت تحكم بكيفيات مختلفة ، فان النتائج ما تزال واحدة .. فالجريمة المسموح بها تبقى جريمة ، وعند الملوك حل الضعف محل الطغيان .

وهكذا ، إذن ، إذا كان وكيل الأمة يقوم بأعمال تثير الظنون ، وإذا كان سلوكه مشبوه ومطبوع بضعف مخز ، فما هي الطريقة التي نقدم بها ليمكن المعاصرون من تقييمه ؟ .

ان المجتمع ، في بداية الأمر ، قد سن القوانين لتسييره . ثم تزايدت الحاجات على التوالي ، فشأت تلك الأوضاع والمهن المختلفة ، وبدأت

ضرورة تكوين حكومة وتعيين رئيس يفودها ، من هنا يبدأ كل شيء . وسواء أكان الرئيس سلطاناً ، ملكاً أو والياً ، أو غير ذلك ، فانه يقود ويعطي المثال ، وان أعماله الجائزة توهن عزيمة شعب بأكمله .

لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية كانت تباع الكتب التي هي أدوات الحضارة ، والتي تنير طريق الإنسان المثقف . وفيها كان يوجد الناسخون ، لأن المطابع معدومة في أفريقيا . وبما أن الفرنسيين كانوا ينوون إدخال الحضارة الى إفريقيا ، فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي كان يعطي العلم والمعرفة في جميع الميادين ؟ ، ان هذا السلوك يدل على أن هذا الجنرال ، بدلاً من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم والحضارة ، كان ينوي إغراقنا في الظلمات والجهل .

وهدم الجنرال كلوزيل ، كذلك ، محلات كانت تدعى سوق المقاييس ، تصنع فيها الأساور من قرون الجواميس وهي أساور جرت العادة أن تزين بها نساء العرب والقبائل أذرعتهن . وكانت تشكل فرعاً رئيسياً من فروع الصناعة في مدينة الجزائر ، وتصدر الى تونس وطرابلس وحتى إلى مصر . وكانت المادة الأولية ، التي هي قرون الجواميس تشتري حمولات بأكملها وكان لأصحاب المصانع مندوبون مكلفون بشراء تلك المادة الأولية وتوزيعها على كل مصنعي حسب أهمية المؤسسة وبرؤوس أموال قليلة ، كانوا يقومون بتجارة واسعة ، وكان هذا الفرع من الصناعة يشغل عدداً كبيراً من السواعد . وبعد تهديم هذه المحلات أصبح كل هؤلاء العمال بدون مورد واضطروا إلى التسول .

وهدم نفس الجنرال محلات ثلاثة تدعى سوق الصباغين ، كان العرب والبدو يعتمدون المعجم إلى مدينة الجزائر ليصبغوا فيها كل ما لديهم من

قمّاش . وكانت هذه الصناعة هامة ، تستهلك كمية كبيرة من القرمز والنيلة والقوة وغيرها من التوابل الصالحة للتلوين

عندما تهدمت هذه المحلات الثلاث ، قضى على جزء كبير من الصناعة.

ووقع تهديم محلات أخرى تسمى الفرارية ، وهي خاصة بجميع أنواع الأدوات الحديدية المصقولة مثل الأقفال وصغائرها وأوابب البنادق الخ... الخ... ولم يترك إلا حوالي ثمانية حوانيت معزولة .

ووقع كذلك تهديم ثلاثة مساجد كانت خاصة بسكان تلك المحلات الثلاث . وهدمت أيضاً ، مصانع الحرير . وكانت صناعة الحرير من أهم الصناعات في مدينة الجزائر . لقد كانت حمولات المراكب من الحرير تأتي من بيروت أو إزمير فتصنع منها الأقمشة وغيرها من المواد الأخرى ، ثم تصدر إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس وتركيا ومصر ، وحتى إلى سوريا .

وهناك محلات أخرى تسمى السوق الكبير كان يباع فيها الكتان ، والملابس المنسوجة وتصنع فيها الحبال الحريرية والقنائل والأزرار . لقد قام الجنرال كلوزيل بتهديم جزء من هذه المحلات ، وما تبقى أكمله الدوق دوروفيكو .

ولم تنج المراحض الضرورية لسلامة المدينة وزاحة السكان ، ووقع تهديم المحلات المخصصة لصائدي الأسماك .

ان الأماكن التي خصصت لبناء ساحة الجزائر ، لا تتناسب مع مساحة

المدينة ولا تتلائم مع هندستها المعمارية ، وذلك أن ساحة الجزائر لا تقل سعة عن ساحة الفاندوم في باريس ودائرة المدينة لا تزيد عن دائرة حديقة التويلري ، وعليه فإن هذه المساحة بالنسبة للمدينة كقلنسوة الجندي بالنسبة لرأس طفل يتراوح عمره ما بين 5 و 6 سنوات .

كان يحيط بالجنرال كلوزيل عدد كاف من اليهود الذين كانوا يوحون اليه بأخلاقهم الخاصة ، تلك الأخلاق التي وصفها كما ينبغي فانتل وكروتوس . ويقول تاسيت في حديثه عنهم : إن اليهود ، بسبب تعصبهم ، يحملون حقداً شديداً للأمم الأخرى . وكان المرووسون ، كذلك محاطون بأناس من نفس الجنس يسرونهم حسب أهوائهم .

وعندما أطلع هؤلاء اليهود على نقطة الضعف عند الجنرال ، أي على طمعه في الثروة ، جعلوه يلعب أكبر دور مثير للسخرية ، فأوهموه بأن المسجد المسمى : جامع السيدة ، يحتوي على كنوز الداي . ولذلك صار هذا الجنرال يزور في خشوع ، ذلك المكان التعبدية وبقصد مراراً ، للصلاة فيه وللدعاء ، ثم قرر « بكل عفة » أنه يستولي عليه وعلى الزرابي والثريات والمشاعل وعلى منبر رخامي كان هناك .

وهكذا أمر الجنرال كلوزيل بفتح أبواب المسجد ، وأدخل اليه ، ليلاً جماعة من العمال للبحث عن الكنز المزعوم . وظل الأمر كذلك إلى أن استنفذت جميع وسائل البحث وضاع كل أمل . ولتغطية هذه الفضيحة شرع حيناً في تهديم ذلك المسجد الذي كان يشتمل على أعمدة من الرخام النادر وعلى أبواب ضخمة قيل إنها بيعت فكيف يمكن بيع أشياء هي من ملك المسلمين وحدهم؟

ومن هم الذين اشترؤا؟ يقال إن تلك الأشياء نقلت إلى تولوز (1) وقد كانت حيطان ذلك المسجد مغطاة بمربعات الخرف العسبي التي استوردت من اسبانيا، وكانت في المسجد أيضاً عارضات كبرى من خشب الكرسة النادر الذي يستورد من ناس بلذن، لأن اميراطور المغرب لا يوافق على تصديرها إلا بصعوبة. وقبل الانتهاء من تهديم هذا المسجد الذي لم يحصل إلا للبحث عن الكنز الموهوم وقع الإستيلاء على جميع الأشياء المذكورة أعلاه، وأهملت عملية مواصلة الهدم، واعتقد ان مصاريف ذلك الهدم لا تتجاوز مبلغ 10,000 فرنك.

إن نفس الجنرال كلوزيل الذي يزعم أن الأفريقيين يرغبون بشدة في عودته، قد أوجب على المفتي أن يسلمه المساجد الواقعة أمام الأبواب التي يدخل منها البدو المترمتون الذين يحومون مدينة الجزائر. لقد طلب هذه المساجد ليجعل منها مستشفيات لجيوشه، وتعهد للمفتي أنه لن يستعملها أكثر من شهرين واضطر المفتي إلى تنفيذ ذلك الأمر السامي.

وهناك أفعال أخرى كثيرة أستطيع أن أقول بأنها منافية لتقاليدنا، وهي التي تنفر السكان من السلطة. هذه هي الأسباب التي جعلت الجزائر غير قابلة للاستعمار، وبإمكاننا القول بأن السيد كلوزيل هو الذي كان أصلاً في وجودها.

وعندما كنت عضواً في مجلس البلدية، في عهد بورمون، طلب منا شيخ البلدية أن نسمح له بتحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش، ذلك الذي قال عنه بأنه لا يملك مسكناً يأوي إليه في الشتاء، فأجبناه بأن تلك الأماكن

(1) مدينة كبيرة في الجنوب الغربي من فرنسا.

معدة لأمر لا نستطيع تغييرها وعليه لن نوافق لمحض إرادتنا، ولكنه إذا أراد استعمال القوة للاستيلاء عليها فإنا نكون عاجزين عن منعه. وبعد قليل من المحادثات، رفضت ملاحظتنا ووقع الاستيلاء، ظلاً على المساجد.

إن الحكومة الفرنسية باستعمالها العنف، تنفر السكان وتثيرهم ضدها كما أنها تنصرف ضد المعاهدات والالتزامات التي كانت قد وقعت عليها.

وحسب شريعتنا، فإن المساجد ملك للجميع وهي مخصصة، فقط لعبادات المسلمين. والقاضي نفسه لا يستطيع تغيير هذه الوجهة، والمسجد مكان مقدس لا يحق انتهاكه بالنسبة لجميع المسلمين، سواء منهم سكان فارس والمغرب أو الصين. وبما أن وثيقة الإستسلام تعترف باحترام المساجد وتتعهد بضمان ذلك (2)، فإن سكان مدينة الجزائر ان يتوقفوا عن الإحتجاج ضد هذه الإنتهاكات.

وبقطع النظر عن هذه الملاحظات، فإن السيد جانتني دوبيسي قد صرح أمام الملا بأن كل المساجد والمؤسسات الخيرية تابعة لأملاك الدولة، والإدارة العامة هي التي تنصرف فيها وتستغلها كيفما شامت تكثرها كمحلات أو تستعملها لأشياء أخرى.

والذي يدهشنا في هذا الموضوع هو إذن رئيس الوزراء لأننا نفهم من

(2) جاء في المادة الخامسة من وثيقة الاستسلام: أن الدين المحمدي سيبقى معمولاً به كما كان سابقاً. إنه سيبقى على ما هو عليه. إن حرية أهل البلاد، مهما كانت طبقتهم سبقي محترمة، وأن دين هذا الشعب وممتلكاته وتجارته وصناعته بالإضافة إلى نساؤه سبقي محترمة.

خلال ملاحظات السيد بيشون ، بهذا الصدد ، في تاريخ II ماي 1832 ، أنه أعطى أوامر فيما يخص ذلك . وفيما يلي فترة السيد بيشون :

« لقد درست قضية المحلات التابعة للدين الإسلامي . ولاني ، منذ أن وصلت وأحطت علماً بوجود لجنة تدعى « لجنة المحلات العسكرية » لم أسمع إلا صيحات متوالية فيما يخص المساجد وضرورة استزادة خمسة أوسمة منها بالإضافة إلى الستة أو السبعة التي توجد في حوزتنا . إن بعض الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم كسبيدين للديانة الإسلامية وللسكان الذين يتدينون بها ، لا يهتمون أن يعرفوا إذا كان ذلك يتفق مع وجهة نظر الحكومة ونواياها أم لا . إن هؤلاء الأشخاص كانوا يتقدمون إلي بنوع من الانبهاج والسخرية ليذكروني على عدم تمكيني من إنقاذهم .

كل هذه الوقايات لم تؤثر في . ومن حسن الحظ أن هناك من يقدر أعماله غير هؤلاء الجبهة المجانين . ومن ثمة ، فلاني انتظرت إلى أن جاءتني اشغال اللجنة .

إنكم تدركون جيداً . سيدي الرئيس بأنه لا يمكن أن اتردد لحظة واحدة للمساهمة في اخذ جميع المساجد لو كنا في حاجة إليها ، ذلك لأن سلامة الجيش هي الهدف الأسمى بالنسبة لي . ولكن القضية قضية ذوق وهوى بالنسبة للأشخاص الذين ذكرتهم . فالمسألة إذن ليست مسألة حاجة وضرورة الخ...

عندما نرى مثل هذه الأعمال ، يمكن لنا أن نتوقع الكثير من نوعها . وهكذا فمن الممكن أن يكون مشروع تمسيح الجزائر قد وجد في أذهان ولاتنا كما أشار إلى ذلك « البريد الفرنسي الصادر بتاريخ 20 جوان سنة 1833 ، مستعملاً العبارات التالية : إن الذي لن يفاجأ به الجمهور هو أن رئيس مجلس الوزراء الحقيقي منذ ثورة جويليت وإلى عهد قريب جداً كان قد كتب إلى المقتصد

المدني في الجزائر بوصيه بتمسيح الإيالة . وسكوت الجرائد الوزارية عن هذا الموضوع لا يدل أبداً على أن في الأمر خيراً .

وعلى الرغم من أنني لا أعتقد أن من الضروري تمسيح افريقيا لادخال الحضارة والحرية إليها ، وبما أننا لا نعرف نية السادة الوزراء الرسمية فإننا نكتفي بالإشارة إلى أن هذا المشروع يبدو لنا صعب التنفيذ .

وأكرر أن العدد الكبير من البناءات التي هدمت في مدينة الجزائر يستوجب مبالغ هامة للتعويض إذا لم تكن الوعود ، في هذه المرة أيضاً ، حبراً على ورق . ومع ذلك فإننا علمنا بأن عدداً كبيراً من تلك التهديمات لم يقبل . ولكي يكون هناك تعويض من الضروري أن يقع قبل الهدم ، تفيد كل ما يمكن أن يكون محل مطالبة .

إن كل ما يمكن تصوره من الشرور ممكن في عهد الظلم والطغيان . وبمجرد الاتفاق على مبدأ التعويض انشئت لجنة مكونة من موقنين عموميين لدى المحكمة ، ومن سيدي محمد بن إبراهيم ريس ، وسيدي الحاج العربي ابن الرئيس وكلاهما من أعضاء المجلس البلدي ، ومني انا حمدان .

ووقع الاتفاق على أن تقيم الأملاك حسب أجور الكراء أي 5٪ بالنسبة للمساكن و 25٪ بالنسبة للمحلات والخوانيت . وهكذا فإن الدار التي تكثرى بألف فرنك تقدر قيمتها بعشرين ألف . والمحل التجاري الذي يكثرى بمائة فرنك تقدر قيمته بأربعة آلاف . تلك هي على الأقل الطريقة التي اتبعناها لتحديد قيم المباني المهلعة . وقد حددت الأجور حسب ما كانت عليه في العهد التركي ، لا وفقاً لما أصبحت عليه منذ احتلال الجيش الفرنسي . وفي هذا الصدد نشر الجنرال كلوزيل قراراً ، أنقل ، بكل أمانة ، نصه فيما يلي :

« إن الجزائر ، القائد الأعلى ، بعد الإطلاع على تقرير مقتصد مملكة الجزائر ، والاستماع إلى اللجنة المكلفة بمصلحة الطرقات ، يقرر ما يلي :

المادة الأولى : إن سكان مدينة الجزائر الذين شملت مساكنهم وحوالياتهم ومحلاتهم التجارية ، أو شتملها ، في المستقبل ، تلك التهديدات التي أمر بها لفائدة المصلحة العامة ، وتوسيع الطرقات وتجميل المدينة وصيانتها ، إن هؤلاء السكان سيعوضون على أساس أجور الديار والخوانيت والمحلات التجارية التي تهدم أو التي تصبح غير قابلة للاستعمال .

المادة الثانية : إن العمارات التي دخلت في أملاك الدولة هي التي ستخصص لتلك التعويضات وذلك بمجرد أن يبين الإحصاء الجاري ما هي البنايات التي يمكن للحكومة الفرنسية أن تنصرف فيها .

المادة الثالثة : إن اللجنة التي سبق أن أنشئت ، ستواصل تسجيل الاعتراضات لينظر فيها عندما يحين الأوان .

المادة الرابعة : إن مقتصد مملكة الجزائر ، مكلف بتنفيذ هذا القرار .

في مقر القيادة بالجزائر ، يوم 29 أكتوبر 1830 .

إمضاء : كومت كلوزيل

عن نسخة ثانية من الأصل ، أمين عام الحكومة .

إمضاء : ف . دوكاز .

غير أن هناك فارقاً بسيطاً بين النص الفرنسي والنص العربي (لأن هذا البيان نشر باللغتين) . ولا نستطيع أن نفسر كيف وقع ذلك : أبحيلة من المترجم أم عن عجز . مثلاً ، ففي النص العربي ، المادة الأولى ، بدلاً من أن يقال : سيعوضون على أساس أجور الديار الخ... جاء ما يلي : سيتقاضى المالكون حوالى قيمة كراء الديار أو غيرها ، ويعطى لمن حرّموا من التمتع بأملأهم الخ... وعلى الرغم من أننا استطعنا أن نقرأ ونفهم بأن التعويض سيكون كراء دائماً - حسب الوثيقة العربية ، وإن كان المعبر كنص شرعي هو ذلك الذي كتب بالفرنسية وأمضاء الجنرال باسم الحكومة الفرنسية - فإن الحكومة الفرنسية أصبحت ، بمقتضى هذا القرار مسؤولة أمام الجزائريين عن قيمة أجور يمتلكاتهم المهذمة لا تنفعها في ذلك حجة . وإذا أرادت أن تنهرب من تلك المسؤولية فإنها ستتهم ، عن جدارة ، بسوء النية .

وبمقتضى هذا البيان ، حضر جميع المالكين الذين كانوا موجودين في مدينة الجزائر وجاؤوا معهم بالعقود .

وقدمت قائمة القيم المثبتة إلى القاضي باللغة العربية ، وقدمت نسخة عنها بالفرنسية إلى شيخ البلدية .

وعندما تقدم بعض السكان إلى مدير أملاك الدولة للمطالبة بالأجور حسب ما فهم من النص العربي ، أمرهم بأن يذهبوا إلى القاضي المالكي لكي يثبت صحة تلك العقود . وللقيام بذلك ، أخذ القاضي المذكور خمسة فرنكات عن كل شهادة ، وبعد ذلك فإن بعض الأشخاص فقط قد حصلوا ، ولكن بشق الأنفس على قيمة ستة أشهر من الكراء من صندوق أملاك الدولة وأجل الآخرون

إلى وقت لاحق ، غير أنهم اليوم قد يشعروا بعد مطالبات كثيرة قدموها بدون جدوى .

لقد دامت عملية التهديم طوال المدة التي تولى فيها الجنرال كلوزيل على الجزائر ويقال ، بهذه المناسبة ، إن أعوان الوالي قد ارتكبوا مآلفات كثيرة ، لأنهم كانوا يبقون على كثير من الديار ، مقابل تعويض ، حتى ولو كان الأمر قد صدر بتهديمها . وهناك أشخاص آخرون من المشتغلين في الهندسة العسكرية ، قد دفعتهم خيانتهم إلى أن يكتروا لحسابهم بأثمان بخسة وأن تشتروا مقابل ريع دائم . ومن ثمة ، فإن عمليات التهديم كانت هامة ، ولكن المسؤولين في ذلك الحين كانوا على الأقل يسجلون عدد البنايات التي تهدم . أما بعد تعيين السيد جاني دوبيسي ، فإن المسؤولين لم يعودوا يتعبون أنفسهم بالتسجيل ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن تصرفاتهم شرعية !! ولقد صرح السيد جاني دوبيسي لأحد أعضاء البلدية بقوله : إننا أخذنا الجزائر ، فنحن أصحابها بلا منازع ، وسنعمل فيها كل ما يحلو لنا سواء من ناحية الهدم أو غيره .

عندما وصلت إلى باريس عرضت على معالي وزير الحرب عدداً كبيراً من الاعتراضات من جملتها هذا العمل التعسفي (I) ، ولما لم أثنق من هذا الوزير إلا جواباً لم أكن أنتظره في الواقع رأيت من واجبي أن اتوجه للملك نفسه بشكوى متواضعة يوجد مضمونها في آخر هذا المجلد .

لم احصل على أية نتيجة من تلك المراسلة الجديدة ومع ذلك ، فإن وثيقة

(I) انظر الوثيقة رقم واحد .

الاستسلام تفصل ملكياتنا ، وإن البيانات التي نشرها كل من المارشال بورمون والجنرال كلوزيل لتؤكد ذلك . هل ينبغي أن نؤمن بأن مزايا المعاهدات ، لا تنالها إلا الشعوب القوية على حساب الشعوب الضعيفة ؟ وعندما ماذا يكون مصير المبادئ الأخلاقية التي نركز عليها ؟ لماذا يدرس علم القانون العام في أوروبا وفي فرنسا ؟ لماذا وجدت مدارس الحضارة والحرية ؟ هناك تعارض مع مبادئ المسيحية التي يؤمن بها الأوروبيون . ومن ثمة فماذا يكون مصير أخلاق المسيح أو أخلاق نبينا ؟ قال محمد : « إن شريعة خلفائي وأخلاقهم هي تعاليمي » .

ولأعود إلى حججي ، فلو كان بإمكانني أن أعرض للجميع ما أستطيع ذكره دون أن اضطهد لقدمت أشياء كثيرة ! ولكنني في عالم مجهول ولا أدري أين توجد المصائب . إنني أخشى أن انال مصير عدد من مواطني : أن اسجن ما بقي لي من أيام أو أن ابعد عن أسرتي وبلادتي . من يدري لعلي أنهم بالتآمر مع القبائل . وأني لي أن أعرف التهمة لأدافع عن نفسي .

وعلى الرغم من أنني لا اناهم مع أي ضربة ، فإنني انصفه عندما أقول بأن الاتهامات الموجهة له خاطئة . إنه لم يكن ابداً إلى جانب العرب والقبائل ضد الفرنسيين . إنه لمن المدهش أن يصدق السادة الولاة الأكاذيب ، وأكثر من ذلك دهشة أن يطالب أبو ضربة بالعدالة ولا يحصل عليها في بلد كفرنسا .

لقد تم الاستيلاء على المعابد وتحويلها إلى مساكن في زمن ولاية السيد كلوزيل على إفريقيا . ولقد سبق أن شرحت كيف كان يتوجب احترام مثل هذه البنايات التي نجد سداً قوياً في تقاليد وتعصب الطبقة الفقيرة . وفي عهد الأتراك ، أدرك المسؤولون ضرورة مسايرة تلك الأوضاع لأسر القلوب

وإذن ، فإن الحكومة الفرنسية قد استولت على تلك المعابد ووضعتها تحت تصرف إدارة أملاك الدولة ، كما أنها اقتصرت بعضها لعدد من التجار فبمقتضى أي قانون تستولي تلك الإدارة على تلك النباتات ؟ ألتنفر قلوب الأفريقية بين ؟ أو لتجدد التعصب ونضايف الإهانات ، وتجعل البلاد غير قابلة للاستعمار ؟ أم هل تستعمل هذه الوسائل لإثراء فرنسا ومضاعفة كنوزها ؟ لا إن الهدف هو أن يجعل من الاسم الفرنسي أو الاسم الأوروبي اسماً بغضاً في هذه القارة التي يميز فيها الإنسان بالقبعة والشاش .

إننا لا ندرك بحق ، الأسباب التي جعلت حكومة متنورة تسمح لموظفيها أن يغرروا بأنفسهم بواسطة التهب والمخالفات وعلى حساب فرنسا وشرورها .

وكذلك فإن سيدي إبراهيم بن مصطفى باشا قد عرض على الحكومة الفرنسية جزءاً من الأعمال الشائعة التي وقعت بعنف ضد مواطنيها . وكانت إجابة الحكومة أنها ستكتب إلى الجزائر لتمنع مثل تلك الأعمال التعسفية . ولكن على الرغم من هذه التأكيدات ، فإن جميع الأخبار التي تردنا من الجزائر تعلمنا بأن الاستبداد ما يزال مستمراً وأنه يتطور إذا صبح استعمال هذه العبارة وإنه وقع الاستيلاء أيضاً على معبد المرباط المسمى سيدي الجودي للاستفادة من أجره المتواضع الذي يقدر بمائة فرنك . هل صحيح أن الحكومة كتبت في هذا الموضوع ؟ هل يمكن أن تعارض أوامرها ؟ إنه للفر بالنسبة لي .

ودائماً في زمن ولاية السيد كلوزيل ، وقبل أن استقيل من عضوية المجلس البلدي ، دخلت ذات يوم إلى بيت خالي الحاج محمد ، أمين السكة ، فوجدت عنده السادة : فوجرو المفتش العام للمالية وجيرو دين مدير أملاك الدولة ، ودوفال رئيس المحكمة . كان الأمر يتعاقب بين في ذمته زعموا أنهم عثروا عليه في سجلات الإيالة ،

وكان الغرض من زيارة هؤلاء السادة هو أن يعملوه على التفاهم معهم ، وعلى أن يدفع لهم مبلغاً هاماً من المال . ويستطيع قرائي أن يروا في نهاية الجزء ، جميع التفاصيل حول هذه القضية التي كانت قد رفعت إلى مجلس الدولة .

وهناك مكيدة أخرى استهدفت باي وهران بعد الاستسلام مباشرة ودخول الفرنسيين إلى الجزائر ، كان هذا الباي كما سبق أن ذكرنا ، قد أعلن عن طاعته للقائد الأعلى مبدئياً له رغبته الشديدة بإخلاء المدينة لفائدة الجيش الفرنسي . وكان الجنرال عندئذ مشغولاً بجمع كنوز الداي فاكتفى بأن طلب منه أن يحتفظ بوهران ويبتظر أوامره ولكن بعد حوادث جوليت مرض الباي فتوجه إلى الجزائر صحبة أسرته وحاشيته . ولتفادي أطماع بعض الأشخاص احضر معه عدداً من الهدايا ، ولم يقتصر على السيد ك... وأسرته ، وإنما قدم لكل من كان محيطاً به كثيراً من الخلي والسيوف الذهبية وغيرها من أسلحة الزينة المحلاة بالحجارة الكريمة . أما الأموال ، فإنه لم يعط منها إلا إلى السيد ك... حدثني حسن ، باي وهران ، نفسه بأنه أرسل لذلك الجنرال ، أولاً 2000 ربايعي من الذهب (170,000 ف) . وعندما تجدد طلب هذا الأخير أرسل له مرة أخرى 10,000 سلطاني ذهبي (90,000 ف) .

بودنا لو نعرف إذا كان ذلك الجنرال يستلف بالقوة لحساب حكومته ، أم هل كان يتوجه إلى باي وهران ليقرضه شخصياً فقط ؟ وفي هذه الحالة الأخيرة ، وبما أن الاستدانة كانت عن ثقة ، وإن الكتابة عند الأشراف غير ضرورية لإثبات الدين ، فلنا نعتقد بأن شخصية كبيرة مثل السيد الجنرال ك... لا تنتظر إلا وقتاً مناسباً لإرجاع القرض هذا ، أكرر مرة أخرى ، إذا كانت الاستدانة لحسابه الخاص .

حسن باي هو أحد اصداقائي القدماء ، أعرفه إنساناً ، فاضلاً ومن واجبي

أن أقرله بهذه الحقيقة أمام الملأ . وعندما جاء إلى مدينة الجزائر لم أر مانعاً من أن أكون معه خاصة وأنه كان يعمل لصالح الفرنسيين . ونظراً إلى أنه حكم وهران سبعة أشهر لحساب الفرنسيين فإنه كان ينتظر نوعاً من الاحترام والتقدير من السلطة وهو أهل لأن يحظى بالعناية . ولكنه في الواقع لم يحظ إلا ببعض الزيارات الهادفة . قال بنفسه وهو يتحسر على وضعه : إن السيدين ف... (2) وف... (3) وغيرهما من أعوان الجنرال ، لم ينقطعوا عن زيارتي للحصول على مختلف المنافع . إن المقربين إليهم من اليهود كانوا يقولون لهم بأن هذا الباي كان أغنى من حسين باشا ، داي الجزائر ، وإنه كان عندما يأتي إلى الجزائر قد تعود أن يقدم كثيراً من الهدايا لجميع أفراد حاشية الداي ، وعليه فمن حقهم أن ينتظروا منه ، أو أن يعبروه على تقديم نفس المزايا . عجب أمر هؤلاء المستشارين وهل كان ينبغي اتباع نصائحهم ؟ ففي تلك الأثناء أمر الجنرال ك بالعودة إلى فرنسا ، وكان حسن باي يفكر في الابتعاد عن الجزائر بعد أن أعياه نهب أصدقائه الجدد ، وصار يخشى العقاب أن هو رفض الطعام أناس لا يشبهون ولذلك اقترح عليه الجنرال ك أن يذهب معه إلى فرنسا على متن سفينة تابعة للدولة .

استشارني حسن باي في هذا الموضوع فأجبتة صافداً بقولي : « تستطيعون البقاء هنا في أمان سيعاملكم الفرنسيون كما ينبغي لأنكم تستحقون ذلك منهم » . ولاحظت له كذلك بأن باي التيطري أجبر الفرنسيين عندما حمل السلاح ضدهم على أن يتصرفوا معه بكل شدة ، وإن زميله باي قسنطينة لم يعطاي اهتمام لهؤلاء الفرنسيين . وعليه فنظراً لموقفكم الودي ، لا اعتقد أنكم ستسبون بسوء بل على العكس أنكم ستجازون ، ومن الممكن أنهم سيسندون لكم قيادة العرب

(2 و3) فوجرو وقالوا اللذان سبق أن تكلم عنهما حمدان.

فتكونون جنرالاً ، وأضفت حسب رأيي بأن : « جميع العرب سيخضعون لكم بكل سهولة نظراً لثروتكم الشخصية الطائلة ، لأنهم لن يخشوا منكم أن تفرضوا عليهم ضرائب مفرطة » . إنني كنت أرغب في أن تبقى هذه الشخصية في الجزائر لتساهم في تخفيف آلام الطبقة المحتاجة ، لأن كل الأثرياء والأغنياء قد غادروا البلاد . وكنا قد بدأنا نشعر بالبوأس الشديد . إنه لم يبق في المدينة إلا الشيوخ الأتراك والمقعدون الذين كانوا في السابق ، يتقاضون أجراً أو منحة من الدولة ، وكذلك العمال في مختلف الميادين ، وكل هؤلاء لم تكن لهم ثروة ويكادون يكونون معدمين . وأخيراً ، استجاب ذلك الرجل الفاضل إلى رغبتني الملحة . ولقد كان الجنرال ك... أكثر مني تبصراً ، إذ من الممكن أنه كان يحس بأن بعض الأشخاص في الجزائر لم يكونوا ذوي نية حسنة وشريفة ، إزاء حسن باي ولأجل ذلك كان قد اقترح عليه أن يأخذه معه إلى فرنسا !

وبعد رحيل الجنرال ك... بدأت الاضطهادات تسلط على حسن باشا : سأذكر كل هذه التفاصيل في الفصل الذي يتعلق بالجنرال بارتوزين وولايته على الجزائر . غير أنني أقول بأن تلك الاضطهادات كانت قاسية إلى درجة أنها أجبرته على الهجرة إلى الاسكندرية ، متهماً لإيادي بأنني خدعته فيما يخص تقديره للفرنسيين . ومن الاسكندرية توجه إلى مكة حيث مات ، وترك فيها كنوزه . ولو أنه عومل كما كان يستحق ذلك لبقيت ملايين في الجزائر ولورثت منها الحكومة ما في ذلك شك ، ولكن هناك كثيراً من الأشخاص لا يشعرون إلا بمصلحتهم الخاصة ، ولإرضائها ينسون مصالح أمة بأكملها .

أذكر أن السيد الجنرال كلوزيل دعاني مرة لأتناول طعام العشاء مع أعضاء البلدية ، وفي ذلك اليوم نفسه أعلمنا بأننا عزلنا لأننا لم نكن متفقين فيما بيننا . وبعد ذلك دخل الترجمان زاكروبدأ يسخر من اجتماعنا عند الجنرال ، موجهاً كلامه المازح إلى هذا الأخير قائلاً : « أتوسل إليكم ، أيها الجنرال ، فلا تقطعوا رؤوس هؤلاء الأفاضل ، أنهم أرباب أسر » . وإذا كنت فيما يخصني ، لم أهتم بهذا المزاح فهناك ، من بيننا ، من استاء له . وبعد أن انعمت المحادثة نكلمنا عن سيرة باي وهران . فلاحظ بعضهم بأن هذا الباي ، لو كان عند حكومة غير الحكومة الفرنسية ، لكان يخشى الكثير ولوقع قتله للاستيلاء على ثروته . وعليه ، فإنه لا يليق به بلد أحسن مما ثلاثه فرنسا ، ومن ثمة يجب أن يبقى تحت سيطرة الفرنسيين . في تلك الظروف كنت أفكر مثلهم ، فوافقهم ولم أنتبه إلى أنهم كانوا يتكلمون كذلك عن خبث ، لأنهم كانوا يعرفون أنني كنت صديقه ، وإنني سأنصحه بالبقاء .

ولكي أذكر فضائل الجنرال كلوزيل ، ما علي إلا أن أعدد بعض الأعمال الخالدة التي وقعت أثناء ولايته لأفريقيا . ففي عهده نهب الأموات في مدافنهم ، وسمح بالتجارة بالعظام البشرية ، وبيعت حجارة المقابر ثم نقات إلى باب الوادي لتحول إلى مادة الجير ووقع الاستيلاء على آجر المقابر ، الخ . . . وقد تزايدت هذه التجاوزات إلى درجة أن القاضي رأى من الواجب عليه أن يقدم للجنرال كلوزيل اعتراضات في هذا الموضوع ، ولكن هذا الأخير لم يجبه إلا بكيفية غامضة ، كما لو كان يريد التخلص منه ، هناك من يرى أن الحكومة الفرنسية لم تسمح بانتهاك المقابر إلا لحقدها على ديننا . وفيما يخصنا ، فإنه لا يوجد أي اعتبار يمكن أن يسمح بتجريد الأموات من لباسهم الأخير ، وتشتيت عظامهم في التراب . .

وفي أثناء ولاية كلوزيل على الجزائر ، لم يكن يستمع لأية شكوى ، ولقد كان الفقهاء يريدون تقديم الاحتجاجات باسم أبناء وطنهم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك ، وكلما قدمنا اعتراضاً أجبتنا عليه بعمل أكثر ظالماً ونعسفاً . ومن ثمة وجب السكوت والصبر . وبهذه المناسبة ، فإن هؤلاء المساكين ، الذين يزعم الجنرال كلوزيل بأنهم كانوا تحت تأثير التعصب الشرقي ، قد قالوا مستسلمين : « أنها إرادة الله ! ولا يمكن أن نعارض القدر » . وبالفعل هل كان في استطاعتهم أن يحتجوا ضد الجور ؟ هل كانت لهم الوسائل والقدرة على دفعه ؟ لقد كان على هذا الجنرال الذي ردد تلك العبارات بكيفية ساخرة ، وهو لا يؤمن ، بلا شك ، بعظمة الإله الصمد ، لقد كان عليه أن يستعمل عبارات أكثر احتراماً للخالق الذي أحسن إليه ، لأنه لا يتكلم مع ملكه إلا باحترام ، وأن ملكه نفسه ينسب كل أفعاله لإرادة الله العلي العظيم . إن الطغاة أنفسهم لا يبدأون خطاباتهم إلا باسمه تعالى . وعلى الرغم من أن الله رحيم وقوي في آن واحد ، يبدو لي أنه كان على هذا الجنرال أن يستعمل لغة تكون أكثر لياقة .

الفصل الثاني عشر

نفسيرات حول ممتلكات الأوربيين في الجزائر

لقد حصل الأوروبيون ، في الجزائر ، على الملكيات بشروط كلها لصالحهم . إنهم كانوا يستطيعون الامتلاك بواسطة الربيع الدائم أو بأثمان زهيدة جداً ، وهذه الطريقة للحصول على الأملاك قد استوردت حديثاً لبلادنا ، ولا يسمع بها قانوننا الإسلامي . ولذلك كان الباعة والمالكون الجدد في خصومات مستمرة دائمة ، خاصة إذا كان هناك سوء نية من أحد الجانبين ، وجهل من الجانب الآخر . ومن ثمة ، كان لا بد أن تكون هذه الطريقة في الاكتساب محل غموض ومحاكمة لا تنتهي . إن السكان الذين غادروا البلاد برضاهم قد وافقوا على هذا النوع من المعاملات ليمكنوا من الاعتراف بمساكنهم ومن أن يستخرجوا منها بعض المنافع . ولكن هناك من المالكين الأوروبيين من استغل الثقة وحدث كثيراً من الخسائر ، فهدموا كل ما يمكن أن توجد فيه أشياء تباع للاستفادة منها ، وضاعت حقوق المالكين القدماء في تلك

القضايا ، لأن المدم كان يقع في حين أنه لم تكن هناك إمكانية لاستبقاء حقوقهم ، خاصة وأن معظم عقود البيع كانت تتم بواسطة تحايل السماسرة اليهود .

وفي الجزء الخاص بالتشريع الإسلامي ، سأتكلم بإسهاب عن تلك التجاوزات والعقود التي كانت - وأكرر ذلك - تتنافى مع قوانيننا .

غير أنني سأذكر فيما يلي ، بهذا الصدد ، حادثة عرضية .

لقد كان أحد أقربائي يملك جنائاً فيه دار للاستجمام أنيقة البناء . وكانت هذه الملكية من جملة الأملاك المحتلة عسكرياً . ولما رأى بعضهم تلك الأبهة وتلك الزينة ، ظنوا أن الدار تحتوي على كنز دفين (لأن معظم السادة الأوروبيين لا يحملون إلاّ بالكنوز) . وهكذا ، سارعوا إلى الحفر وتفتيش الأرضيات وتهديم بعض الحيطان التي شك في أنها تخفي بعض الثروات . ولما لم يجدوا شيئاً باعوا كل المواد التي كان لها ثمن بل جمع كمية من المال .

وقضل وصي هؤلاء الأيتام الذين كانوا يملكون الجنان ، فضل الكراء على أن يقوم بإصلاحات . وتقدم طبيب إنكليزي للشراء ، وبما أن الوصي لا يستطيع القيام بغير الكراء ، فإن المفاوضة وقعت فيما يخص حق الانتفاع ، لا فيما يخص الملكية . وطلب مني أن أحرر النود والشروط وفقاً للقانون ، وقد أوضحت بأن ذلك الملك كان مستأجراً فقط مقابل مبلغ سنوي قدره كذا ، ولا تدوم الاتفاقية إلاّ ما دام المبلغ يدفع مضبوطاً . وبعد إبرام العقد ، تسلم الطبيب الملك وقام بجميع الإصلاحات الضرورية في ذلك المسكن . ولما علم القنصل الإنكليزي في الجزائر بإمكانية إجراء مثل هذه الصفقة ، وبأن نفس الأيتام كان لهم جنان محتل عسكرياً كذلك ، اقترح على الوصي المذكور أن يسلمه له بشروط مشابهة للشروط التي وقعت مع الطبيب الإنكليزي ،

لقد طلب الوصي 1800 فرنك عن الكراء السنوي ، ولكن الجنرال ك... الذي سمع بهذا الاقتراح تدخل في المفاوضات ، وأبلغ الوصي بأنه سيهدم النباتات ويقتلع الأشجار لو وقع اكتراء الجنان للقنصل الإنكليزي ومن ثمة ، فإن ذلك الوصي لم يتمكن من الاكتراء للقنصل الإنكليزي بسبب الضغط الذي وقع عليه . ويقال إن الجنان اكترى فيما بعد للجنرال ك... مقابل 1023 فرنك عن كل سنة فيما اعتقد . وبدلاً من أن يقوم الجنرال المذكور بتصليحات وإعادة الجنان إلى وضعه الأول ، فإنه قد أهمله وتركه يزداد تخريباً .

وبنفس الطريقة ، استولى الجنرال ك... على ضيعة جميلة كانت من أملاك علي باشا (1) وتشتمل على بنايات ممتازة ، فيها جميع المرافق التي يمكن تصورها . ولكن الملاك يشتكون من أن السيد ك... لا يدفع حتى أجره الكراء . وبالفعل ، فإنه كان يعتبر كل هذه الأملاك من أملاكه الخاصة ، ويقال أنه كان يحتفظ بالعقود ولا يريد تسليمها لأصحابها . واستولى نفس الجنرال على ضيعة أخرى تعرف باسم «والي دادي» (2) كانت تابعة للمؤسسات الخيرية ، كما أنه استولى على ضيعة كبيرة كانت تعرف باسم «الآغا» وتدعى اليوم «الدار المربعة» ابتناها يحيى آغا ، وقد كلفته أكثر من مليون من الفرنكات . ومقابل هذه الضيعة فإن الجنرال ك... لم يعط لأيتام يحيى آغا سوى حانوت أحده من أملاك الدولة لهذا الغرض . وإذا كان وصي هؤلاء الأيتام قد وافق

(1) هو علي بور صالي الذي عين دايا سنة 1817 فحاول أن يقوم بإصلاح ديني ، ولكن الطاعون الذي كان قد بدأ في تلك السنة قد أصابه فتوفي بعد عام واحد من الحكم وترك المنصب لحسين داي سنة 1818 .
(2) تقول الأسطورة بأن والي داده هو الذي أثار العاصفة التي حطمت أسطول شارل الخامس سنة 1541 .

على العملية فلأنه لم يكن قادراً على معارضة ذلك العمل التعسفي الذي ما كان ليقع في عهد الأتراك . ، وهكذا ، أخذ الوصي ما أعطي له في المقابل بدلا من أن يضيع كل شيء .

بهذه الطريقة أصبحت للجزال ك... أملاك في مدينة الجزائر ! فهو لا يريد دفع الكراء ولا إعادة العقود لأصحابها . إن السيد ك... يزعم بأنه تحرري ، ويعارض حكومته لأنه لا يشغل منصباً . أن السيد ك... العضو في مجلس النواب ، مكلف ببحث المصلحة العامة في فرنسا . ولكن ما أعظم أخطاؤه في إفريقيا ، وهو مع ذلك شخصية بارزة ! ويمقتضى أية مبادئ أخلاقية بتصرف على ذلك النحو ؟ إذا نرى بأن هذا المشروع يطبق ، على الأقل نوعين من المبادئ يختلفان كل الاختلاف إذا قارنا تلك التي اتبعتها في إفريقيا وتلك التي يدينها في فرنسا . ونراه كذلك بوجهين : فهو تحرري من جهة ورائد للحكم المطلق من جهة أخرى . وأخيراً نسأله هل هو يريد تسيير الجزائريين وحماية مصالحهم وفقاً لقوانين نابوليون أم لقوانين الإقطاعية القديمة .

يستخلص مما ذكر أعلاه ، أن الجزال ك... قد اغتنى على حساب الجزائريين وشرف الأمة الفرنسية ، إن هذا الجزال يتلقى كراءاً مرتفعاً من الحكومة الفرنسية عن جتان على آغا . إنه يعرف كيف يأخذ مقابل أملاكه المزعومة ، أما الجزائريون الذين أخرجوا بعد السلاح من مساكنهم فإنه لا يدفع لهم ثمن بيع ولا كراء . ولتتويج أعماله ، فإن هذا الجزال لم يخش أن اقترح إبادة الجزائريين بعد أن تفاهم وجردهم من جميع ممتلكاتهم .

أرجو أن يثق قرائي بأنني لم أعزم على ذكر سيرة السيد الجزال ك...

في هذا الكتاب إلا بعد أن رأيت أعماله وقرأت كتاباته . وشخصياً ، فإنني لا أحقد على هذا الجزال ، وعليه ، فإنني لن أعرض هنا إلا الأفعال التي شاهدتها بنفسني ، وأستطيع القول بأنني أمرّ مرّة الكرام على بعض الأحداث التي لو ذكرتها لابتعدتني عن الإطار الذي حددته لنفسني ، والتي كان يمكن أن تجلب انتباه محبي الإنسانية والعدالة .

إن كل إنسان عادل يرى بوضوح أن السيد ك... قد نقض ما جاء في وثيقة الاستسلام ، وأن هذا الخطأ الأول كاف للتدليل على سلوكه السيئ . إزاء الإفريقيين ، وأن طريقته في الحكم كانت تتنافى مع مصالح الفرنسيين .

وعلى هذا الأساس ، فإن أناية شخص واحد هي التي تسببت في العار والتوبيخ اللذين تعرضت لهما الحكومة الفرنسية في إفريقيا . وهذا صحيح بحيث أن القبائل صلحوا يبيعون كل من يريد إقناعهم بإمكانية حدوث اتفاق سلمي ، بقولهم : « لا ينبغي أن نصدق من لا يفون بوعودهم » . وبالفعل فما هي الثقة التي توضع في تاجر لا يلتزم بوعوده ؟ ويوفي ما عليه من سندات بالكلام الطيب ؟ إنه يكون مجبراً على أن يشتري كل شيء نقداً . إن الحكومة الفرنسية ، بالنسبة للقبائل ، توجد في نفس وضعية التاجر المذكور . وحولاء القبائل لم يموّدوا بفرقون بين الأوروبيين ، أنهم يعممون وية ولون : « أنهم مسيحيون ولا يمكن أن يصادقوهم ولا أن ينسوا حقهم الديني ، ذلك لأنهم لو أتاحت لهم الفرصة للاعتداء عليهم لفعّلوا ، ولأنهم لا يمدّون على الأحياء فقط إنما يسلطون حقدهم كذلك على الأموات بتهديم مدافنهم ، الخ ... الخ ... » .

وهكذا ، فإن سلوك السيد ك... وإدارته في الجزائر لم يؤدي إلا لتفجير قلوب الجزائريين والإفريقيين بصفة عامة . انه جعلهم يحقدون من نوابا

فرنسا لإزائهم ، وقدم لهم الدليل القاطع على أن الفرنسيين ، بدلاً من أن يأتوا لنشر مبادئ الحرية والحضارة ، إنما جاؤوا معهم ، على العكس من ذلك ، بالتعسف والعبودية اللذين يجيدون تطبيقهما أحسن من الأتراك أنفسهم ، لقد كان هؤلاء الأتراك على الأقل ، يوحّدون مصالحهم بمصالح الأهالي ، ويحرمون ملكياتهم وعاداتهم وحتى تقاليدهم القديمة على الرغم من أنها مخالفة للصواب .

فبتلك السياسة ، وباتباعهم تلك الطريقة ، استطاعوا أن يحكموا هذا الشعب وأن يكتسبوا قلوب الإفريقيين الذين لم يستعملوا معهم ، أبداً ، لا القوة ولا العنف . إن الظلم لا يدوم ، والعدالة خالدة ، والحرية هي أساس النظام الاجتماعي .

لقد لوحظ أن هذا الجنرال كان يلحظ الدموغ وهو يغادر الجزائر .. يا له من ارتباط ويا له من عطف على هذا البلد !

إنه التعطش إلى الثروة ، لا يمكن التخفيف من حدته ، فكلما شربنا تقنا إلى الشرب ، ولذلك نستطيع القول بأن نشوة الجنرال ك... ما تزال مستمرة . إنه يقارن الجزائر في مؤلفاته بالأرض الموعودة ، وأخبت الأراضي في الجزائر هي بالنسبة إليه ، أحسن من أراضي الهند والجزر . ولكن الأغرب في الأمر هو أنه يزعم أنه محبوب ، وبأن جميع سكان مدينة الجزائر يرغبون أشد الرغبة في عودته . وفي مناسبات أخرى يتهم الجزائريين بأنهم منهوه من تحقيق مشاريعه ويسأل السيد دو فنتان إذا كانت هناك وسائل أخرى للتخلص منهم غير الإبادة .

إن الجنرال ك... في نظرنا ، قد قدّم مشاريع جنونية لا تطبق ، إن نظريته تبدو لنا صعبة التطبيق لأنه يريد أن يجعل من نتيجة مصدر ثروة لفرنسا

وسهلاً صحيحاً ، كما أنه يريد أن يلطف جوها وهواءها . ومن حقنا ، قبل أن يشرع في هذا العمل ، أن نشير عليه بالعمل على تخفيف حدة الطمع عند بعض الأشخاص والتخفيف من سحق سكان سهل متيجة عليه ، وعلى اكتساب قلوب القبائل وجميع الجزائريين . بقي لي الآن ، أن أبين لقرائي التناقضات المترتبة عن أقوال الجنرال ك... وسلوكه . إن هذا الجنرال لا يرى ، لضمان أمن المعمرين ، وسيلة أخرى غير بناء الحصون ، ولا يعتمد في شيء على القانون والإدارة العادية . إنه يبدو لي من المحزن بالنسبة للمعمرين والأهالي على حد سواء ، أن يكونوا مضطرين على التحارب باستمرار ، وأن يبقوا فيما بينهم أوضاعاً عدوانية تقدم لأوروبا جمعاء نوع الحضارة التي يريد السيد ك... أن يفرضها على الإفريقيين .

إذا كان الجزائريون قد أسفوا على تغيب أو رحيل السيد ك... كما أراد هذا الجنرال أن يقتنعوا بذلك في كتاباته وجرائده ، وإذا كان محبوباً في هذا البلد ، فلماذا إذن ، يقدم تلك المشاريع الرامية لخلق العداوة ؟ وإذا كان صديقاً فلماذا يخشى أن يماثل معاملة الأعداء ؟ لا ، إنه غير محبوب عند الجزائريين ، ولا يمكن أن يكون كذلك . إنه يريد أن تعينه الحكومة الفرنسية نائب مالك في إفريقيا ليتمكن من إنعام أعماله وتحقيق مشاريعه .

أعتقد أن الجنرال ك... سيفضّب عليّ عندما يقرأ كتابي الذي يفصح جزءاً من سلوكه وتصرفه في الجزائر ، وعليه ، فإنني أقول مسبقاً بأنني ، للدفاع عن نفسي ، سأكتفي بذكر الشهود من بين أصدقائه أنفسهم . ولكن لماذا سأكون في حاجة إلى الدفاع عن نفسي ؟ إنني لا أذكر هنا إلا أفعالا لا يستطيع هو نفسه إنكارها ، وأن يدي لا تخط إلا أحداثاً ووقائع حقيقية .

ومن ثمة ، فإذا كان السيد الجنرال ك... يريد تقديم لوم فما عليه إلا أن يوجهه لأهوائه وضميره ، لا لقلبي الذي لم يكتب إلا الحقائق . إن تفوقي الرئيسي في المعركة التي تلوح من بعيد ، هو أن قرائي الذين يتمون إلى أمة بضاهي عدلها عظمتها وكرمها ، سيثيرون عليه بدلاً من اتهامي ، بالنزاهة الصمت لأن الإشهار سيزيد من اللوم الذي يستحقه .

يجب على السيد المارشال ، في مصلحته الخاصة ، أن يفكر ويراجع نفسه ، وأن يحكم ضميره فيما قام به من أفعال ، وإذا وجد أن هذه المرأة لا تعكس له صورة معمودة عن شخصه ، فإنه مع ذلك ، ينبغي له أن يشكرها لأنه يرى نفسه فيها على حقيقتها ، ولأن تلك الصورة يمكن أن تساهم في أن تجعل من ذلك الشخص الذي يجب أن يكونه .

لقد تكلمت (الفصل الأول من الكتاب الأول) عن سكان إيالة الجزائر ، وقلت بأن عددها يبلغ عشرة ملايين نسمة ، قد يعتقد بعض قرائي أنني أبالغ ولذلك أقول لهم بأن على المرء أن ينتقل في داخل الإيالة لمدة أسبوع على الأقل ليكون لنفسه فكرة تكاد تكون صحيحة عن عدد هؤلاء السكان واستعداداتهم ، ولكي يصدق ما قدمته من أقوال .

إن خموية أرضها وصحبة جبالها وقناعة أهلها قد ساعدت كثيراً على مضاعفة الجنس البشري فيها .

وعند سكان الصحراء والقبائل ، وهم كثيرون جداً ، لا يصادف المقلدون إلا نائراً ، ولا يعرف هؤلاء السكان أمراضاً مزمنة ولا كريمة .

إن الرحلتين اللتين قمت بهما إلى قسنطينة ، والأحداث التي أجريتها

مع المراطيين وأصدقائي الذين كانوا يرافقوني ، كلها قد ساعدتني على زيارة داخل الإيالة .

ولقد ركزت انتباهي كملاحظ بسيط ، وتوجهت إلى الحياة في المدن والقرى والقبائل لأعرف عدد الأسر في كل مكان ، ثم حصرت عدد كل أسرة في أب وأم وخادم . كما أنني سألت هؤلاء الحياة رأيهم في عدد سكان المدن أو القبائل المجاورة لتجنب الأخطاء والمبالغة وعندما كنت أصل تلك المدن والقرى ، كنت أبدأ في حسابي إلى الحلول الوسطى ، وهكذا استطعت أن أؤكد بأن عدد سكان الإيالة عشرة ملايين نسمة .

إن الكتاب الذين نشروا مؤلفات عن الجزائر ، لم يقدموا إلا بعض المعلومات المشكوك في صحتها عن تلك القارة الفسيحة . وقبل الغزو ، إن الأوروبيين لم يكونوا يعرفون حتى الجزء الساحلي من مملكة الجزائر الذي يقع بين وجدة في المغرب وغدامس في الجنوب الشرقي (مملكة طرابلس) .

إن بعض الجنرالات المشهورين (3) لم يترددوا في اقتراح إبادة أمة بأكملها مركزين اقتراحهم على قلة عدد السكان . ولو افترضنا أن هذا العدد القليل لا يتجاوز المليونين كما ذكر ذلك بعض الكتاب ، ألا تكون إبادة مليونين من الناس جريمة في نظر الشعوب المتحضرة والإنسانية جمعاء ؟ .

لاني أرى أنه لا ينبغي أن يكون الاختلاف في الدين سبباً في سلب الحقوق الاجتماعية .

(3) يفصد كلوزيل ودورو شمو ودورو فيكو ، الخ ...

إن خصوبة الأرض الجزائرية لا شك فيها ، وقرب هذه القارة من فرنسا أمر بديهي ، كما أن استسلام سكان مدينة الجزائر لا يخفى على أحد . ولكن الاستعدادات العدائية لباقى سكان الإيالة تجاه الفرنسيين قد احتدمت إما بسبب التعصب نظراً لانتهاك المساجد ومعابد المرابطين وحتى مدافن الأموات ، وإما كذلك ، بسبب الطرق السيئة التي يستعملها المتصرفون الفرنسيون في الجزائر .

إن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تستفيد من منافع الإيالة دون أن تنفق كنوزها وتعرض شرقها بحاربة هذا الشعب المعارض لنظرها . ذلك أن تلك الحكومة لن تستخرج منافع الإيالة مني ومن ألف رجل مسلم آخر يستسلمون للظروف . هذا أمر مفروغ منه ، ولا أستطيع أن أخادع قرائي ، ولا أن أداهن الأمة الفرنسية العظيمة وأقول لها بأنها تستطيع أن تحصل على المنافع المتوقعة في إيالة الجزائر . إن كل من يداهن الحكومة الفرنسية ، ويزعم أنه يداها على وسائل تدليل تلك المصاعب كلها ، ليس إلا مناوئاً يريد أن يغتني على حساب الأهالي وعلى حساب فرنسا نفسها . ولكن ، على العكس ، فإن أي رجل عادل ، والحكومة نفسها لا يستطيعان ، حسب براهيني الرياضية المذكورة ، أن يتكرا الحقيقة المتمثلة في أن الجزائر حمل ثقل على فرنسا نظراً لكلفة الاحتلال الباهظة (4) ومن ثمة ، فهي عملية تتناقض مع مبادئ الحكومة التي تدعو إلى التخفيف من مصائب الشعب وإلى تحرره . ومن جهة أخرى ، فإن نفس تلك الحكومة مضطرة إلى أن تسند إلى عدد قليل من الناس

(4) تذكر المصادر أن سنوات الحصار وحدها قد كلفت فرنسا حوالي ثلاثين مليوناً من الفرنكات .

تسيير شؤون الجزائر ، وبذلك تعرض السكان للاستبداد ، وهو مبدأ يتنافى كلياً ، مع مؤسساتها التحررية . إن تجربة ثلاث سنوات من الاحتلال قد بددت كل نوع من أنواع الشك في هذا الموضوع . إن فرنسا لن تنتفع من الجزائر ولن تدخل إليها الحضارة إلا إذا طبقت أحد المبدأين : الأول هو الإبادة ، والثاني هو دعوة جميع سكان الإيالة بصراحة وبواسطة امبراطور المغرب وباي تونس وباشا طرابلس الى بيع ممتلكاتهم والخروج من إيالة الجزائر ، أو إلى إعطاء ضمانات لفرنسا على أن يبقوا خاضعين لها دون أن تكون عبء على إراقة دماء البشر . وبهذا الصدد ، فإن جريدة « البريد الفرنسي » قد قالت في عددها الصادر بتاريخ ٦ سبتمبر : « ولكن ماذا ستفعل حسب زعمها ؟ » (متكلمة عن الحكومة) أمتعرة أم حذلة للإبادة ؟ (متكلمة عن الجزائر) لأن طرق السادة ولاه الجزائر قد أدت إلى استفحال المرض وجعله غير قابل للشفاء . . . غير أن المبدأين المذكورين يتناقضان كل التناقض مع المفهوم الدستوري .

لما أنا الذي أرى الأشياء على حقيقتها ، فإنني أحجم عن أن أعطي رأبي بكل صراحة ، ومن الممكن أن بعض الأشخاص سيجدون في ذلك إساءة لهم ويتهمونني بالبحث عن مصلحة الخاصة أو بالعمل على إعاقة المؤسسات الأوروبية . إنني أتحدى أي كان يزعم بأنه يستطيع معالجة الأوضاع في الجزائر دون استعمال إحدى الوسيلايتين المشروحتين أعلاه ، أو الخروج من البلاد والتخلي عن فكرة الاحتلال ، وذلك بإقامة حكومة أهلية حرة مستقلة ، كما وقع في مصر ، تتدين بنفس الدين وتتبع نفس العادات ، على أن تبرم معها معاهدات تكون في صالح الشعبين . عندئذ ، فإن فرنسا ستجد مصلحتها بكل

تحقيق أحسن من أنه لو تبقى الجزائر مسخرة لها ، وأن العالم كله سيضطرب
لذلك العمل الكريم .

عندئذ ، فإن روسيا من جهتها ستكون مضطرة إلى الاعتراف بالجنسية
البولونية ولا تستطيع أن تلوم فرنسا على سلوكها في الجزائر .

إن هذا التحرر اللبرالي سيزيد من شهرة عصرنا ، خاصة وأن الجزائريين
لا يتدينون بنفس دين الأوروبيين .

هذا هو رأيي إذا كانت فرنسا ، كما أعتقد ، لا تريد إلا إدخال الحضارة
إلى القطر الجزائري ، والقضاء على الاستبداد وعلى روح الانتقام وكل أنواع
الحقد .

إن الحكومة الفرنسية تستطيع أن تتبع نفس الطريقة التي طبقت في مصر .
وإن تقدمها سيكون أمراً محققاً ولا يمكن أن يشك في نجاحها . ذلك أن إصلاح
مصر وتدعيم النفوذ الفرنسي فيها لم يتحققا بواسطة الإدارة الفرنسية والعنف ،
ولمّا يعود الفضل لنائب الملك وللعمل باسمه في إدخال الحضارة والفنون ،
وفي مضاعفة موارد ذلك البلد التي كانت منعدمة أو مشلولة في عهد المماليك .
كما أن الفضل ، أيضاً ، يعود لوجود نائب الملك في إقامة ذلك الرباط المتين
الذي يوجد الآن بين الفرنسيين والمصريين .

إن كل واحد من بين الكتاب العديدين الذين كتبوا عن إمالة الجزائر ،
قد عالج المسألة حسب مصالحه مقدماً بذلك نظريته الخاصة ، ولم يشر أي منهم
إلى الطريقة ولم يهتم بإمكانية تطبيقها والفائدة العامة التي تنتج عنها ، غير أنني
أستشي السيد بيشون لأننا عندما قرأ كتابه باهتمام نجد أن أفكاره عنده مرتبة

ومعالجة بكيفيات أخرى ندل بوضوح على الطريق السبيل الذي اتبعه السادة
الولاة في الجزائر ، وعلى وقوع بعض التجاوزات مثل الاستيلاء على أملاك
الأتراك ، والمؤسسات الخيرية ، وتدنيس المساجد والمدافن والاحتلال
العسكري الخ . . . وغير ذلك مما اشتكىنا منه . ما هي الفائدة التي جناها
الفرنسيون من تلك الطرق ؟ إنهم جعلوا الجزائر غير قابلة للاحتلال ونفروا
قلوب سكان هذه القارة الشاسعة . هذا وإن السيد بيشون قد قدم ملاحظات
منذ أكثر من سنة . فماذا نقول اليوم ، وقد ازدادت التجاوزات وبلغ الشر
أقصاه ؟ إنني أستشهد ، لتدعيم حججي بالجنرال يارنوزين وغيره ممن لا يمكن
للحكومة والأمة الفرنسيين أن تنكروا عنهم وطنيتهم وغيرتهم .

سيرى قرائي ، في المجلد الثاني ، تلك الإدارة الحسنة التي قام بها هذان
الحاكمان (بيشون وبارنوزين) وكذلك تلك الحسرة التي تركاها في نفوس
المواطنين عند ذهابهما .

ولئن لم أنشر المجلدين في نفس الوقت ، فلأنني مكسور القلب من جراء
الأخبار التي تصلني يومياً من الجزائر والتي تقول بأن الدماء تراق ودياناً ، وأن
السخط عام ، وأن بلدي يسير نحو الخراب وأترك لقرائي يقولون لي كيف
تكون أفكار رجل حساس عندما يرى أن تلك الأعمال تم باسم نفس فرنسا
التي تدافع عن مصالح الشعوب وتحارب الحكم المطلق والتي يوجد من أبنائها
أكبر الأساتذة في الأخلاق وفي حقوق الإنسان ، وعندما يرى أن بلده ،
فقط ، هو الذي يحرم من منافع تلك المبادئ الخيرة .

لقد طلب مني أحد أصدقائي أن أنشر موجزاً لكي أجعل الفرنسيين
الحقيقيين بأسون لحالنا ، ومن الممكن أن هذه اللوحة التي كتبت على عجل

ستزعج قرائي بتكرار الأحداث وكثرة الحشو ، ويظنون بأن هذا الأسلوب متأثر بالأدب الشرقي . غير أنهم يجب أن يلاحظوا بأن أي رجل يحب بلاده حباً صادقاً لا يستطيع أن يكتب بأعصاب هادئة دون أن يتوقف عند كل حادث يمثل له إبادة مواطنيه أو تقتيلهم أو تدنيس مدافن أجداده .

ليس هذا الكتاب إلا مجرد تقرير ، وأود من كل قلبي أن تسهر الحكومة الفرنسية على قضية إيالة الجزائر ، وأن تأمر على الأقل ، بأن تقوم اللجنة (5) التي أرسلت إلى تلك البلاد بالاستماع إلى شكاوى وتبليغات سكانها لكي يظهر الحق ويزهق الباطل . هذا وما أنا إلا صدى للأحداث ولسان لأبناء وطني .

(5) هي اللجنة الإفريقية التي أنشئت يوم 7/7/1833 للتحقيق في الوضع الذي آل إليه الجزائريون ولإعطاء رأيها حول الاحتلال .

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2006

Achévé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaia
- Algérie -

Bp. 75 Z.I. Réghaia Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

الجزيرة

لقد تعين مرور 130 سنة من الإبادة ومن إعادة تشكيل عموم مجتمعنا على وقع توالي ضربات النظام الاستعماري كي تنشق أفكار حمدان خوجة النيرة أخيرا وتخرج من حجب ظلام «الليل الاستعماري». فقبلت الدولة الفرنسية، في مارس 1962، على أسس أخرى و بعد معاناة طويلة، قبلت على مضض الاعتراف بسيادة الدولة الوطنية الجزائرية واستقلالها، منصفة حمدان خوجة ضد الجنرال كلوزيل وصوت التحديث السلمي والإرادي ضد التحديث الحربي والإبادي. رجاؤنا هو أن يملأ، في 2005، صوت حمدان خوجة الأسماع في ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

مقتطف من النصدير